أسـرار القـرآن

الجزء السادس

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.
مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة
ومشيخة الطريقة العزمية
السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

قوله تعالى :﴿ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾١٤٨

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ﴾ قد ينسب الله إلى نفسه بعض الصفات التى يتصف بها البشر مثل الحب والبُغض والكُرْه والرضا والغضب والمكر، وغير ذلك ، فيجب أن تؤوَّل وتُفهم بالمعنى اللائق بنزاهة ذاته وأسمائه وصفاته ، لمخالفته سبحانه للحوادث لقوله جل وعلا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [١] فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، وأن إرادته سبحانه لاتتعلق إلا بما سبق فى عمله جل جلاله، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضبا، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوص النعم تسمى محبة . فيلزم من المحبة تعلق الإرادة بالمثوبة وإيصال النعم العامة والخاصة للعبد، ونفى المحبة تعلق الإرادة بالعقوبة والبعد والقطيعة وتسمى بهذه المعانى غضبا وهو ضد الرضا، والله لا يرضى من عباده أن يجهروا بالسوء ، وهو مايسوء به بعضهم بعضا بذكر العيوب والنقائض لما فيه من إفشاء العداوة والبغضاء بينهم ، وما يترتب على العداوة والبغضاء من المفاسد والله لا يحب الفساد.

(الجهر بالسُّوءِ من القولِ) والجهر معناه الإعلان والإظهار وضده الهمس والإخفاء والإسرار. وإعلان السوء وإظهاره يكون قولا برفع الصوت إذاعة، أو إشاعة بغير رفع ، وكل وسائل الإعلان أو الإعلام مثل الصحافة ، والصور المعلقة والرسم ،وكل وسائل النشر ، فيؤثر فى نفوس السامعين كما يؤثر الفعل فى نفوس الناظرين خصوصا إذا كان السامع أو الناظر أدنى من المتكلم أو الفاعل سِنًّا أو اجتماعيا أو ثقافيا . ومن طبيعة الإنسان أن يتأثر بما يراه من غيره ممن فوقه فى هذه

١- سورة الشورى آية ١١ .

الأمور فيشيع فى المجتمع عدم الحياء ، وانطلاق الألسنة بما لا يرضاه الله من القول الذى يقود الناس إلى عمل ما يكون سببا فى شقائهم فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث الشريف : (وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إنَّ الرَّجُلَ لَيَقُولُ الكَلِمَةَ مِنَ الشَّرِّ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يهْوِى بهَا فِى النَّارِ سَبْعِينَ خريفًا) وفى رواية : (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لاَ يَرَى بهَا بأساً يَهْوِى بِهَا فِى النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً) . لأن الكلام معلق فى الهواء وسارٍ فى الفضاء حتى يصادف النفوس المستعدة فيؤثر فيها إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر .

وكما أن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول لا يحب الإسرار به لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [١] وإنما ذكر الجهر هنا دون السر لأن ذكره سبق فى قوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[٢] فَنَفْىُ وجود الخير فيه يدل على وجود الشر فيه ووجود الشر سوء ، ويزيد فى الدلالة على أنه السوء قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ [٣] وهل من الشيطان إلا السوء ؟ وقوله جل جلاله: ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ [٤] أى: متناجون بالسوء وهو قولهم: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾[٥] ومن ثم يعلم أن النهى عن السر بالسوء تضمنه قوله تعالى : ﴿ لاَ

١- سورة المجادلة آية ٩ .

٢- سورة النساء آية ١١٤ .

٣- سورة المجادلة آية ١٠ .

٤- سورة الإسراء آية ٤٧ .

٥- سورة الإسراء آية ٤٧ .

خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ ﴾ والنهى عن الجهر بالسوء مصرح فى قوله سبحانه : ﴿ لاَ يُحبُّ آللَّه الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى : إظهاره وإعلانه .

وكما أن الله تنزهت وتقدست أسماؤه وصفاته لا يحب الجهر بالسوء من القول، لا يحب الظلم ولا الظالمين، قال سبحانه: ﴿ إلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ استثنى عز وجل من ناله ظلم من واحد من الناس أو أكثر فاستنصر المظلوم بعد ظلمه، وجهر بالشكوى ممن ظلمه، شارحا قضيته للقادرين من أقارب الظالم على إزالة الظلم عنه أو أهل بلدته إن لم ينصره أقارب الظالم، وكذلك إن لم ينصره أهل البلدة شكاه للحكام كما يجرى به العرف، فلا سبيل عليه ولا حرج فى الجهر بذكر الظالم بالسوء الذى فيه ، أو يدعو عليه إن قل صبره ولم يجد من ينصره عليه ، لأن الله تعالى لا يحب الظلم ولا يحب السكوت عليه ، بل السكوت عليه معصية لما فيه من انتشار الفساد والفسوق المؤدى إلى هلاك الأمم ، ومقاومة الظلم بكل الوسائل المشروعة طاعة يثاب فاعلها من الله تعالى ، والجهر بذكر الظالم بالسوء أخف ضررا من ضرر الظلم ، ولقد حذر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله : ﴿ آتَّقُوا دعوةَ المظلوم فإنَّ دعوةَ المظلومِ ليسَ بينها وبين اللَّهِ حجابٌ ﴾.

﴿ وَ كان الله سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ أى: وكان الله أزلا سميعا عليما ، وهو لا يزال على ما عليه كان ﴿ سَميعاً عَليماً ﴾ يسمع كلام ودعاء المظلوم فيستجيب له دعاءه بالليل والنهار سواء أسر القول أو جهر به ، ولا يعزب عن علمه ــ وإن خفى كل شىء ــ حقيقة الأمر ومقدار الظلم ، فلا يتجاوز المظلوم بالجهر بالسوء مقدار الظلم ، قال تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[١]

١- سورة الشورى آية ٤٠-٤١ .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[1] وقــال ﷺ وآله﴾ (مَن ابتُلِىَ فَصبَر وَأُعطِىَ فشكر وظُلِمَ فَغفر وظَلَمَ فاستغفرَ ، أُولئك لَهـــم الأمن وهم مهتدون) . والله سبحانه وتعالى عليم بجميع المعلومات، ومن جملتـــها حال الظالم والمظلوم.

قوله تعالى:﴿ إِن تُبْدُو ا۟خيراً أَوَ تُخفُوهُ أَوَ تَعفُوا۟ عَن سُوءٍ فَإِنَّ آللَّه كَـــانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾ ١٤٩ ﴾

بعد أن بين الله سبحانه أنه لا يحب ولا يرضى من أحد أن يعلن ويظهـــر السوء من القول بغير عذر، أى : بغير ظلم وقع عليه ، وبـــيَّن حـــق المظلــــوم فى الشكوى وذِكْره من ظلمه بالسوء الذى فيه بقدر ما وقع عليه من الظلـــم ، وأن السوء قولا أو عملا يجب اجتنابه إلا لضرورة ، كالجهر بالسوء من القول فى حق الظالم لطلب الاستعانة على إزالة الظلم ، رغَّب عز وجل فى فعل الخير وهو ما يحبه من القول والعمل ليجاهد المؤمن نفسه بمحاب الله ومراضيه ، حتى يتخلق بأخلاق الله تبارك وتعالى ، فقال جل شأنه : ﴿ إِن تُبدُوا۟ خَيراً ﴾ أى : إن تظهروا أىَّ خير من الأقوال والأفعال ومحاسن الخصال وإنفاق المال ، كإفشاء السلام وطيب الكلام والنصيحة لمن استنصح ، وحسن إجابة السؤال ، والدعوة بالحكمـــة والموعظـــة الحسنة ، وغير ذلك مما هو من وظيفة اللسان ، ومن الأفعال كالإغاثة وجميع أنواع التعاون التى تنطوى تحت قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَـــى الْـــبِرِّ وَالتَّقْـــوَى ﴾ [2]. ومحاسن الخصال كالتواضع وحسن الجوار ورد الجميل وما شابه ذلك، وإنفاق المال كالتصدق والتبرع وكل ما ينفق فى طاعة الله تبارك وتعالى.

١- سورة الشورى آية ٤٣ .

٢- سورة المائدة آية ٢ .

﴿ أو تُخفُوهُ ﴾ أى: تفعلوه سرا أو تضمروه فى أنفسكم بالعزم على فعله، وقد خَيَّر الله جل جلاله بين إظهار الخير وإخفائه لمراعاة حال الفاعل إذا كان يخشى لا دخول الرياء على عمله إن أظهره، وإخفاؤه خير له من إظهاره؛ وإن كان ى يخشى على نفسه من الرياء وقصد أن يقتدى به غيره تحريضا على فعل الخير فإظهاره أرجح من إخفائه، وإن كان صدقة للفقراء المتعففين فإخفاؤها خير من إبدائها عملا بقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿ أو تعفُواْ عَن سُوء ﴾ أى: تعفوا وتصفحوا عمن أساء إليكم مع ما أباح لكم أن تؤاخذوه، وأذن لكم فى مؤاخذته، ومع أن العفو مندرج فى إبداء الخير وإخفائه، نصت عليه الآية تنبيها على أنه خُلق من أخلاق الله ومن يتخلق به يحبه الله.

وأرفع المقامات عند أهل اليقين مقام المحبة، ألا ترى أنه مقام صاحب مقام الختام عليه الصلاة والسلام، وقد قدم الله ذكر إبداء الخير أو إخفائه على ذكر العفو توطئة.. وتمهيدا لذكره، ويرشدك على ذلك قوله تعالى: ﴿ فإنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّ قَدِيراً﴾ أى: كان العَفُوُّ أسمه والعفو شأنه وخُلُقه، وعفوه عن المسيء مع قدرته الكاملة على العقاب والمؤاخذة والانتقام. فعليكم أن تتخلقوا بخلقه وليكن عفوكم عمن ظلمكم وأساء إليكم عن قدرة لا عن عجز، يحبكم الله ويعفو عن ذنوبكم ويجزل لكم المثوبة على ما أبديتم أو أخفيتم من فعل الخير وعفوتم عمن ظلمكم وأساء إليكم، والله قدير يعطيكم ما ترجون وفوق ما ترجون وهذا معنى المبالغة فى

١- سورة البقرة آية ٢٧١ .

القدرة، إذ لا مبالغة فى صفات الله لأنها غير متناهية ولا محدودة، ولكن المبالغة فى العطاء لا فى الصفة.

قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ ﴿١٥٠﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الشريفة ما يعرف به الكافرون المخالفون لأصول الإيمان، التى يبنى عليها ما عداها من أصول الإيمان وفروعه، ليبين سبحانه أمهات الكفر التى يتبعها ما عداها من صفات الكافرين ، وهم ثلاثة أنواع من الناس ، وبدأ سبحانه بوصف النوع الأول منهم فقال تنزهت ذاته : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكفُرونَ بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ﴾ وهم الذين ينكرون وجود الله تبارك وتعالى وينكرون النبوة والرسالة ، وهم كثيرون فى هذا الزمن ، وعطف النوع الثانى بقوله جل وعلا :﴿ وَيريدونَ أن يُفَرَّقُواْ بَينَ آللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أى : والذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله وهم الذين آمنوا بالله تعالى وكفروا برسله عليهم الصلاة والسلام ، وادّعوا أن ما تأتى به الرسل من التوحيد والشرائع إنما هم من عند أنفسهم وليس من عند الله ، وكفرهم هذا هو عَيْنُ كفرهم بالله تعالى ، ثم عطف النوع الثالث بقوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ أى : والذين يقولون نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض ، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى . فقد قالت اليهود:نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وقالت نؤمن بعيسى ونكفر بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَيُرِيدُونَ ﴾ بهذا القول ﴿ أن يَتَّخِذُواْ بَينَ ذَلِكَ ﴾ أى : بين الإيمان والكفر ﴿سَبِيلاً﴾ أى : طريقا فاصلا بين الكفر والإيمان يختصون بسلوكه مع أنه لا وسط بين الكفر والإيمان قطعا إذ الحق حق والباطل باطل ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، والله

يقول: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾ (١) فاتخذوا اليهودية والنصرانية وهما بدعتان ليستا من عند الله عز وجل ، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذى بعث به جميع المرسلين وهو ملة إبراهيم ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

﴿ أُوْلَئِكَ﴾ خبر (إِنَّ) الذى حكم الله به عليهم بالكفر بقوله تعالى (هُمُ) الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ الكَافِرونَ حَقاًّ ﴾ أى: الكافرون على التحقيق لا على الظن الذى يمازجه الشك فى كفرهم، بل هم الراسخون فى الكفر الكامل ﴿ وأعتدنَا للكَافِرينَ ﴾ جميعا وهم داخلون فيهم دخولا أوليا ﴿ عَذَاباً مُّهيناً ﴾ يهينهم وتشملهم فيه الذلة والضعة جزاءً بما كفروا بالله ورسله، وإرادة التفرقه بين الله ورسله أبلغ فى الكفر من التفرقة وإلباس الحق بالباطل بقولهم: ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ والكافر بالبعض كافر بالكل.

قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ باللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

بعد أن بَيَّنَ اللّه سبحانه وتعالى أحوال المنافقين والكافرين وحكم على كل نوع منهم بما يستحقونه، أخذ يبين البشائر والوعد بالخير لتطمئن قلوب أهل الإيمان بنيلهم الخير والأجر العظيم بوعده الصادق بقوله تعالى: ﴿ وَالذِّينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ

١- سورة يونس آية ٣٢.

٢- سورة البقرة آية ١٣٠.

وَرُسُلِهِ) أى: صدقوا الله ورسله لما وهبهم سبحانه من القابل الذى جعلهم ﴿ وإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ﴾[1] فكان تبليغ الرسل عليهم .

الصلاة والسلام إلى القلوب المؤهلة للإيمان لذكرى الحقائق التى شهدتها تلك النفوس المؤمنة، فما صغت إلى الذكرى حتى تذكرت فحضرت فسلمت وأسلمت وآمنت.

﴿ وَلَم يفَرقُّوا بَينَ أَحَدٍ مِّنهُم ﴾ أى و لم يفرقوا بين أحد من الرسل فى الإيمان من حيث الصدق فى خبرهم عن الله، حيث الإيمان بهم جميعا أنهم مرسلون من قِبَلِه سبحانه، فلا يشك مؤمن فى تصديق نبوة نبى من الأنبياء ممن قصهم الله علينا فى القرآن، لأن الإيمان برسل الله جميعا أصل فى الدين، وعدم التفريق بين أحد منهم لا يلزم العمل بشريعة السابقين منهم، وشريعة آخرهم هى الملزمة. ويجب على المؤمن معرفة الواجب والجائز والمستحيل فى حقهم ، وعدم التفرقة بين أحد منهم ، والإيمان بهم جميعا لا يلزم منه العمل بشريعة السابقين منهم ، وشريعة آخرهم هى اللازم العمل بها وجوبا ، وإن الإيمان بشرائعهم من عند الله ، إلا أن الأخيرة منها تنسخ ما قبلها إلا ما تقره منها فإنه يصير من تعاليم الشريعة الجديدة . مثل قوانين الدولة تعدِّل ما قبلها أو تلغيه والحكم الملزم هو الحكم الأخير ، والله سبحانه أعلم بما يصلح عباده ومصالحهم.

والتفرقة بين رسل الله جهل بحقيقة الرسالة واتباع للهوى الباعث عليه التعصب البغيض للآباء والأبناء على الرياسة والزعامة وإيثار الدنيا على الآخرة ، ولا يعتد إيمان من يؤمن ببعضهم ويكفر بالبعض الآخر إيمانا ينفعه عند الله تبارك

١- سورة المائدة آية ٨٣.

وتعالى ، إنما المؤمنون الذين يعتد إيمانهم عند الله سبحانه إيمانا قويا وصحيحا هـــم الذين يؤمنون برسل الله جميعاً و لم يفرقوا بين أحد منهم ، ويؤمنون بالكتاب كلـــه أى : بكل ما أنزل الله على رسله الطارف منه والتليد ، و لم يقولوا نؤمن بـــبعض ونكفر ببعض ، و لم يتخذوا بين الكفر والإيمان طريقا يبعدهم عن الحق الذى جاء من الله.

وأهل الإيمان بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يعتقدون عقيدة حقه أنه خاتم الأنبياء ، وأنه لا نبى بعده ، وأنه رحمة الله العامة للعالمين ، وأن عيس وموسى ومن قبلها لو أدركوا زمنه ما وسعهم إلا اتباعه ، وليس هذا القول للعلم بمكانته ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ التى أنزله الله فيها ، ولكن لما علم مما جاءنا به من عند الله وما جاء به الرسل قبله فإن ما جاءنا به ﴿ ﷺ وآله﴾ به كمال الإنسان من عقيدة حقة ، وعبادة صحيحة ومعاملة حسنة ، وأخلاق فاضلة جميلة وعظيمة ، وعلم ومعاينة ، وكل ما جاء به الرسل قبله هو بعض ذلك ، ويؤمن كل مؤمن منّا أن الله جمع له الدعوة والحجة فى شىء واحد وهو القرآن ، فهو دعوة وحجة فى آن واحد، وكـــل الرســـل قبلـــه ﴿ ﷺ وآله﴾ كانت دعوتهم تغاير حجتهم ، فكانت حجة الخليل عليـــه الصـــلاة والسلام النار ، كانت له بردا وسلاما ، وحجة موسى العصا ، وحجـــة عيســـى أحياء الموتى ، وحجة سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ القرآن المجيد ، وهو دعوة ولذلك حفظ الله المسلمين من أن يدَّعوا ما ادعاه أهل الكتابين ، وما نزال ولن إلى أن تقوم الساعة نقول : أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ولو نظرنا إلى أديان أهل الكتابين ، لعلمنا أن حجتهم -أى المعجزة - أفسدت على الناس عقـــولهم ، فقالت اليهود : عزير بن الله ، لأنه غاب عنهم مائة سنة ميتا وقام من بعد موتـــه ، فاعتقدوا أنه ابن الله ، وعيسى معجزته إحياء الموتى وإبراء المرضى وليس له أب ، فقالوا : فعل فعلا لم يفعله إلا الله فهو ابن الله .

أما سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فإنه أظهر من المعجزات العملية ما هو أكثر من معجزات كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد أشرت إلى بيان معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ فى رسالة خاصة اسمها: (معجزات سيد المرسلين) ومع ذلك فإن الراح الطهور دارت على أرواح المؤمنين من روح القرآن المجيد، الذى كلما تكرر

أشرقت أنواره تجذب القلوب إلى علام الغيوب، وهو الروح السارية فى أشباح أهل الإيمان، لا تنفى عجائبه، ولا تغرب شمسه، ولا تحجب أسراره، غَضٌّ نضر، فيه شفاء للقلوب، وجمال للنفوس، وعيان للعقول. وليس من التفرقة بين الله ورسوله أن نعتقد أن خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد اليقين الحق بصدق رسالتهم، ومساواتهم فى الدعوة إلى التوحيد الخالص والعبادة الخالصة والأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة الجميلة، ولكنه ﴿ ﷺ وآله﴾ جاءنا بالعلم الذى فتح كنوز الغيب المصون، وكشف الستار عن آيات الله فى الكائنات حتى فرت الأرواح إلى الله تعالى، قال سبحانه﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (1) وبذلك فضلهم سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن تفضل الله به علينا ببعثته ، قال تعالى : ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (2) وعسى هنا بمعنى اللام ، والمقام مقام الربوبية يراه العالم أجمع فيحمدونه لمكانته من الله تعالى فلا يبقى كافر ظاهر ولا منافق فاجر إلا ويحمده ﴿ ﷺ وآله﴾ فكيف يكون حال المؤمنين ؟ وليس من التفرقة بين الرسل وبعضهم أن نعتقد أفضلية سيد المرسلين محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن الله يقول: ﴿ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ من حيث أنهم رسل الله بعثوا ليبينوا لعباد الله محابَّهُ ومراضيه سبحانه.

١- سورة الذاريات آية ٥٠.

٢- سورة الإسراء آية ٧٩.

﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المنعوتون، بهذه الصفات الجميلة الجليلة الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ سَوفَ يُؤتِيهم ﴾ الله ﴿ أُجُورَهُم ﴾ التى وعدهم بها جزاء إيمانهم بالله ورسوله ، وأكد سبحانه وتعالى أنه يؤتيهم أجورهم بسوف التى تفيد تأكيد الفعل المستقبل ، كما أن لن لتأكيد النفى المستقبل ، فإن كلا من لن وسوف حقيقُته للتأكد ، وأتى بحرف التسويف المفيد نيل الجزاء بعد فناء الدنيا والدخول فى أول أيام الآخرة ، وتبتدىء بالموت فالبرزخ فالنشر فالحشر فالفوز بهذا الجزاء وهو وعد الله لأهل الإيمان بقوله تعالى : ﴿ سَوْفَ يُؤتِيهم أُجُورَهُم ﴾ والأجور جمع أجر ، والعطية على قدر معطيها ، ولم كان الأجر من الله يلزم أن نعلمه ببيانه فى الآيات القرآنية فى غير هذه الآية ، ولذلك الأجر فى البرزخ هو أنس الروح بمشاهدة ملكوت الله الأعلى فى عليين إلى حيث أرقى معارج القرب ، وللروح بالجسم اتصال وهو فى برزخه ليحصل له الأنس فرحا بما سيناله غدا، وبعد ذلك فالقيام من القبور حيث يقابلهم فضل الله تعالى من روح وريحان ومن نجائب أو رَفَارِفَ أو برق أو أجنحة يخلقها الله تعالى لمن يبعثون من قبورهم ، يصيرون بها إلى مقر رضوان الله تعالى الأكبر، أو الفرار إلى دار الرضوان والفردوس لما كانوا يفرون من معاصى الله فى الدنيا إلى طاعته ، وفوق ذلك من أنواع الأجور بما لا تفى به العبارة ولا تبينه الإشارة ، حيث يكون المؤمن على منبر من نور أو مَقْعَد صدق عند مليك مقتدر ، وما فوق ذلك حُظِرَ أن يُبَيَّنَ إلا للقلوب المطمئنة بذكر الله تعالى .

فلفظ أجور فى قوله تعالى: ﴿ سَوفَ يُؤتيهم أُجورَهُم ﴾ تنزل يجعل السامع يتذَوَّق فضل الله عليه، لأنه هو الذى أبدع العبد وجَمَّله بالقابل منه، ووفقه للهداية، وأقامه فى محابه ومراضيه، ثم يزيد هذا الإحسان بأن ينسبه إلى العبد ويحكم له بعطايا أخرى فوق تلك العطايا ويسميها أجُورا، والأجر بحسب الظاهر هو

المعاوضة والمبادلة التى تحصل بين المتعاملين، وتنزه الله تعالى عن أن له بما ينفعه أو ندفع عنه ما يضره حتى يعطينا أجر ذلك.

وهذا الجزاء يَعدُ الله به أهل الإيمان الكامل، و لم يعطف سبحانه وتعالى العمل الصالح هنا على الإيمان كما هى سنة القرآن فى مقام الجزاء، لأن سياق الآيات فى مقابلة الإيمان الصحيح بالله ورسله ـ بلا إرادة التفرقة بين الله ورسله ولا تفرقة كذلك بين الرسل ـ بالكفر الكامل، ومقابلة وعده للذين آمنوا بوعيده للذين كفروا به وبرسله سبحانه، واكتفى بذكر ما للمؤمنين عن أن يقول: أولئك هم الْمؤمِنون حقاً، كما قال فى الكافرين: ﴿ أُوْلَئِكَ همُ الْكَافِرونَ حَقًّا ﴾ دفعا لتوهم أن الإيمان الكامل يتحقق بغير أثره ولازمه من العمل الصالح، ولكن الكفر التام يتحقق ويتأكد ثبوته بدون أثره ولازمه من السوء. أما المؤمنون حقا فقد بينهم الله بما وصفهم به فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عند ربهم وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [١] فلا يتوهم الإيمان على التحقيق بدون ذلك.

﴿ وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ وكان ولا يزال، غفورا أى: ستاراً، لما فطر عليه الإنسان من السيئات التى يدعوا إليها طبعُه ونفسه وجسمُه. فإن الله جل جلاله لو حاسب أتقى الأتقياء على ما وقع منه لا ستحق الدرك الأسفل من النار. ولكنه جل جلاله قرر أن تسبق الحسنى لمن شاء من خلقه فيكرمه بالحسنى وغفران سيئاته، ويرحمه أى يريد أن يمنحه الخير ولو لم يكن أهلا له، لنه جل جلاله أهل التقوى وأهل المغفرة.

١- سورة الأنفال آية ٢-٤

وفى هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّه غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ إشارة إلى ما تقدم بيانه فى شرح قوله سبحانه: ﴿ سَوْفَ يُؤتيهم أُجُورهُمْ ﴾ ومن الذى يقدر الله سبحانه حق قدره ؟ تنزه وتعالى .

قوله تعالى:﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ بعد أن بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة حال الذين يكفرون بالله ورسله، تفريقهم بين الله ورسله، والإيمان ببعضهم وكفرهم ببعضهم، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين اتخذوا الدين رياسة وزعامة وعصبية بغيضة ووسيلة لجمع المال واتباعاً للهوى ، لا هداية إلهيةً ولا رشدا ولا إرشاداً للناس لما يصلح عليه أمرهم فى الدين والدنيا والآخرة ، أخذ جل وعلا يبين بعض أحوال اليهود فى تَعَنُّتِهِمْ وتعجيزهم وجهلهم بالحقائق الدينية فقال سبحانه : ﴿يَسْأَلُكَ ﴾ يا حبيبى يا محمد ﴿ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى : اليهود المعاصرون له ﴿ ﷺ وآله﴾ على طريق أسلافهم فى التعنت والتعجيز لا بقصد الاقتناع والتسليم ﴿ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء ﴾ محرراً بخط سماوى يشهد أنك رسول الله إليهم ، ويكون هذا الكتاب محرراً من الله إلى جماعتهم أو إلى أفراد معينين من أحبارهم ، فعن قتادة : أهم سألوا أن يترل عليهم كتابا خاصا لهم . أو خرج ابن جرير عن ابن جريج قال : إن اليهود قالوا لمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ : لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى إلى فلان أنك رسول الله ، وإلى فلان أنك رسول الله ، وما كان مقصدهم بذلك إلا التحكم والتعنت . وقال الحسن : ولو سألوه ذلك استرشاداً لاعنادا لأعطاهم ما سألوا .

وعن محمد بن كعب القرظى والسدى أنهم قالوا : إن موسى عليه السلام جاء بالألواح من عند الله فَأْتِنَا بألواح من عنده تعالى ، وطلبوا أن يكون المترل جملة وأن يكون بخط سماوى . فلا تعجب ولا تستكثر ولا تستكبر عليهم ذلك السؤال المنبىء عن التعنت والعناد ، فإن أسلافهم كان صنيعهم العناد ﴿ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى﴾ عليه السلام ، ما هو ﴿ أَكبَر مِن ذَلِكَ ﴾ ، إشارة إلى سؤالهم البعيد المنال لبعدهم عن الحق فيه ، وسألوا موسى ما هو أكبر منه بالقبح وسوء الأدب ﴿ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهِ ﴾ الذى أرسلك وكلمك ﴿ جَهرَةً ﴾ أى : عيانا ، عناداً من عند أنفسهم وهو أكبر وأقبح من سؤال خلَفهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يترل عليهم كتابا من السماء ، وكل من السؤالين دليل على إغراقهم فى سوء الأدب والعناد . أما سؤال المعاصرين للنبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فيدل على أنهم معاندون يسألون ما يسألون للتعنت والتعجيز والمراوغة ، ولو استجيب لهم ما آمنوا لأن قلوبهم مطبوع عليها بالكفر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢).

وقد أخبر الله عنهم أنهم يعرفون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما يعرفون أبناءهم ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ (٣). لأنه ﴿ ﷺ وآله﴾ موصوف عندهم فى التوراة بهذا النص : أقبل الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتجلّى من جبل فاران . وترجمة أخرى : وتلألأ من جبل فاران وأتى من بوات القدس وعن يمينه قبس (نار) شريعة لهم .

١- سورة يونس آية ٩٦-٩٧.

٢- سورة الأنعام آية ٧.

٣- سورة البقرة آية ٨٩ .

و(فاران) هى مكة كما ذكر فى معجم البلدان والفصل (٢١) من سفر التكـــوين: إن الله أوحى إلى هاجر بأنه سيجعل ولدها إسماعيل ولدها إسماعيل(أمة عظيمة)وأنه سكن فى برية فاران.

ومن المعلوم بالتواتر سكنه فى البرية التى بنى بها مع والده إبراهيم عليهمـــا الصلاة والسلام بيت الله الحرام وبه تكونت مكة ، وجبل فاران هو جبل أبى قبيس فإذن هؤلاء اليهود يقرأون ذلك عندهم فى التوراة ويعرفون منه النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ كما يعرفون أبناءهم . أفلا يكون سؤالهم له عليه الصلاة والسلام مبالغة فى العنـــاد والفساد ؟ وأما سؤال المعاصرين لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والســـلام رؤية الله جهرة - أى : عيانا - فهو دليل على أنهم يعلمون رؤية الله بالأبصار فى الدنيا مستحيلة ، وطلب المستحيل سوء أدب مع رسل الله عليهم الصلاة والسلام ؛ وليس دليلا على اعتقادهم التجسيمى ـ تنزه ربنا وتعالى عن ذلك علوا كـــبيرا ـ بل هو دليل على عنادهم وفسادهم وسوء أدبهم . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصعِقَةُ ﴾ وكل ما أمات أو أدى إلى الموت يسمى صاعقة ، لا فرق فى ذلك بين خســـف الأرض أو زلزلتها ، أو إنزال نار من السماء أو إخراجها من الأرض ، أو دخول الهم علـــى القلب ، أو الصرع على الأرض المؤدى إلى الموت ، كل ذلك يكنى عنه بالصاعقة وقد تكون الصاعقة بجعل الإنسان كالميت وليس هو بميت .﴿ بظلمِهِـــم ﴾ أى : بسبب ظلمهم ، وهو تعنتهم وسوء أدبهم وطلبهم المستحيل ، وكفـــاهم ظلمـــا لأنفسهم واستخفافا بسرعة نقمة الله منهم وجه سوء الأدب مع الله تعالى ورسله .

ورؤية الله بالأبصار فى الدنيا مستحيلة ولكنها جائزة بالبصائر ، ويتفضـــل الله بها فى الآخرة بالأبصار لأهل مقام الإحسان بغير طلب منهم ، والمســـتحيل فى الدنيا والآخرة هو الإدراك الذى هو كشف الحقيقة على ما هو عليه ، لأن قـــدرة

الله لا تتعلق إلا بالممكن ، ولا تتعلق بالمستحيل الذى هو إيجاد مخلوق يدرك الخالق فى عظمته وكبريائه وعلو مكانته جل جلاله .

أما أنها ممكنة فى الدنيا بالبصائر بما يجمل الله عباده المؤمنين فدليله قوله ﴿ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى : (ومتى أحببتُه كنتُ سمعَه الذى يسمع به وبصرَه الذى يبصر به ...) الحديث ، ومن سمع بالله وأبصر بالله لا تعلم نفس ما أخفى له ، وأما أنها جائزة بالأبصار فى الآخرة لأهل مقام الإحسان بغير طلب فدليله قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[1] وقول رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِى رَابِعَةِ النَّهَارِ) . والرؤية غير الإدراك كما تقدم ، وشبَّه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ النظر بالنظر لا المنظور بالمنظور ، ومسألة عقوبة الله لأصحاب الكليم عليه السلام عندما سألوه رؤية الله جهرة ، كانت لسوء أدبهم فى طلب ماليس لهم ، ولِمَا اعتراهم من الفتنة فى شكهم فى خبر الكليم عليه السلام ، والشك يكاد يكون كفرا حيث أنهم أوقفوا إيمانهم به على أمر مستحيل وهو رؤية الله عيانا بالأبصار فى الحياة الدنيا ، وبدهى أن طلبهم رؤية الله فى الدنيا لا فى الآخرة ، ورؤية الله بالأبصار فى الدنيا لا يقول بها أحد ، وليست الآية دليلا على استحالة رؤية الله مطلقا كما يقول المعتزلة .

﴿ ثُمَّ ٱتَّخذُواْ ٱلعِجلَ ﴾ إلها وعبدوه ، والتعبير بثم يفيد بُعد قلوبهم عن مطالعة الغيوب ، وبُعْد القلوب أشد وأنكى من بعد الزمان والمكان ﴿ مِن بَعدِ مَا جَآءَتهُمُ البينتُ ﴾ أى الحجج الواضحة الدالة على ألوهيته سبحانه وتعالى ، المثبتة للتوحيد الذى لا يقبل الشرك . والمعجزات التى أظهرها الله على يد موسى عليه السلام لفرعون - من يده وعصاه وفلق البحر -كل تلك الحجج والمعجزات

١- سورة القيامة آية ٢٢ — ٢٣

كانت كافية لهدايتهم واستقامتهم وأن يرفضوا عبادة العجل الذى أخرجه لهم موسى السامرى من الحلى الذى سلبوه من المصريات عند خروجهم من مصر ، لأن نساءهم كن خادمات فى البيوت ، وبعد خروج موسى عليه السلام لوفائه لوعد ربه أربعين ليلة ، وترك فيهم أخاه هارون وقال له : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [1] قال لهم هارون إن هذا الذهب حرام عليكم فألقوه فى النار .

فلما جمعوه وألقوه فى النار ، وكان موسى السامرى من قوم يعبدون العجل فى بنى إسرائيل ، وكانت أمه وضعته عند ولادته فى غار خوفا عليه من القتل ، وكان جبريل يترل ليرضعه من أصبعه ، فعرفه السامرى يوم خروجهم من مصر حيث وقف بفرسه أمام حصان فرعون ليغريه على اللحاق ببنى إسرائيل فى البحر ، وقبض قبضة من التراب من تحت قوائم فرس جبريل ، وكان يرى الأرض التى يمشى عليها جبريل بفرسه تخضر ، وألقى هذه القبضة على الذهب فى النار بعد أن استأذن هارون ، وظن هارون أن هذا التراب ذهب فأذن له ، فأخرج لهم السامرى من هذا الذهب عجلا مجسداً أحمر كالذهب ، له خوار كخوار البقر بواسطة الهواء الذى يدخل من دبره ويخرج من فيه . وقيل : إنه عجل فيه حياة ؛ وأميل إلى هذا القول لأنه يرشد إلى سر قوله تعالى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ [2] .

وكان قد مضى على خروج موسى عليه السلام عشرون يوماً فقط من الأربعين ليلة ، ولكن السامرى حسب لهم العشرين يوماً أربعين ليلة باعتبار أن

١- سورة الأعراف آية ١٤٢

٢- سورة طه آية ٩٦

العشرين يوماً بلياليها تكون أربعين ليلة ، وقال لهم : هذا العجل إلهكم وإله موسى ولكنه ضل عنه فى الجبل ، وقد مضت عليه الأربعون ليلة و لم يعد فعبدوا العجل ، ولكن هارون قال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [1] فخالفوه إلا قليلا منهم ، وقالوا لن نبرح عاكفين على عبادته حتى يرجع الينا موسى ، وقد كان موسى نهاهم عن عبادة غير الله قبل ذلك حين جاوز الله بهم البحر وأغرق فيه فرعون وجنوده ، ومروا على قوم يعبدون أصناماً يتخذونها آلهة لهم قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [2] فأنكر عليهم هذا القول وقال لهم ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [3] ولكن لبعد قلوبهم عن رؤية دلائل التوحيد واتخذوا العجل إلها وعبدوه فى غياب موسى مدة مناجاته لربه ، وسؤاله ربه أن يترل عليه كتابا يكون هدى ونورا لهم .

﴿ فَعَفَونَا عَن ذَلكَ ﴾ أى : ذلك الذنب الذى هو عبادة العجل حين تابوا وندموا وقتلوا أنفسهم ، والعفو هو عدم المؤاخذة على الذنب مع بقاء الذنب . وفى هذا استدعاء لأهل الكتاب المعاصرين للتوبة ، وكأن الله يقول لهم : توبوا أعفُ عنكم . وفيه تنبيه وإرشاد لنا ألا نستكثر على الله ذنبا ، ونسارع إلى التوبة والاستغفار ، ولا نيأس من عفو الله تعالى ، وأن نعتقد أن عفو الله أكبر من ذنوبنا فنتوب إليه ونستغفر لها ، توبة واستغفاراً مصحوبين بحسن الظن فيه سبحانه ، وأن نقف من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ موقف الأدب بالسمع والطاعة له ﴿ ﷺ وآله﴾

١- سورة طه آية ٩٠.

٢- سورة الأعراف آية ١٣٨.

٣- سورة الأعراف آية ١٣٨-١٤٠.

فى أمره ونهيه ، مؤمنين بأخباره ﴿ ﷺ وآله﴾ إيمانا لا يرقى إليه الشك ، ولا نكون معه كما كان بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام .

﴿ وَءَاتَيناَ مُوسَى سُلطناً مُّبيناً ﴾ أى : تسلطا ظاهراً عليهم ، وبعد تمردهم وعصيانهم أخضعناهم له حين أمرهم أن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم العجل ، وهذا على ما قيل ، وإن كان قبل العفو فإن الأمر بالقتل كان قبل التوبة ، لأن قبول القتل كان توبة لهم ، ولكن الواو لا تقتضى الترتيب . واستظهر أن لا يجعل التسلط بعد العفو حيث انقادوا له و لم يتمكنوا بعد ذلك من مخالفته ، وأقول : هذا هو الأقرب ، ولكن بقى التسلط نكرة و لم يعرف ما هو السلطان ، ويمكن القول أن قوله تعالى هنا : ﴿ وَءَاتَيناَ مُوسَى سُلطناً مُّبيناً ﴾ مرادف لقوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ (1) بعد قوله جل شأنه :﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (2) والقصة واحدة ، والسياق هنا كالسياق هناك ، ويكون المعنى : وآتينا موسى وقومه كتابا وهو التوراة ، فيه سلطة حكم الله الذى لا يفرقون به بين الحق والباطل ، وبيان ما يحتاجون إلى معرفته من سير الملوك والأنبياء ، وأسرار التوحيد والأخلاق ، وما يجب عليهم من العبادات والمعاملات ، ليهتدوا بما فيه من النور والهدى وبعمل الصالحات التى هى شكر الله تعالى ، ويؤيده أيضا نزول التوراة بعد عبادة العجل .

قوله تعالى :﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

١- سورة البقرة آية ٥٣.

٢- سورة البقرة آية ٥٢.

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ بعد أن تابوا وعفا الله عنهم أنزل الألواح وهى التوراة على موسى عليه السلام المرة الثانية ، أما المرة الأولى فهى الوصايا العشر جاء بها موسى من عند الله جملة واحدة منقوشة فى الألواح ، ولما رجع بها إلى قومه بعد صعقه وفَوْقِهِ ورآهم فُتِنُوا وعبدوا العجل المصنوع من الحلى فى غيابه جمع بين الغضب والأسف ، ووضع الألواح على الأرض ليفرغ يديه منها ليأخذ برأس أخيه فكسرت الألواح ، وبعد توبتهم وعفو الله عنهم أمره الله تعالى أن ينحت ألواحا من الحجر وكتب له فيها تلك الوصايا ، وتعاقب نزول أحكام التوراة بعد ذلك ، ولما أتاهم موسى كليم الله بالألواح فيها حكم الله وطلب منهم أخذها أبوا عليه وقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [1] ويكلمنا كما كلمك فأخذهم الصاعقة كما مر فى شرح الآيات السابقة ، فتضرع موسى إلى الله تعالى وطلب منه ألا يهلكهم ، فأحياهم الله تعالى بقدرته الباهرة ، وقال لهم موسى عليه السلام : أين كنتم ؟ قالوا : كنا موتى وحيينا . قال لهم : خذوا الألواح ، فأبوا ، فرفع الله الطور فوق رؤوسهم بقدرته جل وعلا ،وطلب منهم موسى أخذ الألواح فتعهدوا بأخذها ، وخروا سجدا على جانب جباههم والجنب الآخر إلى الطور خوف وقوعه عليهم ، فرفع الله عنهم الطور ، ولذلك لا نجد يهوديا يسجد إلا منحرفا ، ويقولون : إنها السجدة التى نجانا الله بها .

﴿ بِمِيثَٰقِهِم ﴾ الباء سببية ويكون المعنى : ورفعنا فوقهم جبل الطور بسبب امتناعهم عن أخذ الألواح ، ولو أخذوها ما هددناهم برفعه فوقهم وبوقوعه عليهم فيكون هلاكهم المحقق إن لم يأخذوها . أو تكون الباء تعليلية، ويكون المعنى: ورفعنا فوقهم الطور لأجل ميثاقهم، وهو تعهدهم بأخذ الألواح . أو تكون الباء للمصاحبة، ويكون المعنى :ورفعنا فوقهم الطور، وكان رفعه فوق رؤوسهم

١- سورة البقرة آية ٥٥.

مصاحبا لتعهدهم بأخذ الألواح . أو : رفعنا فوقهم الطور مع أخذ ميثـــاقهم أى : تعهدهم لنا أو موسى بأخذ الألواح . أو تكون الباء ظرفية ، ويكون المعنى : ورفعنا فوقهم جبل الطور فى الزمن الذى تعهدوا فيه بأخذ الألـــواح . وكـــلا المعنـــيين الأخيرين يدل على أن الميثاق الذى هو تعهدهم بأخذ الألواح كان أثناء رفع الجبل فوق رؤوسهم . وفى هذا المعنى فائدة جليلة وهى إشارة إلى أن اليهود لا يوقعـــون عهدا ولا معاهدة إلا تحت القوة القاهرة ، وتيقنوا أهم هالكون أو خاسرون إن لم يفعلوا ، ولم يذكر المفسرون إلا سبب رفع الجبل فقط فكان الواقع منهم قبل رفع جبل الطور فوقهم الامتناع عن أخذ الألواح ، وبعده أو معه أو فى زمنـــه كـــان ميثاقهم الذى هو تعهدهم بأخذ الألواح ، وذكر المفسرون أقوالا أخرى منها مـــا اختاره العلامة الألوسى وهو قوله : أى : بسبب ميثاقهم ليعطوه – على مـــا روى – أهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع عليهم فقبلوهـــا ، أو ليخـــافوا فـــلا ينقضون الميثاق على ما روى أهم هموا بنقضه ، فرفع عليهم الجبل فخافوا وأقلعـــوا عن النقض . قيل : وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذنَا مِنهُم مِّيثَقاً غَلِيظاً ﴾ .

﴿ وَقُلنَا لَهُمُ آدخُلُواْ آلبَابَ ﴾ أى : ادخلوا باب القرية وهى (أريحـــا) وقيل : القدس ﴿ سُجَّداً ﴾ أى : خاضعين مطأطئى الرؤوس ، مائلى الأعناق ذلة وانكسارا لعظمة الله ، كما يقال : سجد البعير طأطأ رأسه لراكبه . وعـــن ابـــن عباس رضى الله عنهما : رُكَّعاً ، وقيل : ساجدين على جباههم شكرا لله تعالى ، وفى أمره سبحانه لهم أن يدخلوا باب القرية ﴿ سجَّداً ﴾ إشارة إلى الإنابـــة إليـــه سبحانه ، والاعتراف بوقوع الخطايا أمامه جل جلاله بالعمل والقول والحال .

﴿ وَقُلنَا لَهُم لاَ تَعدُواْ فى السبَّتِ ﴾ أى : لا تتجاوزوا حدود فيه بالعمـــل فى أمور الدنيا ، ولكنهم اعتدوا فيه بشغلهم عن العبادة بوسائل صيد الســـمك ، وحفروا قنوات يدخل فيها السمك ويحبسونه فيها يوم السبت ثم يخرجونه منها يوم

الأحد ، ويستعملونه فى شهواتهم ، فخالفوا عن دخول الباب ساجدين ، ودخلـــوا بأستاههم ، وظلموا بمجاوزتهم حدود الله باشتغالهم عن العبادة وتحايلهم على صيد السمك يوم السبت . فلا يكون عناد خلائفهم المعاصرين لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أمرا غريبا .

﴿ وَاَخذَنَا مِنهُم مِّيثَقاً غَلِيظاً ﴾ أى : عهدا وثيقا مؤكـــدا بـــأن يعملـــوا بأحكام التوراة التى تعهدوا بأخذها وهم تحت الجبل ، فلا ينبذوها ولا يكتموا منها شيئا ، وأن يأخذوها بيقين وعزيمة ويقيموا حدود الله فيها ولا يعتدوها ، ويبينوها للناس ولا يكتموها ، ولا يشترون بها ثمنا قليلا ، ويتضمن هذا العهد الوثيق المؤكد البشارة لسيدنا محمد وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام .

قوله تعالى:﴿ فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَقَهُم وَكُفرِهِم بِئَايَتِ اللهِ وَقَتلِهِمُ آلأَنبِيَآءَ بِغَيرِ حَقّقٍ وَقَولِهِمَ قُلُوبُنَا غُلَفُ بَل طَبَعَ آللَّهُ عَلَيهَما بِكُفرِهِم فَـــلاَ يُؤمِنُـــونَ إِلاَّ قَلِـــيلاً ﴿١٥٥﴾

﴿ فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَقَهُم ﴾ بعد أن أخذ الله سبحانه على اليهـــود ميثاقـــا غليظا، عهداً وثيقا مؤكدا على العمل بأحكام التوراة وما فيها من هدى ونـــور ، نقضوا ميثاقهم الذى واثقهم به ، ونقضوا غزلهم بعد قوة ، وأحلوا ما حرم عليهم ، وحرموا ما أحل لهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء – الذين قاموا فيهم مُثُلاً عليا لهدايتهم كزكريا ويحى عليهما السلام – بغير حق ، وادعوا أن قلوبهم غلـــف لاتفقه أولا تقبل شيئا . فبسبب كل تلك الجرائم لعنهم الله ، وجعل قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، فكل ما حل بهم من الطرد والإهانة والتشريد سببه نقض الميثاق والكفر والعصيان والعدوان بقتل الأنبياء بغير حق .

فدل هذا على أن قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نقَضِهِم مّيثَقَهُم ﴾ متعلق بمحذوف مقدر دل عليه ما عرف من أخلاقهم التى بينها الله تعالى فى القرآن ، وأثبتها التاريخ وشوهدت بالعيان ، والفاء للتعقيب الذى يدل على عدم التراخى ، وسرعة نقض الميثاق ، والباء للسببية و(ما) الفاصلة بين الباء وقوله (نَقْضِهِم) مزيـــد للتأكيـــد ، وجائز أن تكون (ما) نكرة تامة ومجرورة بالياء ، ويكون (نَقضهِمْ) بدلا منـــها ، أى: فخالفوا ونقضوا ففعلنا بهم ما فعلنا، واختار بعض المفسرين تقدير : لَعَنَّـــاهُمْ لوروده مصرحا به قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُم ﴾ [1] وقال غير واحد يجوز تعلقه بـــ ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُم ﴾ [2] على أن قوله تعالى : (فَبظُلمٍ) [3] بدلا من قوله سبحانه : (فَبِمَا نَقضِهِم) كأنه قال : فبسبب نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، وبكفرهم بعد ذلك بعيسى وافترائهم على أمه ودعوى قتلهم المسيح حَرَّمنَا عَلَيهِم طَيبات أُحِلَّتْ لَهُم .

ومثل هذا معهود فى الكلام إذا طال ، لكنه اعترض واستبعد من وجهين ، لفظى ومعنوى ، أما الأول : فمن جهة الإعراب وطول الفواصل ، وأما الثـــانى : هو أن تحريم الطيبات عليهم كان قبل هذه الجرائم التى منها قتل الأنبياء ، وأن تحريم بعض الطيبات مسبب عن هذه الجرائم العظيمة ومترتب عليه عقاب قليل لا يقابل هذه الموبقات كلها ، بلهو قليل على أى واحة منها ، وإنما هو كان جـــزاء علـــى مادون هذه الموبقات من ظلمهم لأنفسهم .

١- سورة المائدة آية ١٣.

٢- سورة النساء آية ١٦٠.

٣- سورة النساء آية ١٦٠.

﴿ وَكُفرهِم بِئَايتِ آللَّهِ ﴾ أى : حججه الدالة على صدق أنبيائه علـــيهم الصلاة والسلام ، وتحريفهم ما فى التوراة وعدم العمل به ، وإنكارهم ما فيه مـــن صفات المسيح والنبى الخاتم سيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وكفرهم بنبوته ﴿ ﷺ وآله﴾ والقرآن الكريم.

﴿ وَقَتْلِهِمُ الأنبِيَآءَ بَغَيرِ حَقٍّ ﴾ والقتل على معنيين ، المعـــنى الأول : قتـــل بالإصرار والفعل وتمكنوا من تنفيذه كما قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام . وقتل بالإصرار عليه وفعل الأسباب المؤدية إليه بقصد وقوعه ، ولكنهم فشلوا فى الوصول إليه ، لأن قدرة الله تبارك وتعالى حالت بينهم وبين تنفيذه : وهو تعهدهم على قتل المسيح ودس السم للنبى عليهما الصلاة والسلام . أما المسيح فقد رفعه الله إليه و لم يتمكنوا من قتله ، وأما النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد نجاه الله من شرهم ، وأنطـــق لـــه الذراع المسموم وقال : إنى مسموم يا رسول الله . فلم يتمكنوا كذلك من قصدهم ولا يلزم منه أن لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هم الذين نقضوا الميثاق ، فقد أخذه الله عليهم والطور فوق رؤوسهم ، وإنما فعله أسلافهم وهم على آثارهم مقتـــدون ، يفعلون ما فعلوا ويتركون ما تركوا ، ويزيدون عليهم عنادهم مـــع رســـول الله ﴿ﷺوآله﴾ .

﴿ وَقَولِهِم ﴾ له عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلُوبُنَا غُلفٌ ﴾ ذكر المفسرون فيه ثلاثة أوجه ، الوجه الأول : عن ابن عباس رضى الله عنـــهما وعطـــاء : كلمـــة ﴿ غُلْفٌ ﴾ جمع غلاف بمعنى الظرف ، وأصله غُلُفٌ بضمتين فخفف بسكون اللام كنا تسكن فى الكتْب والرسْل . والمعنى أنها أوعية وغُلف للعلم والمعرفـــة فـــنحن مستغنون بما فيها عن غيره ، ولسنا فى حاجة إلى شىء جديد نستفيده منك . يدل هذا المعنى على عنادهم . وقال الكلبى : يقولون ﴿ قُلُوبُنَا غُلفٌ ﴾ أى : أوعيـــة لا يصل إليها شىء من العلم إلا وعته ولو كان حديثك شىء لوعته أيضا. وقيـــل :

يجوز أن يكون جمع أغلف أى : مغشاة بأغشية خِلْقِيَّةٍ لا يكاد يصل إليها شئ مما جئت به ، فيكون كقوله تعالى فى المشركين : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [1] وهذه المعانى تناسب أحوالهم ، ويدل عليها عنادهم ، وتدل هى كذلك على عنادهم .

فرد الله عليهم هذا الزعم الباطل بقوله تعالى :﴿ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم ﴾ أى : ليس الأمر الذى زعموه ووصفوا به قلوبهم بأنها أوعية للعلم ، أو أن حديث الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ليس فيه شىء تعيه قلوبهم ، أو أن قلوبهم فى أكنة أو حجب خِلْقِيَّةٍ هو الحق الواقع والسبب الحقيقى لعدم قبولهم دعوة الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ﴿ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم ﴾ أى : ليس الأمر الذى زعموه ووصفوا به قلوبهم بأنها أوعية للعلم أو خلافه مما تتحمله كلمة غُلْف من المعانى التى قصدوها هى الحق الواقع ، بل هى أوعية وظروف مقفلة ختم الله عليها ، ويكون المعنى أن الله خلق نفوسهم من سجِّين ، و لم يمنحهم القابل الذى يقبلون به الهداية من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وليس للعقل أن يحكم على الله تعالى ، بل العقل يحكم مادونه من الكائنات وهو مقهور بالحكيم القهار ، والخلاق العظيم لا يسأل عما يفعل ، والواجب الأدب مع الله تعالى عند فهم كلامه ، لأن الكلام صفة المتكلم والله سبحانه وتعالى منزه ذاتا واسما وصفة ، وما نشأ الخلاف بين الأشعرية والمعتزلة والماتوريدية والإباضية ، والشيعة ، والمجسمَّة ، إلا بسبب الحكم على الله تعالى بالعقل ، وما خلق الله العقل إلا ليستخرج خواص المادة ويتعقل ما فى الكائنات من الآيات ويتلقى العلم ممن فوقه فى العلم ، والعقل مخلوق للعبودية وليس للإشراف على

١- سورة فصلت آية ٥.

الربوبية ، والله يقول : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [1].

وليس من التسليم أن يحكم الإنسان عى كلام الله حكما يخرجه عن مراد الله تعالى ، وما للعقل وسر القدر ؟ ، لأن اللّه قدَّر أقداراً وأخفاها عن الأرواح العاليات ، وأمر أمراً وأظهره للعقول والنفوس والأجسام والحِسَّ . فعلينا أن نسلم لله فى أمره وقدره فنعمل بالأمر ونرضى بالقدر بحسب مراتبه ، فإنه تعالى خلق النار وقدر لها سُكَّاناً وعُمَّاراً ، وخلق الجنة وقدر لها أصحابا وعمارا ، وهذا ما يقتضيه كمال جلاله وجماله ، فقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ظاهره عناد ومحاربة لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وباطنه إبراز ما علمه فيهم أزلاً ، فألزمهم الإقرار على أنفسهم بالحرمان والبعد والقطيعة عن الله تعالى ، فما نطقوا إلا بما استحقته أعيانهم الثابتة فى الأزل . ولذلك قال جل جلاله : ﴿ بَل طَبَعَ آللَّهُ عَلَيهَا بِكُفرِهِم ﴾ فأخبرنا سبحانه وتعالى بأنه طبع على قلوبهم بكفرهم ، وبذلك يتبين لنا أن الله طبع على قلوبهم بسبب كفرهم السابق فى عمله فترتب عليه كفرهم اللاحق الحاصل منهم.

﴿ فَلا يُؤمِنُونَ إلا قَليلاً ﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وتقديره : لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا . كإيمانهم بموسى والتوراة وهو إيمان لا يُعْتَدُّ به عند الله تعالى ، لأن الكفر بالبعض كفرُ بالكل وتفريق بين الله ورسله كما تقدم . أو صفة لزمان محذوف أى : لا يؤمنون إلا زمانا قليلا . أو نصب على الاستثناء من ضمير لا يؤمنون ، أى : لا يؤمنون إلا قليلا منهم عبد الله بن سلام وأمثاله . ورده بعضهم بأن الضمير عائد على المطبوع على قلوبهم ، من طبع على قلبه بالكفر لا يقع منه إيمان . وأجيب بأن المراد بما مر من الإسناد هو للبعض باعتبار الأكثر .

١- سورة النساء آية ٦٥.

قوله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ عَظِيمًا ﴾ ١٥٦

﴿ وَبِكُفْرِهِم ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾ ويظهر أن المراد بالكفر هنا هو الكفر الكسبى الحاصل منهم بعيسى عليه الصلاة والسلام ، كما تدل عليه القرينة بعطف بهتانهم على

أمه عليها قوله تعالى : وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ . . . (١٥٧) النساء

السلام على الكفر به وهو الواقع منهم ، وكفرهم بالمسيح وقذف أمه بالفاحشة ﴿ وَقَولِهِم عَلَى مَريَمَ بُهتَاناً عظِيماً ﴾ جراءة لا يقدر قدرها لما فيها من البهتان ، وهو الكذب الذى يُبهت المقذوف به ، أى : يدهشه ويحيره لبعده عنه وبراءته من غرابته عنده . ووصف البهتان بالعظيم لأنه بالغ حد العظمة فى الإثم ، وأى إثم أعظم عند الله تعالى من إثم هذا البهتان وقذف من اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين والطعن فى أعظم شىء تملكه المرأة وهو شرفها ؟ وهكذا الكفر والبهتان سببان من أسباب لعنهم ، وبما عصوا وكانوا يعتدون .

قوله تعالى :﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾١٥٣

﴿ وَقَوْلِهِمْ ﴾ تبجحا ووقاحة ، وإعلانا منهم على أنفسهم أنهم أَجْرَأُ خلق الله على ارتكاب الجرائم حين يعلنون تحمل مسئوليتهم عن قتل المسيح وزعموا باطلا وقالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ ﴾ تهكما واستهزاءً برسالته عليه الصلاة والسلام . فقولهم : ﴿ رسول الله ﴾ إنما هو على سبيل التهكم والاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، كما حكى الله عن الكفار قولهم لرسول الله

﴿ ﷺ وآله﴾ استهزاءً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ [1] وقولهم : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ بناء على أنه عليه السلام قال لهم : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [2] ولو قال ما ادعته فيه النصارى أنه الله أو ابن الله لكان تهكمهم واستهزاؤهم به بأحد القولين . وقيل : يحتمل أن قوله تعالى : (رَسُولَ آللَّهِ) استئناف من الله سبحانه مدحا له عليه الصلاة والسلام ورفعا لمحله ، ومنصوبا على المدح والاختصاص ، إشارة إلى فظاعة عملهم وجهلهم وشناعة زعمهم ، وإظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ، ونهاية وقاحتهم فى تبجحهم ،وأن نفوسهم وحشية بل أشد ضراوة من السباع الكاسرة .

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحا بالجريمة ، وما صلبوه كما ادعوا وأشاعوا ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم ﴾ اختلفت روايات المفسرين بالمأثور فى هذه المسألة ، لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى ، وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني . ولكن الروايات عنهم تشمل على ما عند النصارى من مقدمات القصة لجمع المسيح لحوارييه ، وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم ، وقوله لبعضهم إنه ينكره قبل صياح الديك ، ومن بيعه بدلالة أعدائه عليه فى مقابل مال قليل ، وكون عليه كانت بتقبيل الدال عليه ، ولكن بعضهم قال : إن شبهه ألقى على من دل عليه . وقال بعضهم : إن شبهه ألقى على جميع من كانوا معه . وروى ابن جرير القولين عن بن منبه ، وقد اتفقت جميع الروايات على أن عيسى عليه السلام نجا من اليهود فقتلوا غيره ظانين أنهم قتلوه .

١- سورة الحجر آية ٦.

٢- سورة الصف آية ٦.

وإليك بعض نصوص هذه الروايات: عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رهطا من اليهود سَبُّوه عليه السلام وأمه ، فدعا فَمُسِخُوا قردة وخنازير ، فبلغ ذلك يهوذا رأس اليهود فخاف ، فجمع اليهود فاتفقوا على قتله ، فساروا إليه ليقتلوه ، فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعه معه إلى السماء و لم يشعروا بذلك ، فدخل عليه طيطانوس ليقتله فلم يجده ، وأبطأ عليهم وألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام ، فلما خرج قتلوه وصلبوه .

وقال وهب بن منبه فى خبر طويل رواه عنه ابن المنذر : أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى عليه السلام ، فقالوا لهم : سحرتمونا ، ليبرز لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا ، فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من يشترى منكم اليوم نفسه بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا ، فخرج إليهم وقال لهم : أنا عيسى ، فقتلوه وصلبوه ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام . وبه قال قتادة و السدى ومجاهد وابن إسحاق ، وإن اختلفوا فى عدد الحواريين ، و لم يذكر أحد غير وهب أن شبهه عليه السلام ألقى على جميعهم ، بل قالوا : ألقى على واحد ، ورفع عيسى عليه السلام من بينهم ، ورجح الطبرى قول وهب وقال : إنه الأشبه ، وقال أبو الجبائى : إن رؤساء اليهود أخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال و لم يمكنوا أحداً من الدنو منه . فتغيرت هيئته وقالوا : إنا قتلنا عيسى ، ليموهوا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذى به عيسى عليه السلام ، فلما دخلوه و لم يجدوه خافوا أن يكون ذلك سببا لإيمان اليهود ففعلوا ما فعلوا .

وقيل : كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه . وأخذ على ذلك ثلاثين درهما فدخل بيت عيسى عليه السلام ، فرفع عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون

أنه عيسى عليه السلام ، وقيل غير ذلك . ويرجع الضمير فى ﴿ شُبِّهَ ﴾ إلى المقتول الذى دلهم عليه ﴿ شُبِّهَ لَهُم ﴾ من قتلوه بعيسى عليه السلام . وليس الضمير فى ﴿ شُبِّهَ ﴾ راجعا إلى المسيح عليه السلام لأنه مشبه به لا مشبه .

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱختَلَفُواْ فِيهِ ﴾ أى : فى شأنه عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، لأن اليهود والنصارى اختلفوا فى المسيح عليه السلام ، فقالت اليهود ما أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَقَولِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [1] رموا أمه بالزنا وقالوا : هو ابن زنا وكاذب فقتلناه حقا . وكذلك اختلفت النصارى ، فقال بعضهم : إنه هو الله ، وقال بعضهم : إنه حل فيه الله ، وقال بعضهم : إنه ابن الله ، وقال آخرون - بقوا على إيمانهم بالمسيح كما أخبرهم عن نفسه أنه رسول الله - فقالوا : هو عبد الله ورسوله . ولما وقعت الواقعة التى ادعاها اليهود بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام اختلف اليهود على بعضهم ، فقال بعضهم : قتلناه حقا ، وتردد آخرون فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا . وقال من سمع منه أن الله يرفعنى إلى السماء : إنه رفع إلى السماء . وقالت النصارى الذين يدعون ألوهيته عليه السلام : صلب الناسوت وصعد اللاهوت ، ولهذا لا يعدون القتل نقيصة حيث لم يضيفوه إلى اللاهوت .

وتقول لهؤلاء : إن الإله أحد لا يتركب من ناسوت ولاهوت ، ولا يتجزأ ولا يتبعض ، ولا يقال فى حقه مات ولم يمت وأهين ولم يهن . وإنما ذلك يكون فى حق البشر ، وهكذا القدر يكفى فى إثبات النقيصة ، وإن قالوا : إن الإله حل فيه وجعله مسكنا وبيتا وفارقه عند ورود ما وردعلى الناسوت فقد أبطلوا أُلوهيته

١- سورة النساء آية ١٥٦.

، وقلنا لهم : أليس قد أهين ؟ وهذا يكفى فى إثبـات النقيصـة إذ لم يستنكف اللاهوت أن تنال مسكنه هذه النقائض ، فإن كان قادراً على منعها و لم يفعل فقد أساء مجاورته ورضى بنقيصته ، وذلك عائد بالنقض عليه فى نفسه . وإن لم يكـن قادراً فهو أبعد عن صفات الألوهية . وهؤلاء ينكرون إلقاء الشبه ويقولـون : لا يجوز ذلك لأنه إضلال : ويكفى فى إثباته أن المصلوب قال : إلهى إلهى لم تـركتنى وخذلتنى ؟! وهو ينافى صفات المسيح من الرضا بمُرِّ القضاء والتسليم لأحكام الله . وأنه شكى العطش وطلب الماء ، والإنجيل مصرح بأن المسيح كان يطوى أربعـين يوما وليلة ، وهذا يثبت أن المصلوب هو المشبه لا المشبه به .

نعم ، قتل اليهود إنسانا وظنوا أنهم قتلوا المسيح وَقَالُوا ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ ولكن من هم الذين قتلوا ؟ ومن هو الذى قتل ؟ هل الـذين قاموا بالقتل كانوا يعرفون المسيح حتى تكون شهادتهم صادقة ؟ وهل قاموا بقتلـه نهارا أمام الملأ حتى يكون الخبر متوترا ؟ وهل قتلوه تنفيذا لحكم حاكم حتى يكون التاريخ شاهدا على واقعة قتله وصلبه ؟ كل ذلك لم يكن منه شىء ، خصوصـا و أن المسيح عليه السلام كان له أتباع كثيرون يحبونه ، ورجال الحكومة الرومانيون يعظمونه ، وإنما الذى أحضره لليهود هو يهوذا الإسخريوطى ولما قبضـوا علـى المسيح عليه السلام اختفى تلاميذه و لم يبق معه إلا يهوذا ، أما تلاميذ المسيح عليه السلام فقد تفرقوا وكتبوا أنا جيلهم المشهورة ، وأما يهوذا فلم يعلم له خـبر و لم يعثر له على أثر.

ويبرر النصارى – القائلون إن المسيح ابن الله – صَلْبَ المسيح عليه الصلاة والسلام بتأويلات مخجلة ، تخجل العقول الصغيرة – فضلا عن العقول الكـبيرة – عن ذكرها ، ويكذبها التاريخ والحقيقة وسنة الله فى رسله ، فيقولون : صلب الرب ابنه الوحيد ليخلص به العالم من خطيئة آدم . فنقول اهم : متى كـان الـرب –

تنزهت ذاته وأسماؤه وصفاته — ظالما حتى يُحَمِّلَ خطيئة آدم عليه السلام لأبنائه من بعده ؟ ومتى كان الرب سبحانه عاجزا عن أن يغفر لآدم خطيئتة حتى خلصه منها بصلب ابنه ؟ ونقول لهم مرة أخرى : هذا الرب الظالم العاجز ليس هو رب العالمين . ونسألهم : ما هى خطيئة آدم التى بلغت حد الظلم الذى عجز الرب أن يخلصه منه إلا بقتل ابنه الوحيد ؟ خطيئة آدم هى أن الله أمره ألا يأكل من شجرة التين أو الحنطة كما هو مبين فى التوراة ، فجاء الشيطان لزوجته وحلف لها وخدعها حتى أكلت منها ، وخدعت هى آدم حتى أطعمته منها ، هذه الخطيئة التى أخطأها آدم ، والكتب السماوية جميعها مجمعة على ذلك ، ومجمعة على أن الله آخذه بها فورا وأهبطه إلى الأرض ثم تاب عليه وغفر له ، ومجمعة على أن الله تبارك وتعالى لا يؤاخذ الولد بذنب أبيه ، ولا الوالد بذنب ابنه ، ولا الجار بذنب جاره ، وتعالى الله عن نسبة الظلم إليه سبحانه علوا كبيرا .

فإذا كان أكل تينة أو سنبلة من الحنطة تكون خطيئة كبرى لآدم ولجميع ذريته يعجز ربنا سبحانه أن يخلصه منها بكلمته ومغفرته وعفوه ، ويكون الرسل والأنبياء جميعا عليه الصلاة والسلام مخطئين ظالمين بعيدين عن الرب وليسوا أهلا لأن يكونوا رسلا ولا هداة ،لأنهم لم يَخَلَّصُوا من خطيئة أبيهم آدم حتى جاء اليهود وخلصوا آدم وذريته من الخطيئة بقتل ابن الله ، وإذا كانت خطيئة آدم باقية عليه هو وذريته ، كيف يصطفى سبحانه من ذرية آدم الخاطئين أنبياء ورسلا ؟ هل اصطفاهم الله سبحانه وكانوا خاطئين ، أم كيف اصطفى الله العذراء مريم عليها السلام على نساء العالمين لتكون أمًّا لابنه الوحيد كما تزعمون ؟ أليست هى من ذرية آدم ويجرى عليها ما يجرى على آدم وذريته ، وتظل خاطئة حتى يأتى اليهود ويقتلون ابنها ليطهروها من خطيئتها ؟ وإلا فماذا تقولون أيها المتأولون المصدقون لقول الكافرين بالمسيح القاذفين أمه فى أعز شيء تملكه المرأة وهو شرفها ؟ وأليس

اليهود الذين قتلوا المسيح – الذى تدعون أنه ابن الله – من ذرية آدم ؟ وأن يعجب العقل السليم بأن أكل تينة تجعل آكلها يخطىء خطيئة ويبقى عليه وزرها هو وذريته الذين لم يكونوا معه حين أكلها وأخطأ تلك الخطيئة ، فكيف تكون خطيئة من قام فقتل ابن الله ؟ وكيف يخلص الله الناس من خطيئة أكل تينة بجريمة قتل المسيح ؟ إنها العجب العُجَاب!! ولكنه فساد العقول بتقليد الآباء وظلمة القلوب المتعصبة للرأى والمذهب بغير الحق .

ولو سلمت العقول من مرض تقليد الآباء ، واستنارت القلوب وتخلت عن التعصب للرأى والهوى ، لحكم الإنسان بأن الذى نصر نوحا على قومه ، وأنجى إبراهيم من النار ، ونصره على النمروذ ، واستجاب نداء يونس وهو فى بطن الحوت ، ورد موسى إلى أمه ونصره على عدوه ، وأغرق فرعون وجنوده ، وحفظ رسله من كيد أعدائهم ، قادر أن يعامل المسيح بسنته التى قد خلت فى رسله من قبل وينجيه من اليهود ، ويرفعه إلى السماء ، ويوقع يهوذا الإسخريوطى فى شر عمله ويلقى عليه شبه المسيح ، ويقتله اليهود ظنا بأنه المسيح عليه السلام ، ويقولون للناس : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ، تبجحا بالجريمة .

﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ أى : لفى حيرة وتردد فى حقيقة أمره لأنه لم يتبين لهم أمره ببرهان تقوم به حجة قوية يحكمون بها حكما قاطعا فى حادثة القتل والصلب، ويستعمل الشك فى الأمر إذا تساوى طرفاه ، والشك ضد اليقين ، والشك أيضا هو التردد بين أمرين بحيث لم يترجح أحدهما على الآخر ، والشك هو الجهل ، وهو المراد هنا ولذلك أكده بنفى العلم الشامل بقوله سبحانه : ﴿ مَالَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ أى : إن هؤلاء الذين اختلفوا لفى جهل شامل بحقيقة أمره ما عندهم من علم قطعى تسكن به النفس بالاعتقاد الجازم أن الذى قتل هو المسيح أم غيره ، لكن يتبعون الظن المبنى على القرائن التى ترجح بعض الآراء الخلافية على

بعض . والحقائق لا يكون الوصول إليها بالشك والظن والتخمين ، وإنما طرق وصولها إلى العقل أو وصول العقل إليها للحكم فيها يكون الحس الصحيح ، أو الخبر الصادق ، أو العقل الكامل . هذه الطرق الثلاثة هى التى يجب أن تكون القنوات الموصلة للحقائق إما بجميعها أو بطريق منها على الأقل ، و لم يكن شيء موجودا منها عند اليهود أو النصارى لتوصيل الحقيقة إليهم .

قالت اليهود : قتلنا المسيح ، وهم إنما أمروا بعض أهل الطغيان والفجور من الذين لم تسبق لهم رؤية المسيح عليه السلام أبدا ، فقتلوا وصلبوا رجلا وأخذوا أجرهم على قتله وصلبه ، واختلفوا فيه هل هو المسيح أو غيره ، فتبين أنهم فى شك وجهل شامل بحقيقة أمره ، وقالوا : قتلنا المسيح ، فهل هذا القول المبنى على الشك والجهل والظن المبنى على القرينة للترجيح أنه المسيح أم يهوذا ، يصح أن يبنى عليه أصل من أصول الدين ويقبله العقل ؟ اللَّهُمَّ لا . فكما أن الأمر كان شكا وجهلا عند اليهود ، فهو كذلك عند النصارى ، فهم فيه سواء .

هل جاء من جهة الحكومة الرومانية خبر ثابت بالتواتر فى بطون التاريخ أن المسيح قام بعمل اقتضى قتله وصلبه ؟ وهل جاء فى الإنجيل قبل صلبه آية صحيحة عنه ؟ أم جاء بالسند الصحيح عن حوارييه أنهم رأوه مرفوعا عل الصليب ميتا ؟ كل ذلك لم يكن بل ولا بعضه فإن يهوذا لما أخذ الأعوان الظلمة ودلَّهم على المسيح وقبضوا عليه ليلا كان القبض عليه نازلة على تلاميذه حارت منها عقولهم ، وطاشت منها أحلامهم فتفرقوا أيدى سبأ ، فمنهم من كان له أصدقاء فى القسطنطينية ، ومنهم من كان لهم أصدقاء من الرومانيين أهل السلطان فى مصر ففر إليها ، و لم يبق مع المسيح إلا يهوذا الإسخريوطى الذى أراد أن، يجعل له يداً عند اليهود يرتفع بها شأنه ، فأراد القوى القدير الحكيم المدبر أن يهلكه كما أهلك

من قبله من هموا بقتل رسلهم ، فأنجى الله المسيح ورفعه ، ومكن الأعوان من يهوذا فصلبوه ، هذا هو الحق الذى لا مراء فيه .

وما اعتمد عليه من لا معرفة لهم بالطرق الموصلة إلى علم اليقين مما أوردوه من أن بعضهم رأى رؤيا منامية تدل على أن المسيح صلب ودفن وقام ورفع ، وبعضهم رأى طائراً فى الجو يتكلم معهم ، لعل القائلين بهذا يجهلون تأثير الوهم على المجموع العصبى ويجهلون محاكاة الخيال للحوادث محاكاة تجعل الإنسان فى الحوادث العظيمة يتمثل عدوه هاجما عليه وهو ماش فى الطريق ، أو يتخيل أن حبيبه واقف على بابه يناديه أن يفتح له ، أو أنه يتكلم معه ، ومن قرأ أقاصيص الممرورين وأخبار من اختل توازن أبدانهم يعلم أن علم اليقين لا طريق له إلا الحواس الصحيحة ، أو الخبر الصَّادق ، أو العقل الكامل . وأما الرؤيا المنامية ، ومحاكاة الخيال فى الحوادث ، وتمثيل الأوهام ، كل هذا لا يؤدى إلى علم اليقين فى حادثة بسيطة كونية ، فكيف تكون طريقا لعلم اليقين فى أساس دينى ؟ وإذا تقرر هذا ، يتبين أن الشك هو ما كان لازمه الجهل بالطرق الصحيحة الموصلة إلى علم اليقين ، الذى يكون أساسا فى الاعتقاد الذى تسكن إليه النفس ، ويطمئن به القلب ، واليقين هو العلم الذى بواسطة الحس الصحيح أو الخبر الصادق أو العقل الكامل ، وهذا لم يظهر له وجود فى القضية .

والظن قد يستعمل بمعنى اليقين إذا بنى على طرق العلم الصحيحة سالفة الذكر وهو الاعتقاد الحق ، ومنه قواه نعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) وإلا كان ضد اليقين إن لم يكن وصوله إلى الإنسان من طريق صحيح ، وكان حصوله بواسطة تمثيل الوهم أو الخيال فيكون اعتقادا باطلا،

١- سورة البقرة آيه ٤٦.

كمن يرى إلى الأفق البعيد شبحا فيعطيه الخيال أنه صورة إنسان ،فيعتقد أنه إنسان ويظن أنه أخوه أو صديقه، ويعطيه الوهم صورة معنوية مثل الفرح والسرور بلقياه ويبنى على هذا الظن سرورا عظيما ، فإذا اقترب منه وجده صخرة أو شجرة أو فيلا فيخيب فى ظنه وينقلب سروره حزنا ، ولذا أخبر الله سبحانه وتعالى عن خيبتهم جميعا بعبارة غاية فى البلاغة بقوله جل شأنه : ﴿ مَالَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إِلاَّ آتِّبَاعَ الظَّنِ﴾ وهو الاعتقاد الفاسد الذى لا يغنى من الحق شيئا ، وأكد سبحانه فساده وبطلانه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقيناً ﴾ ضمير المفعول للمسيح عليه السلام كما هو الظاهر ، والمعنى : وما قتلوا المسيح عيسى بن مريم قتلا يقينا أو متيقنين أنه هو الذى قتلوه فعلا .

وقوله تعالى ﴿ يَقِيناً ﴾ لنفى القتل المتيقن ، ونفى القتل المتيقن يثبت القتل المشكوك فى ظنهم ، فكأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقيناً ﴾ ولكن قتلوه فى ظنهم ، وهو فى الواقع ونفس الأمر ليس كذلك ، ليثبت جهلهم وفساد اعتقادهم، ويؤكد خيبة ظنهم . وقيل إن الضمير فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقيناً ﴾راجع إلى العلم ، أى: وما قتلوا يقينا وتثبيتا به بل رضوا بالظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ، كما يقال : قتلت العلم والرأى . وقتلت الشيء خُبْرا ، وقتلت الموضوع بحثا ، إذا تبالغ علمك فيه وأحطت به واستوليت عليه من جميع أطرافه ، ولا ينازع فهمك فيه شك أو اضطراب ، والمعنى : وما علموه يقينا . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الضمير راجع إلى الظن الذى يتبعونه، قال: لم يقتلوا ظنهم يقينا، رواه ابن جرير ، أى : أنهم يتبعون ظنا غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح والطرق التى توصل إلى العلم .

ومعنى هذه الآية الكريمة : أن اليهود ادعوا قتل عيسى بن مريم ، وقولهم هذا افتراء وزعم باطل ، لأن الله جلت قدرته عصم المسيح عليه السلام من كيد

الكائدين وشر المجرمين ، وتلك عناية الله برسله تحقيقا لقول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

فإن يد العناية الإلهية امتدت لعيسى ﴿ ﷺ ﴾ فى الوقت العصيب واللحظة الرهيبة التى دبر اليهود فيها قتله ، وبعد أن اعتقدوا أنهم تمكنوا منه وقَدَرُوا عليه أنقذه الله سبحانه من أيديهم الآثمة بصورة أذهلت العقول ، وهى أن الله أَلقى شَبَهَ عيس وصورته على حواريِّه يهوذا الإسخريوطى الذى اتفق مع اليهود على قتله بهذه الصورة المؤسفة ، وهى خيانة عظمى ، لأنه من أول الحواريين ومن أكبر الصدِّيقين لعيسى ، ولكن سابقة الشقاوةِ وخاتمة السوء - والعياذ بالله تعالى - حقت على هذا الإنسان الظالم الذى لم يَرْعَ فى رسوله ونبيه إلا ولاذِمَّةً ، وهى طبيعة متأصلة فى اليهود ، فانتقم الله منه ، وأَلقى عليه صورة عيسى الظاهرة ، فدخل اليهود فقتلوه لأنهم لم يجدوا غيره فى المكان المحدد لارتكاب الجريمة ، فرفع الله سيدنا عيسى فى أقل من لمح البصر إلى حيث يشاء الله ، وذلك عند دخول القتلة والسفاحين ليقتلوه عليه السلام، وصَّور يهوذا الخائن بصورته فى الوقت نفسه، فقتل اليهود يهوذا الإسخريوطى ، وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّه لَهُمْ﴾ .

﴿ وإِنَّ الَّذِين اختَلَفُوا فِيهِ لَفيِ شَك مِّنهُ مَالَهُم بِهِ مِن عِلمٍ إِلاَّ آتبَاعَ الظَّنَّ﴾ والذين اختلفوا فيه هم طوائف اليهود والنصارى الذين كفروا بما أنزله الله تعالى فى شأن عيسى عليه السلام ، ولم يقبلوا مابَيَّنَهُ جل جلاله فى أمر قتله وصلبه ، ولكنهم ضلوا وكذبوا واتبعوا أهواءهم وبنوا آراءهم وأَقوالهم الفاسدة على الهوى والحظ ، ولم يكن لديهم طرف من العلم والمعرفة يتمسكون به فى هذا الشأن ، لأنهم

١- سورة يونس آية ١٠٣.

يجهلون قدرة الله سبحانه وتعالى و لم يؤمنوا بها فى تصريف الأمور وتدبير الشـؤون وفعل الخوارق التى يقف العقل أمامها مسلّماً وعاجزاً وكليلاً ، وظنـوا الظنـون الباطلة التى أوقعتهم فى حيرة من التخبط فى الظلمات بعضها فوق بعـض ، مـن الشك والكفر واللجاج ، قال تعالى : ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ [١] وفى كـل أنواع الظن يغلب جيشُ الهوى العقل ، وهؤلاء هم الذين غلب علـيهم مقتضـى الجسم والحس ، وقادهم النفس الأمارة بالسوء كالأنعام السائمة والحيوانات الهائمة التى لا تعقل من الخير إلا خدمة جسمها .

وهناك ظن هو إدراك الطرف الراجح بعد النظر والاستدلال ، وهو القياس الشرعى الذى هو حظر على غير أهل العلم بعد الاجتهاد بشروطه المبينة فى مظانه، قال تعالى : ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [٢] ولم يقل : إن كل الظن إثم وقال تعـالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [٣] وعلى ذلك : فالمنكرون للقياس ضيّقوا ما وسّعه الله لنا ، والقياس إنما يكـون فى العبادات والمعاملات والأخلاق رجوعا إلى الوسط – لا فى العقائد ولا فى الأحكام الصريحة الجليلة ، فإن القياس فيها تقديم بين يدى الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والله تعالى نهى عنه ، قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٤] – فالظن فى قولـه تعـالى : ﴿ إِلاَّ اتبَاعَ الظَّنِّ ﴾ دعى إليه الهوى والحرص على ما يزول استهانة بـالآخرة ونعيمها .

١- سورة الفتح آيه ٦.

٢- سورة الحجرات آيه ١٢.

٣- سورة النساء آية ٨٣.

٤- سورة الحجرات آية ١.

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ﴾ هذه الآية الشريفة كذبت كل فرق النصارى واليهود تكذيبا لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه ، حتى تأويل الشاطحين من غلاة النصارى الذين يقولون : إن الله قدّر عليه القتل ليخلص آدم من كبيرته ، لعجزه عن قبول توبة آدم إلا بقتل ابنه الوحيد الذى هو المسيح ، ففهموا أن الذى قتله فى الحقيقة هو الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُم ﴾[1] . نفى الله تعالى هذا التأويل بقوله تعالى : ﴿ يَقِيناً ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه﴾.

قوله تعالى :﴿ بَل رَّفَعَهُ آللَّهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿١٥٨﴾

﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيهِ ﴾ وَرَفْعُ الله المسيح إليه مقبولٌ عقلا وشرعا بروحه وجسمه ، ومن تأوَّل الرفع للروح كما يظن ذلك بعض من جهل عجائب قدرة الله وغرائب حكمته ممن يزعمون العلم ؛ لم تتصور نفوسهم رسوم المعلوم ، فهم كاليهود فى الجهالة ، فإن أرواح المؤمنين ترفع إلى عليين ، والأجسام تحفظ فى الأرض ، وتكون الآية عبثاً إذا تأولنا رفع المسيح بروحه كما فهم النسطورية من غلاة النصارى.

ومنكر رفع المسيح بروحه وجسمه حيا من أدعياء العلم ينكر الإسراء والمعراج ، ومن أنكر معلوما من الدين بالضرورة مرق منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة ، وما على أهل العلم الراسخين فيه الذين تصوروا رسوم المعلوم ، إلا أن يقولوا ﴿ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا ﴾[2] ،والذى خلق الأجواء والأرجاء ، وخلق السماء وما فوقها ، وأتقن كل شيء خلقه ، قدر الأقدار أزلا وأبرزها فى أناتها

١- سورة الأنفال آية ١٧.

٢- سورة آل عمران ٧.

بتدبير وحكمة ، سبحانه لا يعجزه شيء ، ولا يشغله شأن عن شأن ، قال تعالى : ﴿ وَمَاقَدَرُوا آللهَ حَقَّ قَدرِهِ ﴾ [1] فى ذات ولا اسم ولا صفة ولا فعل ، وأهل الإيمان يرون بنور قلوبهم مالا يراه أهل الجهالة ، والقرآن هو الحجة التى هى عندهم فوق المحسوس الملموس ، بل وفوق ما يحكم به العقل بعد الحس واللمس من اليقينيات كلها.

وليس العقل بعد أن يحكم على الخلاق العظيم ، وله أن يحكم على ما سخره له القادر الحكيم ، وإنما تحصيل العلم للعمل به ، لا للإشراف على غيب الربوبية والحكم على الغيب المصون بالمشهود بالعيون ، قال تعالى : ﴿ وَآتَّقُوا اللهَ ﴾[2] بما تعلمتم من أحكامه وآدابه يهديكم الله تعالى سبله ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ آللَّهُ ﴾[3] ما لم تكونوا تعلمونه بتحصيل العلوم وتلقيها ، فإن الغيب المصون فوق أن تصوره العبارة أو تبينه الإشارة ، قال تعالى : ﴿ آلرَّحمن عَلَّمَ آلقُرآنَ خَلَقَ آلإنسَانَ عَلَّمَهُ آلبَيانَ ﴾[4] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (مَن عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَه آلله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَم) فالواجب علنا أن، نعمل بما علمنا ، والله يعلمنا ما لم نكن نعلم بالتعليم من غيره ، وَلْنَصْرِفْ الأوقات -بعد العمل بما علمنا من الشريعة - فيما أمرنا الله تعالى به من السعى فى مناكب الأرض لفتح كنوزها بالعقل ، ونوع ما فيها من المعادن والنباتات بعلوم الصناعات والفنون نفعا للأمة ، أو نصرف الأوقات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإصلاح ذات البين ، أما

١- سورة الزمر آية ٦٧.

٢- ٤ سورة البقرة آية ٢٨٢.

٥- سورة الرحمن آية ١-٤

.

صرف الأوقات فى علم الجدل والمناظرة والسياسات المفسدة للأخلاق التى منها إلقاء العداوة والتفرقة بين المسلمين ، والسعى وراء الوظائف والمراتب والجاه ، وختل عقول الأمراء والوزراء ، والتودد إلى أعداء الله من الكفار فذلك ليس بعلم ، وإنما هو الجهل الذى يضر بالإنسان فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ ينفذ إرادته بقدرة وقوة فلا يعجزه شىء ، والعزة هى كمال القدرة ، والحكمة هى تنفيذ ما شاء أن يقدره بعلم سابق وتدبير وإرادة ، فالحكمة هى كمال العلم بما قدره أزلا لتظهر معانى صفاته جلية للعقول ، وتتجلى أسماؤه لتتعلق بمعانيها ، وهو الظاهر فلا تدركه الأبصار بالإحاطة ، وإنما تعرفه الأبصار بما ظهر من آثار رحمته وفضله ، وآيات قدرته وعجائب صنعته ، وغرائب حكمته ، وهو الباطن جل جلاله فلا تتمثله الأرواح وهو اللطيف الخبير.

قوله تعالى : وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴿١٥٩﴾

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إن هنا نافية بمعنى ما ، وتكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ وفى رواية : ليؤمنُنَّ به – بضم النون الأولى – بمعنى الجمع مع حذف واو الجماعة لنون التوكيد . وتأوله بعض العلماء أن اليهودى والنصرانى عند موهما يشهدهما الله نعالى مشهدا يثبت لليهودى افتراءه على المسيح برميه أنه ابن زنا ، ويشهد النصرانى افتراءه عليه أنه ابن الله ، فيؤمنان به ولا ينفعهما إيمانهما ، وهذا تأويل – إن صح لوجود أثر عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يوضح ذلك – فيكون هذا الإيمان إيماناً بعجائب قدرة الله تعالى وعلى ذلك يكون الضمير فى (مَوْتِهِ) عائدا على أهل الكتاب .

وظاهر هذه الآية الشريفة يدل على نزول المسيح فى آخر الزمان من السماء، ولا يمنع هذا النزول من الإيمان بأن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الأنبياء ، فإن المسيح ينزل من السماء آخر الزمان تابعا له ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد ورد أنه يقتل المسيح الدجال ويحكم بالشرع الإسلامى ، ويقيم الحجة على اليهود والنصارى حتى يؤمنوا به قهرا ، ويكون تأويل الآية ﴿ وَإن من أَهلِ الكِتَابِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ إِلاَّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ ﴾ عند نزوله من السماء إذا أدركوه أحياء ، وليس الخبر عن اليهود والنصارى الذين يموتون قبل نزوله من السماء .

﴿ قَبلَ مَوتِهِ ﴾أى : قبل موت المسيح بعد نزوله من السماء ﴿ وَيَومَ القيمة يَكُونُ عَلَيهِم شَهِيداً ﴾ يعنى سبحانه أن المسيح يشهد على اليهود بفريتهم عليه ، وعلى النصارى بافترائهم عليه ، وذلك ظاهر ، فإن الله تعالى يجعل كل نبى شهيدعلى أمته ، ونزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان هو معجزة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأنه لم ينزل بوصفه نبيناً ورسولاً ، ولكنه ينزل على أنه تابع لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومؤيد بالكرامات وخوارق العادات التى تقصم ظهور أهل الكتاب ، وتقهرهم على الإيمان الصحيح بما جاء به القرآن من عند الله على لسان خاتم الرسل والأنبياء صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، والحكمة فى إنزاله هو استكمال عمره الكونى ، بأن حياته فى الملكوت لا يمر عليها زمن لأنها حياة ملكوتية مثل حياة البرزخ ، ولا غرابة فى هذا فقد حدثنا القرآن عن من ماتوا زمنا ثم أحياهم وعاشوا زمنا طويلا ، مثل الْعُزَيْر وأهل الكهف ، والله على كل شىء قدير ، لايعجزه شىء فى السموات والأرض ، ولا يشغله أمر عن أمر ، بيده ملكوت السموات والأرض يصرفهما كيف يشاء من غير غرض ولا علة ، ولا

ومعقب لحكمه ، ولا راد لقضائه وقدره ، والمؤمنون يقولون : ﴿ آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الألبَابِ ﴾[1]

قوله تعالى : فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيهِم طَيبَتٍ أُحِلَّت لَهُمَ وَ بِصَدّهِمَ عَن سَبِيل ٱللَّهِ كَثِيراً ﴿١٦٠﴾

﴿فَبِظُلْمٍ﴾ أى : بظلمهم لأنفسهم الذى بينه الله لنا فى الآيات السابقة بنقضهم ميثاقهم ، وقتلهم الأنبياء وافترائهم الكذب على الله ورسوله عليهم السلام، وتعديهم فى السبت﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ والذين هادوا هم اليهود ﴿حَرَّمْنَا عَلَيهِم طَيِّبَتٍ أُحِلَّتَ لَهُمَ﴾ أى : حكم الله عليهم بحرمانهم من إباحة طيبات ألفوها وقد بينها الله تعالى فى آية أخرى[2] . وهذا دليل على تشديد الله تعالى عليهم فى الدنيا انتقاما منهم وعدلا منه تعالى ، وهذا التشديد سيكون فى الآخرة أنكى بخلودهم فى نار جهنم ، ولو أراد الله بهم خيرا لآمنوا بعيسى عليه السلام وبخاتم الأنبياء صلوات الله عليه ، فإن إيمانهم به نسخ لتلك التشديدات التى أوقعهم فيها ظلمهم ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات

﴿وَ بِصَدّهِمَ عَن سَبِيل اللهِ كَثِيراً﴾ أى : بصدهم أنفسهم وغيرهم عن اتباع الأنبياء الذين أرسلهم الله بعد موسى .لا فترائهم الكذب على الله تعالى ، وقيام كهانهم وأحبارهم فى وجوه العامة تارة بالتأويلات الباطلة ، وآونة بالتهديد وإيقاع الفتن حتى يصدوا العامة عن اتباع الحق ، حرصا على الرياسة وجمع حطام

١- سورة آل عمران آية ٧.

٢- قوله تعالى: (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما.....) إلخ الآية ١٤٦ من سورة الأنعام.

الدنيا الفانية ، وقد أثرت فتنتهم فصدوا كثيرا ممن لم يقع بهم العلم على عين اليقين، وحرموا من القابل الذى يقبل عن الله تعالى شريعته .

قوله تعالى: وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰا۟ ﴾ والربا معلوم تقدم بيانه، واليهود شر الخلق فى سلب ثروة العالم باستعمال الربا ﴿ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ أى : حرمه الله عليهم ، لأن الربا سرقة يضطر إليها الفقير ، ولا يأكل الربا إلا وحش مسلوب الرحمة يمتص دم الإنسان ، أو شيطان يؤثر نفسه بمرافق الحياة حسدا من نفسه أن يرى النعمة فى يد غيره، وآكل الربا كالقاتل الذى أكل دم مقتوله .

﴿ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ ﴾ وأكل أموال الناس بالباطل هو أخذ الولاة والقضاة والحكام الرشوة من بعض المتخاصمين ليحكموا بالباطل ، ومن أكل أموال الناس بالباطل تحريفهم الْكَلِمَ عن مواضعه ويدعون أنها من عند الله ويبيعونها للناس بأموال باهظة وليست من عند الله ، ولكنها من أباطيلهم وأكاذيبهم ليستعبدوا العامة ، وكل ذلك بالباطل أى : بغير الحق ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الذين أنكروا أو غيروا ما أخبرهم الله من صفات خاتم الرسل فى التوراة والإنجيل ، وجحدوا بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ فحكم على من لم يؤمن بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بالكفر ، وأعد لهم يوم القيامة عذابا مؤلما ، خالدين فيه ، وفى قوله تعالى : (مِنْهُمْ) إشارة إلى أن كفرهم بخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أشد من كفر غيرهم ، لأنهم يعلمون مالا يعلمه غيرهم من المشركين ، بما بينه الله فى التوراة والوصايا للخليل والكليم وداود وسليمان و زكريا ويحي وعيسى عليهم السلام .

قوله تعالى : لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنـــزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤتِيهِمم أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

لَمَّا أخبرنا سبحانه وتعالى عما جُبل عليه اليهود من الكفر بالله ومحاربـــة رسله صلوات الله عليهم ، وافترائهم الكذب ، وحكم عليهم بما حكم من التشديد عليهم بتحريم الطيبات ... بين لنا سبحانه وتعالى حال من سبقت لهم الحســـنى ممن منحهم سبحانه اليقين الذى لا يشوبه شك فقال تعالى : ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ مِنْهُمم ﴾ الذين منحهم الله القابل ففقهوا عـــن الله تعـــالى علـــم الشـــرائع والأحكام ، وفى قوله تعالى : ﴿ الرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ ﴾ إشارة إلى العلماء بالله .

و العلماء أربعة أنواع :

١- عالم بالله تعالى وبأيامه وبأحكامه سبحانه وبحكمة أحكامـــه ، وهـــو العالم الربانى الراسخ فى العلم ، وهم كُمَّل ورثةً رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الـــذين يقومون لله بالحجة ، ويوضحون –بما آتاهم الله – المحجة .

٢- وعالم بالله فقط ، وهم الذين جذبهم الله تعالى فأشهدهم جماله الظاهر الجلى فى مكوَّناته فخشعت قلوبهم وجوارحهم ، وجمَّلهم الله بالأدب لحضرته وإن لم يعلموا شيئا من أحكامه .

٣- وعالم بأيام الله ، وهم الزهاد الورعون الذين شهدوا بعيون قلوبهم ما أخبرنا الله عنه من نعيم وعذاب يوم القيامة ، فهانت الدنيا عليهم ، وفروا بكليتهم إلى القيام بما أوجبه الله عليهم ليفوزوا بنعيم يوم القيامة وينجوا من عذابه .

٤- النوع الرابع هم العلماء بأحكام الله الجهلاء بالله وبأيامه ، وهم لصوص الأمة يجب الاحتراس منهم ، لأن من جهل الله تعالى كيف يتوقى الوقوع فى المعاصى الموبقة فى نار جهنم ؟.

وتلك الأنواع بينها الله فى هذه الآية فقال : ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العلمِ﴾ أى : العالمون بالله وبأيامه ﴿ مِنهُم ﴾ أى : من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام وأبى الدرداء وغيرهما ، وكعب الأحبار ممن وفقهم الله للإيمان برسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَٱلْمُؤمِنُونَ ﴾ أى : الذين آمنوا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه وآله ، ﴿ يُؤمِنُونَ ﴾ الجملة خبر للمبتدأ ليتم الكلام ، ويجوز قطع الصفة كما سيأتى ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ ﴾ يعنى بالقرآن المجيد ﴿ وَمَا أُنزلَ مِن قَبلِكَ ﴾ أى : بما بينه القرآن من الكتب السماوية والرسل والملائكة واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى ، وهو العلماء الذين فازوا بالعلم بالله وبأيام الله وبكتبه ورسله واليوم الآخر . ﴿ وَٱلْمُقيمِين ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ جائز أن يكون تأويلها ، والراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة فتكون مجرورة . وجائز أن تكون منصوبة على المدح أو على الاختصاص وقد وردت فى رواية : والمقيمُون الصلاة .

وهذان التأويلان السابقان على فرض تام الكلام يجعل ﴿ يُؤمِنُونَ ﴾ خبر المبتدأ ، وإذا كان الكلام لم يتم والخبر هو الجملة المصدرة بقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ فيكون تأويل ﴿ والمقيمِينَ الصَلاَةَ ﴾ على رواية الرفع أولى أو على تقدير ومن المقيمين الصلاة بحذف الجارّ ، وجائز أن يكون التأويل والمؤمنون يؤمنون بالله وبما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة ، فتكون الكلمة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ بما أنزل إليك ﴾ ، فتكون فى محل جر بالياء وعطفا على ما قبلها ، قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ معطوفة على ﴿ الرَّاسِخُونُ ﴾ وإيتاء الزكاة هى إخراج زكاة الأموال فى وقتها بشروطها لمستحقيها ، والزكاة هى المُطَهِّرةُ ، والقيام

للصلاة وإيتاء الزكاة برهان على العلم بأحكام الله ، فيكون قوله سبحانه وتعالى : ﴿ آلرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ ﴾ أى : العلماء بالله ذاتا واسما وصفة وفعلا ، المصدقون نبوة الرسل جميعا ، وبما أنزل عليهم من عند الله بدليل قوله تعالى : ﴿ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ ﴾ ، فيكون المقيمون الصلاة المؤتون الزكاة دليلا على العلم بأحكام الله تعالى ، ويكون قوله تعالى : ﴿ وِالمُؤمنون بـآلله وَآليَومِ آلأَخِرِ﴾ هم المصدقون بما بينه الله لذاته ولأسمائه وصفاته من الكمال والجمال والجلال ، والمصدقون بما أخبرنا الله به مما أعده لأهل الإيمان به ، من النعيم والمسرات الباقية ، وما أعده للمنافقين والكفار من العذاب الأليم والانتقام الشديد.

وفى هذه الآية بيان على معرفة العلماء بالله وبأيام الله تعالى ، وأيام الله تعالى فوق أن تحيط بها العقول ، منها يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ﴾[1] ويوم بدء الخلق ، ويوم آدم وإبليس ، ويوم الكون ، ويوم البرزخ ، ويوم القيامة ، ويوم الإعادة ، ويوم الحساب بعد النشر والحشر ، ويوم الجنة أو النار وغيرها ، والذين وصفهم الله تعالى بالرسوخ فى العلم وبالإيمان بما أنزل على رسله ، وبالعلم بأحكام الله بدليل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وبالعلم بأيام الله بدليل الإيمان باليوم الآخر ، بلغوا أرقى المقامات من التوحيد واليقين ، وفازوا بأشرف العطايا ، وليس فوق ذلك إلا الفوز بالحظوة الكبرى على بساط مواجهة الله تعالى ، حيث تقف العقول عن إدراك ما أعده الله لمن اصطفاهم ، قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُن ﴾[2] أسأل الله تعالى أن يمن علينا بالغفران والرضوان .

١- سورة الأعراف آية ١٧٢.

٢- سورة السجدة آية ١٧.

﴿ إُولَئكَ سَنُؤتِيهِم أُجراً عَظِيماً ﴾ تعنى هذه الآية أن هؤلاء الذين بينت صفاهم سنؤتيهم أجرا عظيما يوم القيامة ، وجعلت (أُولَئِكَ) خبر للمبتدأ الذى هو (الرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ) وما بعدها على تأويل احتياج الجملة إلى الخبر كما قدمت ، والأجر العظيم الفوز بالنظر لوجه الله العلى العظيم .

قوله تعالى :﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾١٦٣

﴿ إِنَّآ أَوحَينَآ إِلَيكَ ﴾ الوحى هو الإعلام على سبيل الخفاء ، قال تعالى : ﴿ وَأوحَى رَبُّكَ إِلَى آلنَّحلِ ﴾[1] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾[2] ، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[3] أى : أشار إليهم ، وهذا النوع من الوحى هو الإلهام ، لأن الوحى عشرة أنواع ، منها أنواع عامة للرسل وغيرهم من المؤمنين ، ومنها أنواع خاصة بالرسل بيَّنها الحديث الشريف برواية الإمام البخارى ، وسبب نزول هذه الآية أن اليهود سألوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كتابا من السماء كما أنزلت التوراة فى الألواح مرة واحدة كما زعموا ، ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن قامت المعجزة القاصمة للظهور على صدق رسالته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، حتى لم تبق شبهة توجب الشك ، ولكن قبَّح الله اليهود لأهم فطروا على التروع إلى الباطل كما أخبرنا الله تعالى عنهم ، ومن غَيِّهم زعمهم أن الله لم يُنْزِل من بعد موسى

١- سورة النحل آية ٦٨.

٢- سورة القصص آيه ٧.

٣- سورة مريم آية ١١.

شيئا كما قال الجاحدون : ﴿ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾[1] فـأخبرهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّآ أوحَينَآ إِلَيكَ ﴾ الآية .

يعنى أن سنتنا فى خلقنا أن نقيم فيهم رجالا منهم ، نصطفيهم لنا ليتلقـوا منا ويبلِّغوا عنا ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان جامعاً لكل الأنواع الموجـودة فى الملك والملكوت ، فجمع فى الإنسان قوى الأرواح العاليات وقوى الأجسـام السافلة ، وجعل له عقلا يعقل آياته المنطوية فى الكائنات المحسوسة له ، وأسـراره التى فوق الكون إذا ذُكِّر بها على لسان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى اصطفاه الله لنا ، وليس للعقل أن ينفذ من أقطار .

السموات والأرض حتى يشرف على حظائر القدس الأعلى ، ولكنـه إِذا ذُكِّرَ بتلك الأسرار وبينت له بالبرهان المقبول لديه قَبِلَ وأقبل إذا سبقت له الحسنى، ومن هوى إلى الحضيض الأسفل أنكر وأدبر ، إذا سبقت له السوءى .

لتلك الحكمة كان لابد من بعث الرسل لإصلاح حال المجتمع الإنسـانى ، ولتقوم الحجة لأهل الإيمان والحجة على من أنكروا وكذبوا آذاهم ، وما أرسل الله الرسل عبثا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبعَثَ رَسُولاً ﴾[2] وعلى ذلك فأهل الفترة ناجون.

ولما كانت شبهة اليهود أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة كما نزلت التوراة ، فقد ذكر الله تعالى أنه أنزل كتبا على الرسل الذين ذكرهم الله فى هذه الآية أسفارا متوالية سفرا بعد سفر ، وما أنزل على رسول كتابا مرة واحدة إلا موسى عليـه

١- سورة الأنعام ٩١.

٢- سورة الإسراء آية ١٥.

السلام ، ولذلك لم يذكره فى هذه الآية سيقت للاستدلال على كذب اليهــود ، لأن من سنن الله الماضية فى خلقه أن ينزل كتبه على رسله نجوماً بحسب المقتضيات، ومع تلك الحجج فإن القرآن الكريم أنزل على خاتم الرسل الذى لا نــبى بعــده ، وكان القوم قبله فى جاهلية عمياء صماء ، والله تعالى أرحم الراحمين وأعلم بعباده منهم بأنفسهم ، فأنزل الكتاب نجوما على حسب الأحداث الزمنية ليكون أدعــى لحفظ الأحكام لمناسبة الأحداث التى دعت إليها ، ومن ذلك حكم التيمم الــذى أنزله عند فقد الماء وهم فى سفر حتى يكون عالقا بالذهن بسبب حادثته التاريخيــة التى يرويها من شهدها لمن غاب عنها ، لأن كتاب خاتم الرسل أكمل الله لنا بــه ديننا ، وأتم به النعمة علينا ، فكان مهيمنا على الكتب قبله ، وجامعــا لأحكــام الأحداث التى تحدث بعد أن لم تكن إلى يوم القيامة .

وتأويل الآية الشريفة : إنا أعلمناك بالوحى علماً خاصّاً لــك لتبلغــه إلى عبادنا ، وليس هذا الإعلام بالأمر العجيب لأنه مسبوق بوحى إلى من كان قبلك من الرسل ، والمنكرون عليك كعدى بن ثابت ومن معه حين قالوا : يا محمد مــا نعلم أن الله أنزل على بشر من شىء بعد موسى ، فأنزل الله فى ذلك قوله : ﴿ إِنَّآ أَوحَيَنآ إِلَيكَ كَمَآ أَوحَينآ إِلَى نُوحٍ وَآلنَّبِيِّينَ مِن بَعدِهِ ﴾ الآية . وقول آخــر بــيّن للذين قالوا لما أنزل الله الآيات التى قبل هذا فى ذكرهم ﴿ مَآ أَنزَلَ آللهُ عَلَى بَشَــرٍ مِّن شَىء ﴾[1] إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ولا على موسى ولا على عيسى . وبسند الإمام ابن جرير الطبرى قال محمد بن كعب القرطبى : أنزل الله آية ﴿ يَسأَلُكَ أَهلُ آلكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيهِم كِتَاباً مِنَ السَّــمَاءِ ﴾ إلى قولــه تعــالى : ﴿ وَقَولِهِم عَلَى مَريَم بُهتَاناً عَظِيماً ﴾[2] فلما تلاها على اليهود أخبرهم بأعمــالهم

١- سورة الأنعام آية ٩١.

٢- سورة النساء آية ١٥٣-١٥٦.

الخبيثة ، جحدوا كل ما أنزل الله وقالوا : ﴿ مَآ أَأَنزَلَ آللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَــىء ﴾ ولا على موسى وما أنزل الله على نبى من شىء.

﴿كَمَآ أَوحَينآ إِلَى نُوحٍ ﴾ افتتح الآية بذكر نوح لأنه أول نبى أنزل عليه الكتاب ، وأمره بالتبليغ ودعا أمته ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهو القدوة الحسنة فى الصبر على نكبات الدعوة إلى الله تعالى ، وتفصيل سيرته بينه القرآن ، وسنشرح ما ورد إن شاء الله تعالى عند ذكره ﴿ وَ النَّبِيِّينَ مِن بَعدِهِ ﴾ ذكرهم إجمالا ، ثم خص بعضهم بالذكر تعظيما لقدرهم عليهم الصلاة والسلام بقوله تعالى : ﴿ وأَوحَينَآ إِلَى إبراهيمَ وَإِسمعيلَ وَإِسحق وَيعقُوبَ وَالأسبَاط ﴾ ذكر سبحانه إبراهيم بعد نوح لأنه أول رسول أكرمه الله تعالى بالخلة ، وأشهده ملكوته الأعلى، وابتلاه بالكلمات وبالنار وذبح ابنه ، وهو من أولى العزم ، وأبو الأنبياء ، وبشر بسيدنا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ودعا الله تعالى أن يبعث من ذرية إسماعيل عليه السلام رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، فاستجاب الله له عليه السلام ، وهو الذى سمانا بمسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ مِلَّــةَ أَبِــيكُم إِبَراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ آلُمسلِمِين مِن قَبلُ ﴾[1].

﴿وَإِسمعيل وَإِسحق وَيعقُوبَ وَالأسبَاط ﴾ أما إسماعيل فهو الابن الأول للخليل عليه السلام ، وأمه هاجر ، وبصبر الخليل على إطاعة أمر الله فى قتل إسماعيل ولده الوحيد ، أكرم الله خليله بفدية إسماعيل بذبح عظيم ، وزاده إكراما بقوله تعالى : ﴿ وَتَركنَا عَلَيهِ فِى آلآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَى إِبَــراهِيمَ كَــذَلِكَ نَجــزِى الُمحسنِين إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا آلُمؤمِنِينَ ﴾[2] ثم قصم ظهور اليهود بحجة دامغة هــى أن

١- سورة الحج آية ٧٨.

٢- سورة الصافات آية ١٠٨ – ١١١.

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ولا شك . ومن ارتاب فى هذا الظهور فهو أعمى البصيرة بدليل قوله تعالى عند مجازاة الخليل على صبره فى حادثة قتل ولده الوحيد إسماعيل عليه السلام :﴿ وَ بَشرّنَاهُ بِإِسحَٰق ﴾ فالبشرى جاءت لمسارعة الخليل إلى قتل ولده إسماعيل ، والبشرى بإِسحاق ، فثبت أن الذبيح إسماعيل ، وأن إسحاق بُشِّر به بعد صبره حيث لم يكن مخلوقا عند ذبح إسماعيل، وحيث لم يكن للخليل ولد سوى إسماعيل حتى تعظم المصيبة فتوجب الهلع والجزع ، ولكنه صلى الله عليه وسلم مع كل تلك المقتضيات سارع إلى ذبح ولده بقلب قوىٍّ ابتغاء رضوان الله تعالى ، فبشره الله بإِسحاق ليفرح بفضل الله وبرحمته ويعلم رضا الله عنه . وأما إسحاق فهو الولد الثانى للخليل عليه السلام مجازاة له على صبره . وأما يعقوب فهو ابن إسحاق وسنفصل سيرهما فى الآيات الآتية ، وأما الأسباط فهم أبناء يعقوب عليه السلام وهم اثنا عشر رجلا كلهم أنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ذكرنا أسماءهم عند ذكر الأسباط فيما سبق [1] .

﴿ وَعِيسَىَ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيمنَ ﴾ أما عيسى فإن الله تعالى افتتح خلقه بعجيبةٍ تحير أهل النفوس اللَّقِسَةِ ، وسأبين لك سر تلك العجيبة عند ذكرها ، وهو عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وقد أنزل الله عليه الإنجيل نجوما . أما أيوب فقد ابتلاه الله بلاء أشبه بما أظهره من البلاء فى عيسى وأمه ، وسنوضح ما ابتلاه الله به عند خبر الله تعالى عنه ، ويونس وفى بعثته لقومه عجائب من البلايا والمحن مما أخبرنا الله تعالى عنه ، وهارون هو الذى أرسله الله تعالى مع أخيه موسى عليه السلام ، وقد أنزل الله عليهما التوراة فى الألواح مرة واحدة ، وفى إنزالها مرة واحدة سبب فى عناد اليهود الذين طلبوا من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يترل عليهم كتابا من السماء جملة واحدة كما أنزل الله على

١- راجع (أسرار القرآن) الجزء الأول ص ٢٦٤.

موسى التوراة – عنادا منهم – فذكر الله تعالى فى هذه الآية اثنى عشر رســـولا ، أنزل عليهم كتبا كلها نزلت نجوما .

حتى بلغ بهم العناد أنهم قالوا كما سبق :﴿ مَآ أَنزَلَ الله عَلَى بَشَـــرٍ مِـــن شَيْءٍ﴾ لا موسى ولا عيسى ، فقاتلهم الله أنى يؤفكون ، وسليمان وهو رسول الله الذى آتاها الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فعرَّفه لغة كل موجود مـــن الجـــن والإنس والحيوانات .

﴿ وَءَاتَينَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ و داوود أنزل عليه الزبور على وزن فعول بمعنى مفعول كرسول . وهنا قال آتينا داوود زبورا ليقصم ظهورهم بالحجة ، لأنه معلوم عندهم بالتواتر أن الزبور نزل على داوود عليه السلام ولا ينكـــره يهـــودى ولا نصرانى ،وقد أنزله الله تعالى عليه أجزاء ، فثبت أن حجتهم فى طلبـــهم للرســـول ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يترل عليهم كتابا من اسماء تاما– أى : جملة واحدة – المراد منه صد الناس عن سبيل الله وفتح الفتن المضلة .

قوله تعالى : وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّـــمْ نَقْصُصْـــهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

﴿ وَرُسُلاً ﴾ هنا معطوفة على نوح عليه السلام ، ويكون التأويل : إنـــا أرسلناك وأرسلنا نوحا ومن بعده وأرسلنا رسلا ، وجائز أن تكون منصوبة علـــى الحال أو على المدح ﴿ قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ يعنى حدثناك بأخبـــارهم أى: من قبل نزول هذه الآية ﴿ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصهُم عَلَيْكَ ﴾ أى : لم ننبئك بهم الآن وسننبئك بهم بعد ، أو لم نقصصهم عليك لأن من قصصناهم عليك جمعـــوا جميع مشارب الرسل جميعا ، والمراد من قصصهم عليك إدحاضا لـــزعم اليهـــود

وقصر الهَمِّ فى عنادهم ، وجائز أن يكون (رسلا) نصبت لأن حرف الجر الـــذى دخل على نوح لم يسبق قوله تعالى (رسلا) ، فصح نصبه لبعد حرف الجر .

﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أى : خاطبه مخاطبة . وعن ابن جرير قال : إن الله جل ثناؤه لما كلم موسى كَلَّمهُ بالألسنة كلها قبل كلامه – يعـنى كـلام موسى – فجعل يقول : يا رب لا أفهم ، حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة فقـال : يا رب هكذا كلامك ؟ قال : لو سمعتَ كلامى – أى على وجهــه – لم تكـن شيئا. وعنه أيضا : بم شبهت كلام ربك مما خلق ؟ فقال موسى : الرعد الساكن . وعنه : لما كلم الله موسى بالألسنة كلها قبل لسانه فطفق يقول : والله يا رب مـا أفقه هذا ، حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة بمثل صورته . فقال موسى : يا رب هذا كلامك ؟ قال : لا ، قال : هل فى كلام خلقك شيء يشبه كلامك ؟ قال : لا ، وأقرب خلقى شبها بكلامى أشد ما يسمع الناس من الصواعق .

قوله تعالى : رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٦﴾

﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أى : أن الله تعالى أرسل رسلا كما قدمت لك الحكمة ، لأن الله خلق الإنسان جامعا لكل الحقائق وأهَّلَهُ ليفوز بالملك الكبير حيث تخدمه الملائكة ، أو يخلد فى نار السعير إذا هو اتبع هواه .

وأطاع نفسه الأمارة بالسوء ، فالرسل بعثهم الله تعالى ليبشروا أهل الإيمان به ، وينذروا أهل النفاق والكفر أى : يخوفوهم من عذاب النار يـــوم القيامـــة ، ولتكون الحجة لله على من خالفه . كما قال الله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وقد بينت هذه الآية أن الناس لا يؤاخذون ولا يعاقبون إذا لم يقم بينهم رسول يبشرهم وينذرهم ، وكل أمةٍ لم يبعث الله إليهم رسولا فهـــم

ناجون من أن يؤاخذوا على ترك القيام بالتكاليف إذْ لا تكليف عليهم ، قـــال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1] .

ولا يلزم من قوله تعالى : ﴿ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾ أن الناس قد تكـــون لهم حجة ، ولكن هذه الآية بيان للعقول التي قامت لديها دلائل التوحيـــد حـــتى عرفت ربها ، فتزهته تتريها يليق به . والحقيقة أنه لا حجة للناس على الله تعالى ولو لم يرسل رسولا ، فهو الخلاق العظيم ، الفاعل المختار جل جلاله ، ولكنه يـــتترل سبحانه فيأخذ على الناس مسالكهم حتى لا تكون لهم حجة ، وتأويل هذه الآيـــة أن العليم بعباده الخبير بهم أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، عالما بحالة من ســـبق عليهم القضاء بالنفاق والكفر والعناد في الدنيا ، وبين لهم أنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل قطعا لحججهم ، وإعجازا لهم أن يقولوا يوم القيامة عند الوقوع في العذاب المقدر عليهم كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ لَوْلآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴾[2] وهذا تترل من الله سبحانه وتعالى ، فـــإن الحكـــم العدل الواسع العليم يتفضل حتى يجعل للعدم وجودا ، ومع وجوده يرى لنفسه حقا أمام ربه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾[3] فبعثة الرسل تجعل أهل النفاق وأهل الكفر بالله يوم القيامة يعلمهم الخزى والذل ، ويشتد بهـــم الندم والحسرة والأسف على ما فرطوا في جنب الله ، وذلك إذا انكشـــفت لهـــم الحقائق التي بينها لهم الرسل في الدنيا ولات حين منـــدم ، فيســـاقون إلى النـــار

١- سورة الإسراء آية ١٥.

٢- سورة طه آية ١٣٤.

٣- سورة النحل آية ١١١.

معتقدين أنهم يستحقون أكثر من ذلك ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1].

﴿ وَكَانَ آللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ أى : ذا عزة ،والعزة هى القوة فى تنفيذ ما قدره أزلا فى آياته الكونية والتى هى مظهر لأحداثها ، وحكيما أى : ذا علم بأسرار ما قدَّره وبما يلزم فى إبرازه من المكان والزمان والحال والشأن ،والحكمة كما قدمت لك هى كمال العلم والعزة ، هى القدرة المنفِّذة لإيجاد ما خصصه العلم من حضرة الإرادة .

قوله تعالى : لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيكَ أَنزَلَهُ بِعِلَمِهِ وَ آلمَلَٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

﴿ لَّكِنِ آللَهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيكَ أَنزَلَهُ بِعِلَمِهِ ﴾ سبب نزول هذه الآية ما سبق من قول اليهود ﴿ مآ أنزَلَ آللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شيءٍ ﴾ وقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ إنكم واله لتعلمون أنِّى رسول الله ﴾ فقالوا : لا نعلم بذلك يا محمد ، وكان هذا يحزن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ومعناها : أن جحد اليهود بما أنزله الله على موسى وعلى من قبله وبعده من الأنبياء وَنَعَتُّكَ فيه أنك رسولى وخاتم رسلى ، وأنكروا ما أنزلته عليك ، لكنى أشهد شهادة هى الحق بما أنزلته إليك ، وأشهد أنى أنزلته بعلمى الذى أحاط بما قدرته أزلا أنك خاتم رسلى ، وأنك رحمتى للعالمين ، وأن كتابك مهيمن على كل الكتب وناسخ لجميعها . وأنى قدرت أنك لو أدركك موسى وعيسى لآمنا بك واتبعاك ، وفاء بميثاقى الذى واثقتهما به ، وبعد شهادتى بما أنزلته عليك بعلمى فإنكار العالم جميعا لا يقام له ميزان .

١- سورة الشعراء آية ١٠١ -١٠٢.

﴿ وَ الْمَلَٰئِكَةُ يَشهَدُونَ وَ كَفَى بٱللّٰه شَهِيداً ﴾ أى : وحسبك شهادة الله لك طمأنينة لقلبك وانشراحا لصدرك .. قد بينتُ معنى المَلَك فيما تقدم ، والمراد بالملائكة هنا إما أن يكونوا ميكائيل وجبريل ، أو يكون جميع الملائكة الذين شهدوا الله بما شهد جل جلاله به لنفسه ، لأنه ما من حدث يحدث فى الأرض إلا ويعلمه سكان السموات من الملائكة وما فوق ذلك من الروحانيين .

وتأويل هذه الآية أن الله تعالى وملائكته يشهدون لك بأنك رسول الله ، وأنزل عليك كتابا مهيمنا على الكتب وختم بك الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ ﴾(1) وفى ذلك من الشرف للمؤمنين ومن البهجة والمسرة مالا تفى به العبارة ، وفيه من الخزى والذل والقهر لمن كفروا بالقرآن ما فيه مما لا تصوره العبارة ، أسأل الله تعالى أن يعيذنا بوجهه الكريم من البدع المضلة ، ومن مخالفة السنة ، حتى نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

قوله تعالى : إِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَهِ قَد ضَلُّواْ ضَلَلاَ بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾

﴿ إِن ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى : أن اليهود والنصارى الذين كفروا بما أنزله على حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بعد أن قامت الحجة عليهم بما أنزله على موسى وعلى عيسى وغيرهما عليهم الصلاة والسلام ، من صفات خاتم الرسل ومن نسبه وبلده التى يولد فيها والتى يهاجر إليها ، وأنه من نسل إسماعيل عليه السلام ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَهِ ﴾ بأن صدوا أنفسهم عنادا وطمعا فى الرياسة ، وصدوا غيرهم من المشركين الذين كانوا يسألونهم : هل فى كتبكم دليل على بعثة رجل

١- سورة الأحزاب آية ٥٦.

من العرب ؟ فيقولون : إن نبى آخر الزمان يكون من ولد هارون وداود و لم يكن فى التوراة ما يدل على بعثة نبى من العرب ولا من ولد إسماعيل . ويحرفون ما فى التوراة عن مواضعه ، ويفترون على الله تعالى الكذب ، وهذا هو صدهم عن سبيل الله بعد أن قامت الحجة بالمعجزات الباهرات ، وبعد أن ثبتت معجزته عند العرب لعجزهم عن إتيانهم بأقصر سورة من القرآن فى وقت شدة عداوتهم له ﴿ ﷺوآله﴾ ، وتعصبهم لآلتهم وآبائهم ، وهذا العجز جعلهم يسألون أهل الكتاب عنه ﴿ﷺوآله﴾ .

﴿ قَد ضَلُّواْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أى : قطعوا عن رحمة الله بكفرهم برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد علمهم اليقينى بصدق نبوته ، وصد من أقبل على الإسلام بالأباطيل والضلالات ، فوقعوا فى الهلاك الأكبر فى الدنيا بحرمانهم من النور والهدى والعلم ، والإيمان الذى يطمئن القلوب ويشرح الصدور ويزكى النفوس ، فعاشوا فى الدنيا فى الضنك والقلق والعداوة والبغضاء والكيد لبعضهم ، وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم . والضلال هو الميل عن الحق إلى الباطل ، والجور فى عمل الباطل غلوا فى الكفر والعناد حتى استحقوا لعنة الله تعالى ، وبعدهم عن رحمته وعن قبول الهداية ، والضلال البعيد هو اللعنة الأبدية .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى : أنكروا رسالة محمد وجحدوا ما أنزله الله عليه، مع ما عندهم من العلم بصدقه ، فكفروا بسبب ذلك بالله تعالى وبكل أنبيائه السابقين ﴿ وَظَلَمُواْ ﴾ بعنادهم وصدهم من أقبل على الإسلام ، وباستمرارهم على الكفر بالعناد ، بعد أن علموا ما علموا فى كتبهم من إثبات نبوته ﴿ ﷺ

وآله﴾ ، وشهدوا من المعجزات الباهرات التى إذا أنزلت على الحجارة لهبطت من خشية الله ، ولكن ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾[1].

﴿ لَم يَكُنِ اللَّهُ لِيَغفِرَ لَهُم ﴾ أى : ليطهرهم من الكفر والظلم ويعفو عن سيئاتهم ، وأنهم بعملهم الذى عملوه حاربوا الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فأقاموا الحجة على أنفسهم أنهم أعداء الله تعالى ، وأن الله لم يقدر لهم هداية ولا توفيقا فى أزله ، لأن النفوس الخبيثة التى خلقت من سِجِّين تعود إلى ما خلقت منه. قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾[2] ومن خلقهم الله من نور جماله أعادهم إليه ، ومن خلقهم من قهرمان جلاله أعادهم إليه .

﴿ وَلاَ لِيَهدِيَهُم طَرِيقاً ﴾ أى : ولا يبين لهم بيان إحسان طريق الحق ويوفقهم للعمل بمحابه ومراضيه فيسلكون الصراط المستقيم حتى يصلوا إلى مقر رحمة الله فى رضوانه ، ولكن أضلهم فسلكوا طريق الكفر والغواية والقطيعة عن الله.

قوله تعالى : إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيها أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى آللَهِ يَسِيراً ﴿١٦٩﴾

﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ والاستثناء هنا متصل ، والاستثناء يفيد القصر أى : أنهم لا يتجاوزون طريق الضلالة حتى يصلوا إلى جهنم ؛ كما قال تعالى : ﴿ خَلِدِينَ فِيها أَبَداً ﴾ أى : مؤبَّدين فيها خلوداً أبديا ، وقوله تعالى : (أَبَداً) فى هذه الآية ، نهاية العقوبة لأعداء الله . وقد بينت أنهم لو منحوا الحياة الأبدية فى

١- سورة الكهف آية ١٧.

٢- سورة الأنبياء آية ١٠٤.

الكون لازدادوا فى كل يوم جديد عنادا وكفرا ، فهم يؤاخذون بالأبدية فى النـــار جزاء على أعمالهم ونواياهم ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى آللَهِ يَسِيراً ﴾ لأنه تنزه وتعـــالى لا شريك له ينازعه فيما يشاء أن ينفذه ، ولا شفيع لهم ولا نصير ولا ظهير ، والقادر الفاعل المختار يفعل ما يشاء . فكان خلودهم فى النار يسيرا علـــى الله تعـــالى ، ويسيرا جدا بالنسبة لما يستحقونه من أليم الانتقام على محاربتهم لخـــالقهم الـــذى سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، وخلقهم من الطين أو من الماء المهين .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًـــا حَكِيمًـــا ﴿١٧٠﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ علم أنه لما أن أدحض الله شُبَه اليهود بالحجج الدامغـــة وكشف الستار عن عنادهم ونزوعهم إلى الباطل حتى عرفوا بالبهتان عند ســـائر الأمم ، أخذ يخاطب العالم من كل الملل والنحَل الكافرين برســـوله محمـــد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ممن بلغتهم دعوته ﴿ ﷺ وآله﴾ عجما وعربا ، وتأويل هذه الآيـــة : يـــا جميعَ من بَلَغَتْهم رسالة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فإن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطابٌ لعامة الخلق من بنى الإنسان .

﴿ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعنى قد جاءكم محمـــد ﴿ ﷺ وآله﴾ من عند الله تعالى بالحق الذى يجب أن تكونوا عليه لتفـــوزوا بالحســـنيين ، ومجيئه بالحق لأنه جاء بالقرآن الذى هو معجزة عجز العرب جميعا بأن يأتوا بأقصر سورة منه ، والقرآن حق ، وقد جاء به ﴿ ﷺ وآله﴾ يدعو إلى الله على بينة مـــن الأمر ، بدعوى يقبلها العقل ، بحيث أثبتت لديه الحق اليقين لما قام به من المعجزات

الباهرات وكانت دعوته حقا ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الذى رباكم بنعمه ، وتولاكم بفضله، وتعهدكم بكل ما تحتاجون إليه من الضروريات والكماليات وزيادة ، وفى قوله تعالى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ إشارة إلى انعطاف الإنسان نحو الله تبارك وتعالى ، فهو تعبير يبعث فى الإنسان روح الإقبال على الإيمان والعمل به ، لأنه جاء من عند ولى النعم الذى أكرم الإنسان بكل شىء . أى : جاء بالقرآن يدعو إلى الله ، ولما كان القرآن معجزا ، وكانت دعوته حقا فثبت أن الذى جاء به هو الحق ، لأن الخلق جميعا عجزوا عن أن يأتوا بمثل ما جاء به ، وما أعجز جميع بنى الإنسان لا يمكن أن يأتى به إلا الله تعالى ، فثبتت صحة رسالته .

﴿ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أى فصدقوا محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بعد قيام الحجة البالغة يكن الإيمان به ﴿ ﷺ وآله﴾ خيرا لكم فى الدنيا لحفظ دمائكم وأموالكم وأعراضكم ، ولتنالوا العزة بالخير بعد الرق ، والوسعة بعد الجزية ، وخيرا فى الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم فى فردوس الله الأعلى ، ونصب (خَيراً) إما على خبر ليكن المقدرة ، أو أنه نكرة جاءت بعد تمام الكلام وهى اللغة الفصحى .

﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ ﴾ أى : وإن تكفروا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وبما جاء به من عند الله انتقم الله منكم فى الدنيا بتسليط المسلمين عليكم وقهرهم إياكم بالغلبة والقوة ، أو بتعذيب ضمائركم لكم ، لأنكم تعلمون أنكم فى ضلال مبين بسبب جحودكم الحق وعنادكم أهله ، ومع أن ضمائركم تعذبكم بسبب ذلك فإنكم لا تستطيعون الفرار من هذا العذاب طمعاً فيما يفنى ويزول ، أما عذاب الآخرة فهو أكبر مما يتصوره العقل من تباريح الآلام ونوازل المصائب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : إيجادا وملكا ، ومن أوجد السموات والأرض وملكهما فهو الغنى بذاته عما سواه ومن سواه ، مفتقر إليه منَ عداه ، فلا ينفعه سبحانه وتعالى إيمانهم بل نَفْعُهُ عائدٌ إلى من آمن به ، ولا يضـــره تعالت ذاته كفرهم والضر عائدٌ عليهم . وجائز أن يكون المعنى فــإن لله مــا فى السموات والأرض أى : أنه ملك مطلق التصرف قادر على أن يسرع بالنقمة منهم بسبب كفرهم . وجائز أن يكون المعنى : إنكم أيهـــا النـــاس إن كفـــرتم فــإن السموات والأرض مخلوقة له سبحانه ، مملوكةٌ له جل جلاله وملْءُ السموات السبع وأرجائها من الأرواح المطهرة يعبدونه الليل والنهار لا يفترون ، وعلى وجه الأرض عباد مخلصون مطيعون ربهم ويفعلون ما يؤمرون به . وكفـــرهم بمحمـــد ﴿ ﷺ وآله﴾ يسبب إنزال العذاب على من كفر به ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى: محيطا علما بإحسان المحسن فيجازيـــه بأحسن منه ، ويكفر الكافر فيخلده فى نار جهنم (حَكِيماً) أى : ذا حكمة فيما قَدَّره وقضاه سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَـــى اللّـــهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴿ ١٧١ ﴾

بعد أن دعا الناس جميعا بالحجة إلى الإيمان بحبيبه محمـــد ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ ، وهدد من لم يصدق بدينه ، واستوفى إبطال شُبه اليهود ، خاطب النصارى بقولـــه نعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ أى : لا تبلغوا فى المبالغة لدرجة الغلو والإغراق فيقول اليهود : المسيح ابن زنا ، ويقول

النصارى : المسيح ابن الله . ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ ﴾ خاطب بهذا الكلام النصارى، وتأويل الكلام : ولا تقولوا على الله مالا يليق بجلاله العلى من أنه حـــل فى المسيح أو فى مريم تتره وتعالى ، أو اتحد بروح المسيح ،أو أنه تولد من الله تعالى فإن هذا باطل جميعه ، فإن حلول الله تعالى فى جسم من الأجسام يقتضى أنه جسم تحيط به أجسام بنى أدم ،وأجسام بنى آدم أصغر وأحقر من أجسام الجمادات فضلا عن أجساد الأرواح العاليات ، والقول باتحاده سبحانه و تعالى بجسم من أجســـام عبيده يقتضى محو الحقيقتين واستبدا لهما بحقيقة أخرى ، كما تتحـــد الأجســـام بعضها فى التحليل والتركيب فتنمحى الحقيقتان و توجد حقيقة أخرى بعد فقـــد مميزات كل حقيقة منها . كما تضع الليمون على الماء فإن مميـــزات المـــاء تفقـــد ومميزات الليمون تفقد.

ونحن نرى حقيقة العبد ثابتة بأبصارنا ، ودلائل وجود الرب جل جلالـــه ثابتة بعقولنا . فثبت بطلان الحلول والاتحاد و بطلان البنوة ، وتتره الله تعالى عن أن ينسب إليه ولد ، والد صنو أبيه وكأنه هو حقيقة ورسما ، والمسيح ومَن فوقه مـــن الخلق من الرسل والكرام ومن سواهم من عالم الخلق وعالم الأمر كلهم هو عبيـــد مربو بون وعباد مقهورون .

وبعد أن أمرهم بالتوسط فى دينهم وترك الغلو بيَّن لهم حقيقة المسيح بيانا شافيا للقلوب من المرض الباطن بعقيدة الكفر بقوله سبحانه :﴿ إِنَّمَـــا الْمَسِـــيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ ﴾ إلى آخر الآية . أى : أن حقيقة المسيح هـــى أنـــه رسول الله ، والرسول هو : عبد أوحى الله إليه بشرع ليعمل به ويبلغه لأهل زمانه. لأن الرسالة لم تخرج من حَمَّلَهُ الله بها عن العبودية ، ولكنها تُمكِّنـــه فى مقامـــات العبودية حتى يكون أخوف مخلوق من الله ، وأذل عبد لله لكمال معرفته بالله ، ولا يظن إنسان بمعناه عبداً أُجرى فى مجرى البول مرتين ، وعاش شهوراً منغمســـا فى

قاذورات الرحم ، وخرج من الرحم وتربى طفلا يبول ويتغوط على نفسه ويبكى ويمرض ، من الحجج الدالة على ضعفه واضطراره وذله وفقره ما يثبت عبوديته ، ثم يظن انه ابن الله أوحل الله به تنزه وتعالى ، أو اتحد به تقدست أسماؤه ، وإن إنسانا يعتقد تلك العقيدة هو أضل من البهائم السائمة .

﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَآ إِلَى مَرْيَمَ ﴾ تقدم الكلام على : كَلِمَتــه ، والمعــنى أن المسيح خلقه الله تعالى بكلمة خلق الكون (كن) من مريم كمــا خلــق آدم مــن الطين،ولا عجب فى هذا، فإن القادر الذى يخلق الشىء من لا شىء كمــا خلــق الكون من العدم ، ويخلق الشىء من الشىء الذى ليس من نوعه ولا جنسه كمــا خلق آدم من الطين ، فإنه سبحانه قادر على أن يخلق الشىء من الشىء هــو مــن نوعه كما خلق عيسى من مريم ، فإن آدم أبوه وأمه الطين ، وحواء أبوها وأمهــا آدم ، والمسيح ليس له أب وأمه مريم التى حمل إليها جبريل كلمة الله وهــى الإذن بالحمل، وكانت هذه الكلمة ممثلة فى نفخته عليه السلام فى جيبها .

﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لما كان العرب يسمون الإنسان الطاهر المتجمل بالأخلاق الفاضلة روحا ، سمى الله المسيح روحا لطهارته ، ولــك أن تُــؤَوِّلَ -روحــا - بالرحمة. قال تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [1] أى : رحمة منــا ، أو أن المعنى نفخة من جبريل ، لأن الروح مأخوذ من الريح ، وجبريــل روح فتكــون نفخته روحا لأنها من الروح ومن الريح أيضا ، ولك أن تقول : روحــا لأنــه ام يتكون من مادة ، فتكون فيه بواعث النفس الغضبية والشهوة ، وبطهارته من تلك المقتضيات سماه الله روحا أى : لا تقهره بواعث الغضب ولا الشهوة فهــو روح

١- سورة الشورى آية ٥٢.

،وإنما سميت الروح روحا لأن الله عصمها من التروع إلى ما تدعو إليـــه النفـــوس الإنسانيه .

ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أن المسيح حل فيه شيء من الله تعالى ، وتتره الله ذو الجلال والإكرام عن أن تكون الأشياء ظرفا له أو يكون ظرفا لشيء من خلقه ، وما فى المسيح إلا ما تفضل الله به عليه من العناية به حيث خلق مجردا مما تقتضيه شهوة الإنسان ، حتى فطر على عدم مباشرة النساء ، وعدم الميل للدنيا التى يَكْلفُ بها من ولدوا من ذكر وأنثى فطبعوا على الحرص على جمع الدنيا والتمتع بزخارفها ، ولذلك أمرهم الله بالجهاد فى سبيله فقـــاموا يجاهـــدون أولا وبالذات قُوَى أنفسهم التى لا يقهرها إلا نبى مرسل ، أو صديق أكـــبر أمـــده الله بروح منه فقهر قواه التراعة إلى الشر ، فصار بصفائه روحا وله هلى هذا الجهـــاد أجر لم يكن للمسيح عليه السلام لأن المسيح لم يجاهد عدوا فى ذاته ، لأنه كـــان روحا مفطورا على ما يحبه الله ، بل كان جهاده فى الدعوة كما جاهـــد الرســـل عليهم الصلاة والسلام من قبله ومن بعده .

فقوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ تفضل على عيسى عليه السلام خـــاص لم يبلغه الرسل جميعا إلا بفادح الجهاد ، وشتان بين ظفر بكتر ثمين بغير جهد ، وبين من جاهد بنفسه جهادا شديداً حتى فاز به ، فالمسيح عليه السلام اعتـــرف بهـــذا الفضل يوم ولادته لأنه يقول : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَينَ مَا كُنتُ ﴾[1] أى : جعلنى روحا طاهرة لا تَنَازُع بَيْنَ قُوَى نفسى فله المنة علىَّ ، بخلاف غيره من الرسل فإنهم جاهدوا أولا وبالذات نفوســـهم فى ذات الله ، وثانيا أعداء الله ، والمسيح لم يجاهد إلا فى سبيل الدعوة ، والله تعالى فضـــل

١- سورة مريم آية ٣٠-٣١.

المجاهدين على القاعدين ، فقوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ إعلام من الله لعبادخ المؤمنين أن المسيح خلق كما آدم بكلمة منه ، وأنه خلقه روحا طاهرة لم يحتج إلى جهاد فى قهر النفوس النزاعة إلى الشر بحسب المقامات .

﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ يعنى أن الله جعل الحمل به ووضعه فتنة وابتلاء ، ثم جعل قَوْلَهُ وفِعْلَهُ مما يحير العقول ، ليقيم الحجة على اليهود أنهم خالفوا ما أنزل الله على الرسل ، فكان الحمل به ووضعه وسيرته مما لا تتحمله العقول الإنسانية ، لأن معاصريه فتنوا به فمنهم من قال : ابن زنا ، ومنهم من قال : ساحر ، ومنهم من قال : ابن الله ، فهلك الكل فيه ، وقامت الحجة على أن خاتم الأنبياء رحمة للعالمين كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[1] وكان المسيح فى حمله وولادته ودعوته نذير نقمة من الله لليهود ، فإن الله انتقم منهم بسببه ، وسلط عليهم الرومان فأهلكوا أكثرهم ومُزِّقَ بقيتهم شر ممزق ، ولا تزال النقم من الله تعالى محيطة بهم بسبب ما جلبت عليه نفوسهم الإبليسية — كما جلبت من قبل نفوس أسلافهم — من الكيد لله ورسوله ولأوليائه المؤمنين فإنهم — أخزاهم الله — ما احتلوا أرضا إلا أفسدوا الحرث والنسل ، وأضروا الخلق فطردوا كما طردهم روسيا من بلادها والإنجليز من عدن فى هذا العصر ، وقد جعلهم الإنجليز آلة شر وأنزلوهم فى فلسطين ليهلكهم العرب عن آخرهم فيستريحوا وليشغلوا العرب عن الإنجليز ، وليكون للإنجليز ، وجه فى احتلال فلسطين ، فلعن الله اليهود حيث كانوا .

وهنا نتكلم مع النصارى : إن الله سبحانه وتعالى يرفع درجة المسيح فوق عامة الخلق حتى جعله رسولا كريما قريبا منه تعالى ، بعد أن رماه اليهود بأنه ابن

١- سورة الأنبياء آية ١٠٧.

زنا وأنه ابن رجل رومانى ، فأخزى الله اليهود ، وطهر عيسى مما وصموه به بقوله تعالى ﴿ لإنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَريَمَ رَسُولُ آللهِ ﴾ ثم شرفه وخصه بخصوصية بأنه كلمة الله كآدم وكحواء وكغيرهما مما خلقه الله بكلمته ابتداء ، أو بكلمته من نوع غير نوع حقيقته ، أو بكلمة من نوعه غير أنه من غير الأواسط التى عرفها الخلق مثله كالمسيح ، الذى فى العادة يولد من أنثى وذكر ، فخلقه من أنثى بغير ذكر ، وكلمته سبحانه فى خلق عيسى مقبولة للعقل الذى يَقبل الحق بعد مشاهدة الحس لأشياء كثيرة توجد فى غرابة ومن غير ذكر ، كالنباتات التى توجد فى الصحارى والقفار وعلى شواطئ الأنهار ، وكالحيوانات التى تتولد من الطين والعفونات كالجرذان و الضفادع وغيرهما ، ويقبل العقل أن المراة تكمل عناصرها ويستوى شبابها فتتولد من مائها العلقة داخل الرحم فتحمل بقدرة الله تعالى ، فإذا كانت العقول تقبل هذا كيف تعجز عن أن تقبل أن الله تعالى خلق إنسانا من إنسانه كما خلق إنسانا من طين وخلق إنسانة من إنسان مما هو حق يقين عند اليهود والنصارى ؟ ثم تأبى اليهود فيقولون : المسيح ابن زنا ، وتأبى النصارى فيقولون : المسيح ابن الله ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1].

بينت لك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّما المَسِيحُ ﴾ الخ ... ولولا خوف الإطالة لشرحت الحقيقة على ما هى عليه وقد بينتها فى كتاب (وسائل إظهار الحق) فراجعه إن أردت المزيد.

﴿فئامِنُوا بِاَللهِ وَرُسلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلثةٌ انتَهُواْ خَيراً لَّكُم إِنَّما اَللهُ إِلهُ واحدٌ سبحانه أن يكون له ولدُ له مَا فى السموات وما فِى الأرض وكفى باللهِ وكيلاً ﴾ هذا الأمر الشريف يريد به سبحانه النصارى ، و تأويل الآية : فصدقوا بوحدانية

١- سورة الكهف آية ١٧.

الله ذاتا وأسماء وصفات وأفعالا ، ونزهوه سبحانه وتعالى فى كل ذلك عما هو من صفات البشر ، كاتخاذ شريك له سبحانه ، أو ولد أو صــاحبة ، أو معــين ، أو وكيل ، أو ضد ، أو ند ، وصدقوا برسله الذين هم عبيد مربوبون وعِبَاد مقهورون اصطفاهم لنفسه تعالى فجعلهم رسلا عنه سبحانه ، يبغلون محابه ومراضيه للبشر ، لا يتترهون عن الأعراض البشرية ، والمسيح عليه السلام واحد منــهم خصــه الله بمعجزات فى حمله ووضعه وأقواله وأعماله وأحواله ، لتكون حجة علــى صــدق دعواه أنه عبد الله ورسوله .

وبقدر ما وهب له من العناية فى حمله ووضعه وفى ما أظهر من غرائــب الحكم وعجائب الأفعال والأخبار ؛ بقدر ما ابتلاه به سبحانه وتعالى من البلايا التى يحكم العقل عليها من أول وهلةٍ أنها لا تكون إلا لعبد ذليل لا حول له ولا قوة إلا بالله ، بل يستحيل على عقول البهائم السائمة – بعد أن ترى ما وقــع بــه مــن الشدائد والمصائب التى تثبيت ذله وَهَوَانَهُ – إلاّ أن تحكم أنه عبد الله تعالى مهمــا أظهر سبحانه على يديه من المعجزات .

وإنا لنعجب من قوم حصَّلوا بعقولهم علوما أمكنهم بها أن ينوِّعوا أنــواع المعادن والنباتات فيدخلونها فى صناعات شتى وفنون مختلفة ؛ حتى طاروا فى الجو ، وغاصوا فى البحار ، وفتحوا الكنوز التى خزنها الله لنا فيما خلقه لنــا فى الأرض و الأجواء والأرجاء ، ويفقدون العقل الذى يعقل عن الله دلائله التى أقامها ، والمبينة بحَالها وخواصها على تفريده جل جلاله بالألوهة ، وعلى أنه تتره وتعالى عن الولد والوالد والصاحبةِ ، ثم يتخذون له ولدا وبعد ذلك يعتقدون أنه ابــن الله تعــالى وَيَدْعونَ أهل الإيمان بالله تعالى ورسله عليهم السلام إلى إعتناق عقيدة فى أن عبدا لله هو ابن الله تعالى ، عقيدة جعلت العقل السليم من الهوى حائرا فى شأن قوم فى صورة الأناسى ، وهو أحط فى الحقيقة من البهائم السائمة ، لأن البهيمة لا ترضى

أن تلقى بنفسها فى هاوية أمامها إلا بعد أن تدفع بالقوة القاسية ، وهؤلاء الأنـــاس يلقون بأنفسهم فى هوة سحيقة عميقة باشة وجوههم ، هاشة قلوبهم . اللـــهم إن الهدى هداك فاحفظنا من المسخ الذى يجعل الصورة إنسان والحقيقة حقيقة خترير بل أضل .

قوله تعالى : لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْـــداً لِّلّـــهِ وَلاَ الْمَلآئِكَـــةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

استنكف : دفع الإساءة ، وسبب نزول هذه الآية أن وفد نجران الذين لمـــا قدموا على رسول الله ، قالوا : يا محمد إنك نعتَّ صاحبنا ، قـــال : مـــن هـــو صاحبكم ؟ قالوا : المسيح ، قال : وأى شيء قلته ؟ قالوا : تقول : إنه عبد الله ، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : إنه ليس بعار أن يكون عبدا لله . وأنزل الله تعالى :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾
ومعنى الآية أن المسيح لم يأنف ولم يمتنع ولم يتكبر عن أن يكون عبـــدا لله ، لأن المسيح لم يتميز عن بقية الرسل بشيء سوى أنه وُلِدَ من غير أب . وقد قصـــمت الحجة ظهور النصارى الذين يعتقدون أن أول إنسان هو آدم بصريح كتبهم ، وآدم خلق من التراب من غير أب ولا أم ، فوجود إنسان من إنسانة أهون من وجـــود إنسان من تراب ، وإذا كان عيسى لأنه ولد من أنثى بدون ذكر يجعلهم يعتقـــدون أنه ابن الله ، فكيف يقولون فى الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم ؟ وإذا كان عيسى أظهر من المعجزات ما يعجز عنه البشر ولا يوجده يحدثـــه إلا الله تعـــالى ، فـــإن الملائكة الذين لا أب ولا أم لهم يحدث منهم أحداث فوق ما أحدثه عيسى ، وهو لا يتكبرون عن أن يكونوا عبيدا لله بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى : ولا يستنكف كل واحد من الملائكة المقربين عن أن يكون عبدا لله .

وذكر الملائكة المقربين هنا ليقيم الحجة على النصارى أنهم لا عقول لهم . هذا وإن دين التثليث قديم جدا يكاد يكون من عصر قابيل بن آدم ، الذى بنى بيتا لعبادة النار بعد قتل أخيه هابيل ، وقد وجدت آثار قديمة جدا فى بلاد الهند تـدل على التثليث ، وتلك الآثار هى جسم له ثلاث رؤوس يسمى : الثالوث المقدس ، وفى التاريخ القديم جدا لأقباط مصر أن الآلهة (إيزيس و أوزيريس) يعنى الإله (وآمون رع) خلقوا الخلق وعلموا الناس غراسة الأرض ، وتلك الآثار من خمسة آلاف سنة تقريبا . ويجعلون الشمس والماء والأرض كناية عنها ، ويظهر أن مـن هاجروا من الحواريين بعد رفع المسيح تفرقوا فى الأمم . فمرقس دخل مصر عنـد الأقباط ونشر بينهم تعاليم المسيح فمزجوا هذه بعقائدهم الوثنية ، ودخل غيره بلاد الرومان لأنهم كانوا مستعبدين بلاد سوريا ولهم معرفة خاصة ببعضهم فنشروا تعاليم المسيح ، وكانوا يرون منهم فى بلاد الشام خوارق العادات فخلطوها بعقائدهم الوثنية ، كما نرى الآن ما عليه أقباط مصر مع البطريرك ، وما عليه الرومان مع البابا فى إيطاليا وغيرها .

واعتقادى ، من فروا من أتباع المسيح بعد رفعة لم ينشروا بين الناس إلا ما كانوا مؤمنين به من أن المسيح عبد الله ورسوله ، ولكن الأمم الوثنية أفسدوا عقائد الدين وتعاليمه بما كانوا عليه من المجوسية والجاهلية العمياء الصماء ، وإنا لنرى بين ظهرانينا بعض العلماء يمنحهم الله العلم والحال والاستقامة ، وينفع الله بهم ، فيقوم فى عصرهم شياطين الإنس يحرفون كلامهم للعامة فيفسدون عليهم عقائدهم آدابهم الشرعية .

وإن الله جل جلاله جعل الدين الإسلامى متمما لكل الأديان السابقة ، فجمع فيه سبحانه ما به كمال الجسم عبادة وأخلاقا ومعاملة ، وجعل فيه كمال الروح من الوجهة العلمية مبتدئاً فى ذلك من مقام الإيمان من حيث التصديق بما

جاءنا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، مما تقوى على إدراكه عقولنا وما لا تقوى ، بعد إقامة الحجة بالمعجزات الباهرات ، وكمال مقام الإيمان شعور القلب بالمراقبة بعد كمال الإيمان بمعية الله تعالى بقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُم أينَ مَا كُنتُم ﴾[١] ثم تقوى المراقبة حتى يرفعه الله إلى مقام الإحسان وهو طمأنينة القلب بذكر الله ، فيعبد الله كأنه يراه ، ويقوى حال السالك فى هذا المقام حتى يبلغ كماله ، فتكون الآيات ومعانى الصفات أقرب إليه من الكون ، و تبادئه صولات الجذبات الإلهية فتقوى الحيرة فى هذا المقام ، ويتكلم من أكرمه الله به بكلام الروح لأهلها من الروحانيين. فإذا سمع كلامه من لم تزك نفوسهم بالجهاد وبتحصيل علم التشبيه والتتريه ، جعلوا ما تخاطب به الأرواح من الإشارات خطابا للأشباح لجهلهم ، فتركوا الأدب الشرعى فأخلدوا إلى الأرض ، وليس الذنب على السالك ، لأن صولة الجذبة الإلهية تجعله لا يرى أمامه إلا آيات الله فى الكائنات ، قال الله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾[٢].

ومن سمع كلام هذا الرجل و لم يقف عند أدبه أهلك نفسه ، لأن الطفل إنما يتغذى بلبان أمه ، فإذا قوى إنما يتغذى بشىء من الوسائل ، فإذا أكل ما يأكله الكبير السن وهو فى الطفولة هلك ، ومن أطعم الطفل غذاء الصبى المناهز البلوغ أهلكه وعليه الدية ، والعاقل لا يلبس الطفل ثوب البالغ . وكم من أناس حرفوا عبارات الرجال فأفسدوا بذلك . عقول الناس ، وأضلوهم عن سواء السبيل ، وقد رأيت بنفسى ذلك . ومنهم من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فالنصارى الذين يقولون : إن المسيح ابن الله ، لم تقم لديهم حجة ولا إشارة من علم ، ولكنه مذهب توارثه الناس من القرون القديمة جدا ، وروجه أهل الأطماع بما أدخلوه فى

١- سورة الحديد آية ٤.

٢- سورة فصلت آية ٥٣.

عقول الناس من أن المسيح خلق طيرا وأحيا ميتا وأبرأ مرضى وأخبر الناس بما فى بيوتهم .

﴿ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ لا يفيد تفصيل الملائكة على الرسل الكرام ، بل ولا على أهل الإيمان الكامل ، لأن المراد هنا إقامة الحجة على بطلان أن الإنسان المولود من إنسانة من غير أب يكون أبوه الله تعالى ، تتره ربنا عن ذلك ، وإذا كان من وُلد من أم من غير أب يكون أبوه الله تعالى ، فتكون الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم أولى بتلك النبوة من عيسى . فإن الآية جاءت لبطلان زعم النصارى ، ولك أن تقول : إنهم قالوا : إن المسيح ابن الله لأنه أحيا العازر بعد موته ، وأبرأ من المرضى كثيرين من بنى إسرائيل ، وخلق من الطين طيرا ، وأخبر بالغيبيات ، وبذلك حكم بأنه ابن الله تعالى . وهذا باطل أيضا ، لأن النصارى يعتقدون أن جبريل عليه السلام رفع مدائن قوم لوط بريشة من جناحه ، وأن موسى عليه السلام فلق البحر الأحمر بعصاه حتى صار يبسا ، وأن عزيرا مات مائة سنه وأحياه الله ، وأن أصحاب الكهف ماتوا ثلاثمائة سنة وتسعا وأحياهم الله ، ويعتقدون أن سليمان صَّرفه الله فى الجن والإنس والطير والوحوش ، وليست هذه الآية الشريفة دالة على تفضيل الملائكة ، لأن المؤمن يوم القيامة تخدمه الملائكة فى الجنة ، وقد خدمت المؤمنين فى الدنيا فى يوم أحد ويوم بدر .

وإذا تقرر هذا ، فالمؤمن الكامل أقرب عند الله من المَلَك المقرَّب ، وذلك لأن الملائكة فطرهم الله على الخير فهم أجسام نورانية بريئة من المادة ولوازمها ، والإنسان مكون من العناصر المتضادة ،وهو مكلف بمجاهدة نفسه فى ذات الله ، وشتان بين المفطور والمكلف ، قال الله تعالى : ﴿فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] فقول المعتزلة : الملائكة أفضل من الرسل ، لا حجة لهم على ذلك .

﴿ وَمَن يَستَنكِف عَن عِبَادَتِهِ وَ يَستَكبِر فَسَيَحشُرُهُم إِلَيهِ جَمِيعاً ﴾ أى : ومن يأنف أو يمتنع لجهله بنفسه أو لغروره بما آتاه من نعمته ؛ فسيذلهم ويقهرهم بالموت ، ثم يحييهم بعد ذلك ويحشرهم إليه جل جلاله عبيدا أذلاء مقهورين ، ويلقى بهم فى جهنم وبئس المهاد .

قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أما الذين آمنوا بمحمد ، وانعقدت قلوبهم على التصديق بما جاء به ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : سارعوا إلى القيام بعمل ما أمرهم الله به ، وترك ما نهاهم عنه ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أى : يعطيهم ما وعدهم به سبحانه عطاء وافيا ، الحسنة بعشر أمثالها إلى ألفين وأكثر ، كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء ﴾[3].

﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ والزيادة هنا تبتدىء من مقعد عند مليك مقتدر ، إلى الجلوس على منابر من نور قدَّام عرش الرحمن حتى ينتهى إلى الرضوان الأكبر ،

١- سورة النساء آية ٩٥.

٢- سورة العنكبوت آية ٦٩.

٣- سورة البقرة آية ٢٦١.

فالنظر إلى وجه الله تعالى ، تلك هى الزيادة ، وما فوق ذلك فوق الإشارة فكيف تفى به العبارة ؟.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ ﴾ أى : امتنعوا واحتشموا عن عبادة الله تعالى ﴿ وَاسْتَكْبَرُواْ ﴾ أى : عظمت عليهم أنفسهم أن يكونوا عبيدا لله ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا ﴾ أى : يذيقهم آلام العذاب التى تجعلهم بشدة آلامها يتحققون بآلام استنكاف العبودية لله تعالى ، حيث لا ينفعهم الإيمان ، ولم يبق إلا أنهم يطمعون فى شفيع أو ظهير أو نصير ، فقهرهم الله وأخزاهم بقوله : ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ أى : أنهم يعدمون الولى الذى يغيثهم وينجيهم مما أوقعهم فيه كفرهم بالله ورسوله ، والنصير الذى ينصرهم ويأخذ بيدهم من هول ما هم فيه ، لأن الملك لله يوم القيامة لا شريك له ، وكل من فى يوم القيامة عبيد لله مقهورون ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، بخلاف يوم الدنيا ، فإن الإنسان الجاهل بنفسه يتوهم بأن الملك أو الوالى أو الغنى أو الأمير ينفعه لجهله بنفسه ، ولو عرف نفسه لعلم أن الله هو النافع ، ولكنه سبحانه وتعالى أقام الأسباب والأواسط لتتعرف القلوب بها توحيد الله تعالى وتفريده بالألوهية جل جلاله ، لا لتقف عند الأسباب .

قوله تعالى : يَأَيُّهَا آلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرهَنُ مِنّ رَّبِّكُمۡ وَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُوراً مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

افتتح هذه الآية بقوله : ﴿ يَأَيُّهَا آلنَّاسُ ﴾ نداء لجميع أهل الملل والنحل من يهودٍ ونصارى ومجوس وغيرهم ، ثم يقول : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بُرهَنُ مِنّ رَّبِّكُمۡ ﴾ والبرهان هنا هو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأنه جاءهم من عند الله مبينا لهم ﴿ ﷺ وآله﴾ سبل الله بالحجة كما تبين الشمس سبل الأرض ، فهو ﴿ ﷺ وآله﴾ حجة

القلوب التى عمرها الله تعالى بسابقة الحسنى ، بل هو ﴿ ﷺ وآله﴾ السراج الذى أسرج الله به قلوب أهل الإيمان ، فهو فوق الشمس ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنـــه أســـرج سرجا كثيرة ، والشمس لا يتكون منها شموس . وفى قوله تعالى : ﴿ بُرهَـــانٌ ﴾ دليل على أن دينه دين الفطرة لأن العقل هَشَّ له وبشَّ ، وسلم بما جاء بــــه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلم يقهر العقل على التسليم بدون حجة واضحة . والقرآن المجيد دعـــوة وحجة ، لأن القرآن العظيم أعجز فطاحل الفصحاء ، حتى ثبت لـــديهم صـــدق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأن ما جاء به هو الحق اليقين ، وأما الرسل قبله عليـــه وعليهم الصلاة والسلام فإنهم جاءوا بمعجزات يقهرون بها العقول على التسليم لهم بما أيدهم الله به فلق البحر أو إحياء الموتى أو غير ذلك مما ليس من الدعوة فى شيء ، وقد نسخ الله كل هذه الأديان ببعثة حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بإكمال دينـــه وإتمـــام النعمة علينا جميعا ، وجعله ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الأنبياء ، ورحمة لجميع العـــالمين ، وكان الرسل قبله إذا مات واحد منهم نسخ شرعه ، لأن الدعوة فى أديانهم غـــير الحجة ، ودليل ذلك ما نرى عليه أهل الأديان الأخرى من أهل الكتاب ، ومعنى : ﴿ يأَيُّهَا آلنَّاسُ ﴾ قد تقدم بيانه .

﴿ وَأنزَلنَا إِلَيكُم نُوراً مُّبِيناً ﴾ والنور المبين هو القرآن المجيد ، لأن القـــرآن المجيد بيَّن لأهل سابقة الحسنى العقيدة التى يجب أن يعقد عليها القلب ، ولا نجـــاة للمسلم إلا بتلقيها من القرآن ، ومن تلقى العقيدة من غير القرآن ولم يجعل القرآن حجته يُقْبَلُ منه ما تعلمه من العقيدة إن وافقته ، ويُرَدُّ ما تعلمه مـــن العقيـــدة إن خالفته ، كم قال أبو هريرة رضى الله عنه : كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن ، ثم نتعلم القرآن ، فما وافق القرآن أثبتناه ، وما خالفه تركناه ، وأنتم الآن تتعلمون القـــرآن قبل الإيمان ، ثم تتعلمون الإيمان فتقبلون من القرآن ما وافق الإيمان الذى تعلمتموه وتردون منه ما خالفه ، فيكون ما تعلمتموه من الإيمان حجة على القرآن .

وهذا ما عليه المجتمع الإسلامى الآن ، فإنهم فى معاهد العلم يتعلمون القرآن صغارا ، ثم يقررون الإيمان الذى هو العقيدة بأدلة المنطق غير مبالين بما ورد فى القرآن ، وإذا عارض إيمانهم القرآن أوَّلوا القرآن تأويلا بالهوى مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إِلاَّ آللهُ ﴾ أما قوله تعالى : ﴿ وَآلرَّاسِخُونَ فِى آلعِلمِ ﴾ فهو مبتدأ ، الجملة من ﴿ يَقُولُونَ ﴾ خبر ، وهما جملتان بينهما شبه كمال الانفصال .

وبين لنا العبادة الحقة التى يقبلها الله من العبد ، وهو لا يقبل عبادة لم تكن وردت فى القرآن ، فما يعلمه الجهلاء أهل الطريق من الطقوس والرسوم التى ابتدعوها مع إهمالهم فرائض الله وشعب الإيمان فهو بدعة ضلالة ، دعا إليها ترغيب العامة لسلب ما فى أيديهم ، والهوى أخو العمى .

قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ﴾ أى : صدقوا بتوحيد الله وتفريده جل جلاله بالكمال والجمال والجلال ، وبما جاءهم به محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ من عبده تعالى ، لا فرق بين أن يكون المؤمن بذلك من مشركى العرب ، أو من اليهود والنصارى ، أو من المجوس وغيرهم ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قوله تعالى :﴿ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ ﴾ أى : اعتصموا بالقرآن الكريم اقتداء وعملا ، موجهين وجوههم إلى الله تعالى ، محافظين على تأدية ما أمرهم الله به تعالى ، وترك ما نهى عنه سبحانه .

﴿ فَسَيُدخِلُهُم ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط ، وسَيُدخِلُهُم أى : يوم القيامة ﴿ فِى رَحمهٍ مِّنهُ ﴾ أى : فى جنة عالية ﴿ وَفَضلٍ ﴾ أى : ونعيم مقيم . وفى قوله : ﴿ منهُ ﴾ إشارة إلى أن هذه الرحمة فضل يتفضل به سبحانه من حضرته العلية على مَن وصفهم بأنهم آمنوا به سبحانه وتعالى واعتصموا بكتابه وهذه الرحمة

والفضل بإحسانه العلى لأجسامهم ﴿ وَيَهدِيهِم إِلَيهِ صِراطاً مستَقِيماً ﴾ هذه الآية تشير إلى ما يتفضل به سبحانه وتعالى عليهم من خيرات الأرواح ونعيمها وبهجتها ومسراتها من مواجهات ومن رضوان أكبر ، ومن نظر إلى وجهه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعلَمُ نَفسٌ مَّآ أُخفِيَ لَهُم ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرةٌ إِلَى رَبِّهاَ نَاظِرَةٌ ﴾[2].

جمع الله تعالى فى قوله: ﴿ فِى رَحمَةٍ مِّنهُ وَفَضلٍ ٠٠٠﴾ الآية، جميع ملاذ الجسم والحس والعقل. وأما الرحمة والفضل فهى الطيبات للأجسام، واللذة والمشتهيات للحس والعقل، والهداية إليه جل جلاله من بهجة ومسرات الأرواح. وهذا النعيم المقيم قد يناله أولياؤه تعالى فى الدنيا بعد مَوْتَةِ الإرادة، عندما تضمحل وتتضاءل الطيبات البهيمية والبشرية والسبعية، ويقوى سلطان الروح، وينفذ السالك من أقطار السموات والأرض مسارعا إلى مغفرة من ربه وإلى جنة عرضها السموات والأرض. فإن السالك إذا مات موته الإرادة فقد قامت قيامته، ودخل جنة الشهود فى روح اليقين وريحان الأنس ، بما يريه الله تعالى من أنوار آياته فى الآفاق وفى نفسه حتى يتبين له الحق ، فإذا أحياء الله بعد موته ؛ وأبقاه بعد فنائه ؛ أدخله جنة الرضوان عنه ، وأقامه فى محابه ومراضيه ، وجعله من أهل الذكر الأكبر، وجعل له نورا يمشى به فى الناس ، فيكون جسمه على التراب يمشى بين الناس ، وقلبه بالملأ الأعلى ؛ حتى يخفى عنه الكون فلا يرى حيث ولى وجهه إلا وجه الله تعالى .

١- سورة السجدة آية ١٧.

٢- سورة القيامة آية ٢٢-٢٣.

قوله تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ ﴾ سبق الكلام فى آية الكلالة المتقدمة فى أول هذه السورة، وبينا أن الكلالة هى من يكلل الإنسان فى نسبه غير والديه وأولاده . فالذى يُورَثُ كلالة هو الميت الذى لا أب له ولا أم ولا أولاد ولكنه يورث أخوته وإخوته، وسبب نزول هذه الآية أن جابر بن عبد الله مرض فزاره رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومعه أبو بكر رضوان الله تعالى عليه، ففتش على جابر رضى الله عنه، فتوضأ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ورش وضوءه على وجهه فأفاق فقال : رسول الله إنه ليس لى أولاد ويرثنى إخوتى ، فهل أوصى ؟ فقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (أنا لا أراك تموت فى هذا المرض يا جابر) فأنزل الله تعالى :﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ﴾ .

ومعنى الآية الشريفة : يسألونك عن الحكم فى الكلالة ، أى : فى حكم من مات وليس له أولاد ، والاستفتاء سؤال المتعلم الذى يريد أن يعمل بالعلم ﴿ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الله يجيبهم عن سؤالهم الذى استفتوك فيه ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ (إن) هنا شرطية و ﴿ امْرُؤٌ ﴾ فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير إن هلك امرؤ أى : مات ، والحال أنه له أختا باقية بعده فلها نصف ما ترك ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، و : لَهَا نِصفُ مَا تَرَكَ ، أى : ما تركه من المال وغيره بعد دفع الدين والوصية ، وهذه الآية فى الأخت الشقيقة .

﴿ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ الله سبحانه بين حكمه فى الأخت التى ترث أخاها كلالة أنها إذا ماتت وليس لها ولد فإن أخاها يرثها كلالة ، وله كل مالها إذا كان أخاها الشقيق أو لأب :﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أى : أن الميت إذا مات وترك أختين شقيقتين فحكمهما فى الميراث أن كل واحدة منهما تأخذ ثلث ما تركه الميت بشرط أن تكونا شقيقتين أو لأب وكذلك الأخوات لا يزدن عن الثلثين مهما كان العدد .

﴿ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ بين الله تعالى فى هذه الآية حكم ما زاد على البنت والبنتين بأن كانوا أكثر من ذلك، فإنهم يقتسمون ما فرضه الله، للذكر جزآن وللمرأة جزء. وقد بينت حكمة اختصاص الرجال بأن يكون للواحد منهم قدر ما للمرأة مرتين بما أغنى عن إعادته [١]

﴿ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلمكم الله أحكام الميراث مبينا لكم ما يحبه سبحانه وتعالى ، وما به إصلاح حالكم فى صلة رحمكم ، وبر والديكم ، وبقاء عروة الإخاء الإسلامى وثيقة مع دوام الصفا لأخذ كل واحد حقه المشروع له ، ومن يتفضل على أخيه فذلك مما يقرب إلى الله ويرفع قدر المتفضل ، ومن طمع فى أكل مال الميت وحرم منه مستحقيه استحق غضب الله تعالى وخصوصا إذا كان المستحق يتيما ، قال تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ آللهُ لَكُم أن تَضِلُّوا ..﴾ الآية أى : يوضح لكم أحكام المواريث بكل أنواعها بيانا جليا تنالون به الهداية إلى ربكم ودوام إصلاح حالكم ومستقبلكم . وقوله : ﴿ أَن تَضِلُّوا ﴾ أى : لئلا تضلوا ، فيكون هذا البيان عاصما لأهل الإيمان بالله عن الهلاك بمخالفة أمره سبحانه وتعالى ﴿ وَ آللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : عليم بكل شىء مما عليه

١- راجع (أسرار القرآن) الجزء الرابع ص ١٤٣.

أهل التقوى القائمين بتأدية فرائض الله وطاعته ، وما عليه أهل المعاصى المنـــافقون والكفار ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى : ذو علم أحاط بخفى الأشـــياء وظاهرهـــا ، وصـــغيرها وعظيمها .

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

سورةُ المَائِدَة

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى ينادى الذين صدقوه سبحانه فيما أنزله على حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقبلوا ما جاءهم به صلوات الله وسلامه عليه بيقين كامل ، حتى صارت شعب الإيمـــان معقـــودة بقلوبهم كعقد الحبل مع الآخر ، لأن الله سبحانه سماها عقوداً ، والعقد هو ربـــط شيء بشيء ربطا وثيقا محكما ، وقد سماه الله عقدا مرة ، وعهدا مرة أخرى ، قال تعالى ﴿ وَأَوفُوا بِعَهدِ آللهِ إِذَا عَاهَدتُم ﴾[1] وتلك العقود جامعة لكل شعب الإيمان من التصديق بوحدانية الله تعالى ، وتتريهه عن المثيل والـــنظير والولـــد والوالـــد والشريك تتره و تعالى ، وبأنه جل جلاله مسمى بتسعة وتسعين اسما انفرد بها دون غيره ، وأن تلك الأسماء المقدسة ، أشرقت أنوارها على قلوب أهل الإيمان الكامل بما أظهره جل جلاله من عجائب قدرته وغرائب حكمته المنبلجة أنوارها فى الآيات المكنونات ، وفى خواص حقائقها ، وفيما نراه فى أنفسنا وفى الآفاق ، فلكل مؤمن قسط من تلك الآيات والبراهين بحسب مقامه فى مراتب الإيمان . فإن من المؤمنين من يسلم تسليما بالخبر إذا ورد عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بطريـــق الصـــحة ، ومنهم من يفقه الخبر بقدر عمله ، ومنهم من يتذوق حلاوة الخبر بقـــدر يقينـــه ، ومنهم من يقوى هذا الوجدان عنده حتى كأنه يشهد أنوار الأسماء متجلية تحجب

١- سورة النحل آية ٩١.

ما عداها من المظاهر التى بها شهد هذا المؤمن ، قال تعالى : ﴿ هُم دَرَجَاتٌ عِنــد آللهِ ﴾[1] وقال : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعلُومٌ ﴾[2] وقال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (مــا فَضَلَكُم أبو بكرٍ بصومٍ ولا صلاةٍ ، ولكنه فَضَلَكم بسِّرٍ وَقَرَ فِى صدرِهِ) وورد عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه قال : إن فلاناً (مُلىءَ إيماناً إلى مشاشِهِ) ... وقــال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذاَ وُزِنَ إيمان أبى بكرٍ بإيمانِ أمتى لَرَجَحَ) .

أوفوا — أوفى — ووفى بمعنى ، والمعنى سارعوا إلى القيام بعمل ما أمــرتكم به، وترك ما نهيتكم عنه ، وهى التكاليف . وإننا بتصديقنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تعهدنا لله ولرسوله بالقيام بما عاهدنا عليه سبحانه ، فالعقود هى التكاليف . وقال بعض العلماء : والعقود هى حلف الجاهلية على التناصر ودفع الضر والتعاون على فعل الفضائل ، وقد سأل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن الحلف : فقال رســول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لعلكَ تعنى حِلْفَ الفضول ، فقال الرجل : نعم ، فقــال ﴿ ﷺ وآله﴾ : مازاده الإسلام إلا شدة) وتكون المعنى: أوفوا بالعقود التى عاقدتم عليها غيركم قبل الإسلام. ولكن ورد فى هذا الحديث أنه حلف فى الإسلام، ومعنى ذلك أن القرآن المجيد بين لنا ما بالعمل به يدوم الصفاء والإصلاح ،حتى لا نحتــاج إلى حلف بعد العمل بالقرآن فيما بيننا وبين بعضنا ، ولا بيننا وبين الأمم الأخــرى ، فإذا نحن حافظنا على العمل بالقرآن مكن الله لنا فى الأرض بــالحق ، وأذل لنــا جبابرة الأمم ومحى بنا تيجانها . قال أبو هريرة رضى الله عنه : (إنها يسعدُ آخِــرُ هذه الأمة بما سعدَ به أوَّلُهَا) وإنما سعد أولها بالتمسك بالكتاب والسنة والأخــذ بعزائمهما فى أعمالهم .

١- سورة آل عمران آية ١٦٣.

٢- سورة الصافات آية ١٦٤.

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ لأهل القلـــوب علـــم خاص يفقهون به اتساق الآيات مع بعضها ، فإن الله تنزه وتعالى يضع غـــوامض الأسرار مستورة بين الأحكام ، حتى يحفظ أسراره من أن يتلقاها إلا أهلها ،وترى أكثر العلماء المشغولين بفهم الأحكام وبيانها لصالح الأمة ، إذا وجدوا جوهرة بين آيات الأحكام ؛ صرفوا كل قواهم الفكرية فى فقه آيات الأحكام كما فى هـــذه الآية ، إِنَّ آللهَ تعالى يكلف أهل محبته بالوفاء بعقوده التى عاقدهم عليها ، ﴿ أَلَستُ بِرَبِّكُم ﴾[1] وما قبلها فى ميثاق الأنبياء ،وما بعد ذلك مما عاهد عليه الرسل عليهم السلام .

فأهل القلوب إذا قرأوا هذه الآية تفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم ، حتى يتمثلون تلك العقود من أولها إلى آخرها ، فيقوى اليقين حتى تقع العين على العين من غير بين ولا أين ، أو يقوى الشوق إلى العلم بأسرار تلك العقود وحكمهـــا . وأما أهل العلم بظاهر الحياة الدنيا فإنهم إذا سمعوا ﴿ أُحِلَّت لَكُم بَهِيمَةَ آلأنعَامِ ﴾ اشتغلوا فى فهم بهيمة الأنعام ، وفى عدد أنواعها ليقصدهم العامة فى بيان أحكام الله تعالى حلالها وحرامها. قوله : ﴿ أُحِلَّت لَكُم بَهِيمَةَ آلأنعَامِ ﴾ أى : أحل الله لكم أكل لحوم بهيمة الأنعام بعد تذكيتها شرعا كما بين ذلك فى آخر الآية ، وسميـــت الأنعام أنعاما لنعومة قدمها على الأرض ، بخلاف الحيوانات التى لها حوافر كالخيل والبغال والحمير وما أشبهها ، والأنعام ثمانيـــة أزواج ، وهـــى : الإبـــل والبقـــر والجواميس والغنم والمعز والظبى والبقر الوحشى وكل حيوان ليست له أنياب يأكل بها اللحم ، وما وجد فى بطونها بعد تذكيتها من أولادها . والبهيم وكل ما لا عقل له ، فإن جميع الحيوانات مكونة من عقل وشهوة ، فكل نوع له عقل وشهوة فهو الإنسان ، وكل حيوان لا عقل له وله شهوة فهو البـــهيم ، والإضـــافة فى قولـــه

١- سورة الأعراف آية ١٧٢.

﴿ بَهِيمَةُ الأنعَامِ ﴾ للبيان تقول : باب خشب ، أى : باب من الخشب . حتى يخرج ما حرمه الله تعالى من أنواع الوحوش وغيرها ، وما هو نجس العين كالخنزير وفصيلته . ﴿ إِلاَّ مَا يُتلَى عَلَيكُم﴾ فى آخر هذه الآية مما حرمه علينا جل جلاله ، وقد بين أنواعه حتى صار الحلال بينا والحرام بينا كما أخبرنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ غَيرَ مُحِلّى الصَّيدِ وَأنتُم حَرُمٌ ﴾ هذا الحكم تحريم لشأن خاص فى وقت خاص لما أحله الله تعالى فى غيرها ، وموضعه التقديم ، فيكون النظم : أحلت لكم بهيمة الأنعام غير محلى الصيد وأنتم حرم . تقدم على الآية ﴿ إِلاَّ مَايُتلَى عَلَيكُم ﴾ لحكمة ، ليتصل ما حرمه الله بما أحله اتصالا يميز كل نوع . فحرم الله على المحرم صيد البر لا البحر لأنه تجرد من المحيط والمخيط ظاهرا ، وتجرد من صفات القهر والجبروت والقوة والمضرة باطنا ، لأنه خرج متجملا بأكمل معانى العبودية فى العبادة اتباعا لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وإيمانا بكلام الله تعالى . ومعنى قوله تعالى: ﴿ غَيرَ مُحِلّى آلصَّيدِ وَأنتُم حُرُمٌ ﴾ أى : لا يجوز لكم حالة إحرامكم أن تصطادوا ما أحله الله لكم من أنواع الأنعام كالظباء والرئال (بقر الوحش) وغيرهما من المجترات التى لا تأكل اللحم .

ولنا فى غير أيام الإحرام أن نصطاد ما أحله الله لنا من أنواع الحيوانات كالطيور وغيرها ، وسنبين حكمة تحريم صيد البر للمحرم عند تفسير آية التحريم . وللمحرم أن يأكل اللحوم كلها حتى لحوم الصيد إذا صادها غير المحرم ، إلا إذا صادها ليبيعها على المحرمين خاصة حال قدومهم على مكة ، فإنه إن صادها لهم خاصة كانوا كأنهم اصطادوها بأنفسهم ، أما إذا اصطادها غير المحرم لنفسه من غير أن يشجعه على ذلك قدوم المحرمين فإنها حلال للمحرم . و (غَيرَ) هنا حال من قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّت لَكُم ﴾ .

﴿ إِنَّ آللهَ يَحكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ لما بين الله تعالى أنه أحل الأنعام وأحل صيدها، ثم حرم الصيد فى شأن خاص ، فربما يظن متوهم أن إحلال الشيء وتحريمه يقتضى حيرة العقل ، فقهر الله تلك الظنون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ آللهَ يَحكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يعنى أن الملك ملكه ، وهو الذى أوجد الخلق من العدم ، فله عليهم سلطان الربوبية فى الإحلال والتحريم من غير علة ولا سبب ، وعليهم السمع والطاعة بمقتضى العبودية التى يجب أن تكون مسلمة تسليما كاملا لأحكام الربوبية ، وإن قال بعضهم : إن حكمة الأحكام رعاية مصالح الخلق من غير حجة تقوم على ذلك، قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ آلقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ ﴾[1] . فالعبد عبد وإن صرّفه الله فى ملكه وملكوته ، مقهور ولو أجلسه فوق العرش ، والرب تبارك وتعالى هو العلى العظيم وإن تترل فقرَّب طينةً سافلة ورفعها حتى جعلها صورة له سبحانه ، وأسجد لها ملائكته ، وأقامها خليفة عنه ، وسخر لها ما فى السموات وما فى الأرض ، فإنما هو مقتدر ، وإرادته وفضله وإحسانه أسبغت على هذه الطينة ، والطينة لا تستحق شيئا من ذلك إلا بفضل الله وإحسانه . قوله جل جلاله : ﴿ إِنَّ آللهَ يَحكُمُ ﴾ أى : يقضى ويتصرف ، قال تعالى : ﴿ إِنِ آلحُكمُ إِلاَّ للهِ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكمِهِ ﴾[3] وهو سبحانه وتعالى الذى قدر كل شيء وأبرزه فى قدره فى آناته وأمكنته .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن

١- سورة الأنعام آية ١٨.

٢- سورة الأنعام آية ٥٧.

٣- سورة الرعد آية ٤١.

تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّــهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَــدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ كما أحل لنا بهيمة الأنعام ، وأحل لنا الصيد إلا فى مكان مخصوص ووقت مخصوص وهو وقت الإحرام ومكان الحرم ، نهانا عما يكره سبحانه وقوع فعله منا قال تعالى : ﴿ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ ﴾ ينهانا سبحانه عن أن نحل ما حرمه علينا وهو شعائر الله تعالى ، والشعائر جمع شعيرة ، والشعيرة مأخوذة من الشعور ، والشعائر هى فرائض الله التى كلفنا بها ؛ وما سنه لنا ورغبنا فبه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإحلال شعائر الله هى ترك العمل بفرائضه والوقــوع فيما نهى عنه ، مفصلا ذلك كله فى كتابه العزيز ، وفىبيان نبيــه ﴿ ﷺ وآلــه﴾ بالقول والعمل والحلال ، وفى الأحكام التى شرعها لنا ، أو نهانا عن عملها .

ويدخل فى هذه الآية كل ما أمرنا به وما نهانا عنه ، ويكون علــى هــذا التأويل ذكر الشهر الحرام والهدى والقلائد وأمّين البيت من ذكر الخاص بعد العام، كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوات وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾[1] ، وقــد تــأول البعض هذه الآية : أن مشركى العرب كانوا يحجون البيت الحرام ومعهم الهــدى والقلائد وما كان من شعائر الحج، وكان بعض الصحابة يرون أن يغزوهم فى هذا الحال وذلك قبل نزول آية براءة فأنزل الله تعالى : ﴿ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ ﴾ أى : لا تغزوا الحجاج من المشركين وعظموا الشهر الحرام والهدى والقلائد وآمين البيت الحرام ، وهذا التأويل يمنعه قوله تعالى : ﴿ شَعَآئِرَ آللَّهِ ﴾ فإن ما كان يعمله أهــل

١- سورة البقرة آية ٢٣٨.

الجاهلية مما لا يوافق عمل الخليل عليه السلام ليس بشعائر الله ، ولكنها أعمال الجاهلية ممزوجة بما كان عليه الخليل من الطواف بالكعبة ومن الوقوف ومن الإفاضة ، وما عدا ذلك فليس مما كان عليه الخليل فى شىء ، وقوله تعالى : ﴿ شَعَآئِرَ آللَّهِ ﴾ يدل بها على أن تلك الشعائر هى ما فرضها الله تعالى وأضافها إلى نفسه .

﴿ وَ لاَ الشَّهرَ الحَرامَ ﴾ أى : لا تحلوا ما حرمه الله عليكم فى الشهر الحرام إذا كنتم حجاجا أو عمارا ، ويراد بالشهر الحرام رجب والقعدة والحجة والمحرم ، وشهر رجب كان معظما فى الجاهلية وكانوا يسمونه رجب الأصم ، لأنهم كانوا لا يسمعون فيه قعقعة السلاح ، فكان العربى يرى قاتل أبيه وابنه فينسى الثأر تعظيما للشهر . ويجوز أن يكون هذا النهى متضمنا معنى احترام المسلمين للحجاج والعمار من أهل الجاهلية فى شهر رجب ، ويمنع من فهم التأويل الثانى عطف الشهر الحرام وما بعده على الشعائر ، لأن المعطوف غير المعطوف عليه أو بعضه ، وعلى ذلك فتكون شعائر الله عامة ، ولا تكون الشعائر المضافة إلى الله عامة إلا إذا شملت ما أمر به ونهى عنه أمرا ونهيا ، فيكون التأويل الأول أقرب إلى فهم الآية .

﴿ وَلاَ الهَدىَ ﴾ هى الذبائح التى يقدمها الحاج والمعتمر ليذبحها فى محالها أو ينحرها ، والهدى مأخوذ من الهدية ، وكلمة هدى جمع واحد هدية بالتخفيف والتشديد .

﴿ وَلاَ الْقَلاَئِدَ ﴾والقلائد جمع قلادة ، وهى ما يعلق على الهدى إشعاراً بأنه – أى الهدى – مساق إلى بيت الله الحرام ، فإذا قلده المحرم سمى قلائد ، وكانوا فى الجاهلية يقلدون الهدى بِلِحَى شجر السمر من أشجار الحرم . ﴿ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ أى : قاصدين البيت الحرام للحج أو العمرة ، لا فرق بين

المسلم والمشرك قبل نزول آية براءة ، ويكون هذا النهى خاصا بالمسلمين بعد نزول الآية ، لأن آية براءة حرمت على المسلمين أن يمكنوا المشركين من دخول المسجد الحرام .

وقد بينت لك ما تأوله العلماء فى هذه الآية من أن النهى موجه للمسلمين بمنعهم عن التعرض للمشركين الذى يقصدون الحج أو العمرة وذلك قبل نزول آية براءة ، ويكون المعنى عند من تأويل : لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام من غير أهل الإسلام . وقد بينت لك وجه تأويلها الأول ووجوه الحجة فيه ، والله أعلم بمراده .

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ هذه الآية الشريفة يدل ظاهرها أن المنهى عنه من شعائر الله هى أحكامه وتكاليفه ، ومن الهدى والقلائد وآمين البيت أى : الهدى والقلائد التى يقدمها أهل الإيمان وآمّين البيت الحرام من أهل الإيمان لأن الذين يبتغون فضلا من الله ورضوانا هم المؤمنون حقا ، وإن تأولها كثير من العلماء أن الفضل هو الربح فى التجارة التى كان يقوم بها المشركون ، وأن الرضوان من الله بحسب عقيدتهم بأنهم عل حق ، وأن عملهم ، يُرضى الله ورسوله أو أنهم بسبب نواياهم يوفقهم الله للإيمان ، وظاهر القرآن فى هذه الآية يجعل القارىء الممنوح الفهم يدرك أن الخطاب لأهل الإيمان فى النهى والمنهى عنه .

﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ ﴾ بعد أن بين لنا ما حرمه علينا من الصيد ، وضَّح ما أحله لنا بعد الإحلال فقال تعالى : (وَإِذاَ حَلَلتُم) أى : أديتم المناسك فى أمكنتها وأوقاتها كاملة ، وأحل الله لكم لبس المخيط والمحيط وفعل ما كان محرما عليكم ، فاصطادوا ، فإن الحكم لله تعالى ، لا يُسأل عما يفعل من تحليل أو تحريم أو إباحة أو حظر .

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ لا يكسبنكم سوء فعل قوم الانتقام منهم ، ولا يحملنكم بغضهم لكم على العدوان عليهم ، نهانا الله تعالى عن أن تحمل قلوبُنا ضغينة بسبب شنآن أى : كراهية قوم بصدهم لنا عن المسجد الحرام فى واقعة الحديبية ، حين صدوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه عن دخول مكة . وجائز أن يكون هذا الصد يوم فتح مكة . وقد رويت الآية بفتح همزة (أن) وكسرها وهما روايتان صحيحتان ، وتأويل الآية على قراءة الكسر : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ﴾ أى : لا يحملنكم بغض قوم لكم ﴿ إن صَدُّكُم عَنِ آلَمسجِدِ آلحَرَامِ ﴾ أى : منعوكم عن دخول المسجد ، أن تتجاوزوا حدود الله التى حدها لكم ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجرِمنكُم ﴾ .

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ ومعنى هذه الآية أن الله يأمرنا أن يعين بعضنا بعضا على فعل الخير وعلى التقوى ، أى : ترك ما يغضب الحق ويضر الخلق، فإن فى ذلك حصول الألفة وقوة رابطة الإخاء ، ومحو الضغائن من القلوب حتى تزول الأحوال المانعة لها عن قبول الخير ، فإن القلوب إذ صفت من العلل والأغراض قبلت الحق وعملت به ، والتعاون على البر والتقوى خير علاج لأمراض القلوب .

﴿ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (الإِثْمِ) : هو ما حاك فى صدرك من سوء الظن ومن العزم على عمل المعاصى (وَالْعُدْوَانِ) : هو تعدى حدود ما أنزل الله تعالى بفعل ما يكرهه الله ويؤذى الخلق ، والتعاون على الإثم والعدوان برهان على خبث نفوس المتعاونين عليهما، ونزوعها إلى الباطل بعد بيان الحق جليا، فإن الإثم ترك ما أمر الله تعالى به أو فعل ما نهانا الله عنه . ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ يتوعد الله تعالى أعداءه الذين تعاونوا على الإثم والعدوان

وخالفوا أوامره ، وقوله : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : احذروا من الوقوع فى معاصى الله تعالى وخافوه سبحانه ، بعمل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه ، لأنه سبحانه ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : يعاقب من كفر به بالخلود فى نار جهنم ، حيث لا شفيع ولا نصير مع البقاء الأبدى فى الدرك الأسفل من النار ، أعاذنا الله تعالى بوجهه العلى من الأعمال والأقوال والأحوال التى توبقنا فى نار جهنم .

قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ معنى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ أُحِلَّت لَكُم بهيمةُ الأنعامِ إِلاَّ مَا يُتلى عَلَيْكُمْ ﴾ ... وفى هذه الآية تلا علينا سبحانه وتعالى ما حرمه علينا ، يقال : حَرُمَ الشىء امتنع ، وحُرِّم الشىء بالتشديد مَنْعُه أى : مَنْعٌ منه ، فمعنى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ أى : منعتم من أكلها أى : حرم الله على أهل الإسلام أكل الميتة ، والميتة كل ما أباح الله للمسلمين تذكيته بالنحر أو الذبح إذا ماتت قبل أن تذكى ، وحكمة تحريم الميتة التى ابتدأ الله ذكر المحرمات بها أن الموت قد يسبقه مرض يجعل اللحم رديئا ، خصوصا إذا حبس الدم فى الشرايين والأوردة ، أو تمزقت الشرايين فاختلط الدم باللحم ،والدم سريع التعفن فيفسد اللحم . وجائز أن يكون مرض البهيمة خبيثا ، وقد حرم الله الدم فى الكتاب العزيز وقال فى التوارة : (يا موسى لا تأكل الدم ، فإن الدم هو النفس).

وعلى فرض أن البهيمة سليمة من الأمراض فإن الدم الذى يسفك عند ذبحها ، يختلط بلحمها حال موتها بغير الذكاة ؛ فيصير اللحم نجسا ، قال الفقهاء بنجاسة ميتة كل ذى نفس سائلة الدم فجعلوا الدم نفسا .

﴿ وَالْدَّمُ ﴾ حرم الله الدم ، فمنع أهل الإسلام من أكله لحكم كثيرة ، منها أنه النفس وعنصر الحياة الذى يمر فى دورة القلب فيحيى كل الأعضاء ، ثم يرجع فيمر فى الرئتين فيطهر فيهما بالتنفس ، وبه حفظ الحياة الحيوانية ، ومحاربة الأمراض فى الجسم حتى يزيلها بحسب ما فيه من أنواع العناصر . والدم للطاقة ، وإذا أخذ من الجسم أضعفه وأفسد الدم بملامسة الهواء فصار كله حيوانات سامة ، ولم يحل من الدم إلا الكبد والطحال ، وقد حرم الله الدم لما فيه من النجاسة الطبيعية ، ولو أن الإنسان أكله وهضمته معدته فإنه يولد فى الجسم أخلاطا تفسد التوازن الإنسانى ، فيتولد الجنون والحماقة الوحشية .

﴿ وَلَحمُ الخِنزِيرِ ﴾ إن الله تعالى ما حرم شيئا إلا وحكم بنجاسته ذاتا ، والخنزير حيوان معروف ولم تظهر حكمة تحريمه للفقهاء ، إلا أنه حيوان قذر فى أكله وشربه وحياته ، لا يتغذى إلا بالنجاسات ، ولله تعالى حكم عالية فيما حرم وأحل ، فقد انكشفت حكمة تحريم الخنزير بعد أن ظهر فى لحمه دويدات صغيرة جدا أصغر من البعوض ، توضع فى النار الحارة جدا فتعيش فيها وفى غير لحومها ولا تموت تلك الدويدات عند طبخها ، والحيوانات الموجودة فى بطون الخنازير تحيا وتنمو فى المعدة وفى الأمعاء ، وقد يمتصها الدم لصغر حجمها ولسهولة امتصاصها مع العصارة الغذائية ، فيتولد منها ديدان فى الكبد وفى المجموع البولى والمنوى وغيرها من الأعضاء الباطنة ، وتسمم جسم من يأكل منها حتى يعيش فى ألم لا يبرأ منه ، لأنه خالف أمر أرحم الراحمين .

وقد ظهرت تلك الدويدات فى لحم الخنزير بتحليله ، لتنكشف حكمة هذا الحكم الذى أنزله الله تعالى منذ ألف وثلاثمائة وخمسين سنة [1] حيث كان من يسمعون القرآن من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يسلمونه تسليما .

وقد ثبتت المعجزة بأن القرآن كلام الله تعالى العليم بحقائق الأشياء ، الذى يجب علينا له سبحانه أن نسلم له أمره ونهيه ما علمنا حكمه ومالم نكن نعلم ، ونؤمن بخبره وعدا ووعيدا ، وبخبره تعالى هن الأزل والأبد ، فى معنى يجعلنا نتمثل الجنة والنار ، وما به يفوز العبد بالنعيم المقيم ، أو يشقى فى العذاب الأليم .

﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيرِ ٱللَّهِ بِهِ ﴾ الإهلال هو رفع الصوت ، ومعنى هذه الآية أن كل ذبيحة رفع الذابح صوته عند ذبحها بغير اسم الله تعالى كما يذبح باسم الأصنام أو الأنداد فإنها محرمة شرعا ، وحكمة تحريمها أن الآكل منها راض بالكفر وبالأعمال الخاصة بأهله ، وهذا الذبح مُنْكَر والواجب على كل مسلم أن يدفع المنكر حتى يقيم الحجة على أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، إيمانا بالله تعالى ، وعملا بما أنزله سبحانه ، ولو خُيِّرَ المضطر لأن يختار من أى ذبيحة من الذبائح المحرمة يأكل ، لاختار ذبيحة من غير ما أهل به لغير الله ؛ بغضا فى الكفر وفى عمل أهله .

﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ المنخنقة هى أن أهل الجاهلية كانوا يخنقون الشاة ويأكلونها ، فحرمها الله تعالى وحرم كل حيوان ضغط على عنقه حتى مات ، كما يضع الطير رأسه بين فرعين من فروع الشجر فيموت ، أو بأى عمل من الأعمال التى يكون فيها الخنق مؤديا إلى الموت ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ هى الحيوان الذى

١- كان ذلك حين إملاء الإمام المجّدد أبى العزائم عليه السلام لتفسير هذا الجزء من (أسرار القرآن) .

يضرب بخشبة أو بعصا حتى يموت ، ووقذهُ يعنى ضربه ضربا مميتا ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَـةُ ﴾ هى التى تتردى فى بئر أو تهوى من فوق سقف عال فتموت ﴿ وَٱلنَّطِيحَـةُ ﴾ أن ينطحها حيوان ، أو يتناطح حيوانان فيموت أحدهما أو يموتا معا ، ولو سال الدم المسفوح منها بجراح النطح ، لأن الدم المسفوح لا يترف جميعه من كل الجراح إلا من الودجين والحلقوم ، فيبقى منه ما يمتزج باللحم فيحرم لذلك .

وجائز أن يسفك جميع الدم ، ولكن تحريم النطيحة يكون بسبب تسمم اللحم بالانفعالات الشديدة ، فيكون اللحم ضارا بالأخلاق والآداب أو مسمما للجسم ، فإن شدة الغضب تفرز مادة سمية تجرى فى الدم وفى اللعاب ، وقد ثبت أن الحيوان بل والإنسان إذا غضب وكاد ينفخ من فمه وخرج من فمه لعاب مات من صادفه إذا وصل إلى جرح به .

﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أى : ما أكل كل حيوان مفترس ، ولكنه خص السبع هنا لأنه أجرأ الحيوانات المفترسة وهنا تكون المعنى : وما أكل السبع ما لم تدركوا ذكاته ، قوله : ﴿ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أى : إلا ما أدركتم ذكاته ، بأن لم تكن الحياة قد فارقته بأن حرك ذيله أو عينيه أو صاح بصوته مما يدل على أن الدم لم يمتزج باللحم ، ويمكن بذبحه أن يسيل ذلك الدم مسفوحا ، والاسثناء هنا يظهر أنه منقطع ، ويكون التأويل : حرم عليكم ما أهل لغير الله به إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ لكن ما أدركتم تذكيته فهو حلال لكم .

﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ ليست النصب هنا هى الأوثان ، إذ لو كانت كذلك لكان الكلام مكررا بعد قوله ﴿ وَمَآ أهلَّ لِغَيرِ آللهِ به ﴾ ولكنها أحجار كانت تنصب حول البيت الحرام يذبح عليها المشركون ذبائحهم ، ويلطخونها بدمائها تعظيما للأصنام ، حتى ورد أن بعض الصحابة قالوا : (يا رسول الله ، إن

بعض العرب كانوا يلطخون الكعبة بدماء الذبائح تعظيما لها أفنفعـــل مثلـــهم ؟) فأنزل الله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ وإن تأول بعض من فهم النصـــب أنهـــا الأوثان من قوله (عَلَى النُّصبِ) أن على بمعنى اللام — وهو بعيد — وجـــائز أن تكون نصب لسما مفردا ، أو يكون جمعا مفرده نصابة على وزن سحب ومفرده سحابة .

﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ﴾ الأزلام : جمع زلم وهى قداح الميسر ، وهى ثلاثة أوراق مكتوب على الأولى : أمرنى ربى أفعل ، والثانية : أمرنى ربى أتـــرك ، والثالثة : بيضاء . فإذا أراد أن يعمل عملا وضعها فى كيس ومد يـــده وأخـــرج واحدة منها ، فإن وجد افعل أمضاه ، وإن وجد لا تفعل ترك ، وإن وجد البيضاء أعاد الورق فى الكيس وهكذا ، وقد حكم الله على هذا العمل أنه فسق .

﴿ ذَلِكُم فِسقٌ ﴾ الإشارة تعود إلى ما تقدم من الأنواع التى حرمهـــا الله تعالى ابتداء من قوله : ﴿ حرمت عَلَيكُم ﴾ إلى : ﴿ وأن تَستَقسِمُوا ﴾ كل ذلك فسق ، والفسق هو الخروج عن الشىء ، يقال : فسقت الحية ، أى : خرجت من ثوبها . فالفسق هو الخروج ، والفقس هو الخروج أيضا ، لهذا يقال للدجاجـــة إذا خرج من بيضها الفراخ فقس البيض ، ويقال لِلحَيَّةِ إذا خرجت من ثوبها فســـقت أى : خرجت للضرر والأذية ، فكذلك كل خارج من الحق إلى الباطل فاســـق ، وهنا يظهر أن الاستقسام بالأزلام محرم ، لأنه حكم بعلم الغيب أو ظن بالغيـــب ، وإذا كان كذلك فإن الأخذ بالفأل أخذ بالطيرة ، أو بمـــا يعملـــه النـــاس مـــن الاستخارات على السبح أو أخذ الطالع لكشف الغيب ، أو بقوله بعض الملهمين ، أو الأمور المسماة بالقرعة أو الرمل أو الودع أو الفـــول أو النـــوى ممـــا يعملـــه المشعبذون محرم أيضا .

ولكنا نقول : إن الفأل الحسن كان يحبه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ، وقد نفى ﴿ﷺ وآله﴾ العدوى والطيرة والهامة لحكمة ، والحقيقة أن الله حرم الاستقسام بالأزلام لأنها كانت تضرب عند الأصنام ، وكانوا يعتقدون أن الأصنام هى التى تنفع وتضر وتعرف الناس الغيب بالاستقسام ، فحرم الله ذلك ، وأما ما عدا الاستقسام بالأزلام من الاستخارة الشرعية ، والفأل الحسن ، ومن طمأنينة القلب ، وما يخرجه الرمَّال أو صاحب الطوالع مع الاعتقاد بأن الله تعالى انفرد بالغيب وبالنفع والضر ، وبأنه سبحانه يلهم ما يشاء من يشاء ، فذلك ليس بمحرم ولا فسق فيه ، وغاية الأمر أن الذين يعتقدون به لا يبلغون أعلى مقامات التوحيد ، وقد ورد فى الحديث أن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرقون ولا يسترقون ، ولا يكرون ولا يستكرون وعلى ربهم يتوكلون ، ومعنى ذلك أنهم عن ربهم راضون .

﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ﴾ هذه الآية وما بعدها نزلت يوم الجمعة يوم عرفة ، ورسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى حجة الوداع ، وكانت حجة الوداع جامعة لكل من أسلم وليس فى مكة أحد من المشركين .

ومعنى الآية أن الله تعالى قهرهم وأذلهم وأيأسهم من أن ينالوا من الدين والمسلمين ما كانوا ينالونه قبل من أذية المسلمين، ومنعهم عن تأدية شعائر الدين ، وقهرهم عى أن يعملوا عمل الجاهلية ، حتى كان بعض المستضعفين من المسلمين قبل فتح مكة يظهرون الكفر بألسنتهم خشيه المشركين.

ولما أن أظهر الله دينه الحق ، وفتح رسوله مكة ، ونزلت آية براءة ، طهَّر الله حَرَمَهُ من أهل الشرك به سبحانه . ﴿ اليومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَروا مِن دِينكُم ﴾

أى: يئسوا أن ينالوا من دينكم ما كانوا ينالونه من الذم والتشنيع وقهر المسلمين على ألا يظهروا الشعائر .

﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ أى لا تخافوهم خوفا يزعج قلوبكم ويذل أجسامكم ، رهبة من أن يظهروا عليكم بعد أن أظهركم الله عليهم ، قوله : ﴿ وَاخْشَوْنِ ﴾ أى : وخافونى أن أُنزِلَ بكم عقابى لمخالفتكم أمرى ، وخشيتكم من أعدائى الذين قهرتهم قهرا جعلهم لكم أذلاء ، وليس المراد بقوله : (الْيَوْمَ) أنه يوم إنزال الآية الشريفة على النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أو قبلها ، بل المراد باليوم الآن .

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ لما نزلت هذه الآية فى يوم الجمعة يوم عرفة اجتمع للمسلمين أعياد كثيرة : عيد الأضحى ، وعيد هذه الآية ، وعيد طهارة الحرم من المشركين فى الحج ، وعيد فرح الصحابة بوجود رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين ظَهْرانَيْهِمْ وغير ذلك ، وعند نزولها ابتهج الصحابة وفرحوا فرحا عظيما ، وبكى أبو بكر فَعَجِب الناس منه ، فسألوه فقال : إن الله تعالى نعى إلينا رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ . وهل بعد الكمال إلا الفناء ؟ فإن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مات بعد واحد وتسعين يوما من نزولها فكان أبو بكر أعلم الناس بكلام الله تعالى .

ومعنى ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أى : أن الله تعالى بيّن محابّه ومراضيه كاملة مفصلة ، لأنه ختم الرسالة بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فصار العالم لا يحتاجون إلى أحكام تنزل من السماء إلى يوم القيامة ، ولم يكن الدين ناقصا ، بل إن الدين كامل ولو لم ينزل منه إلا بعض الأحكام ، لأن الدين أو الحكم الشرعى هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع ، والله جل جلاله

يترل من دينه بقدر استعداد عباده ، فكان الدين كاملا من يوم أنزل الله تعالى على حبيبه خاتم الأنبياء ﴿ آقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ (١) .

وكان سبحانه يمنح المزيد من الوحى للبيان والهداية حتى أكمل دينه ، ومن قال : إن هذه الآية الشريفة تمنع الأخذ بالقياس فهو قول مردود ، لأن الأحكام المأخوذة بالقياس – وهى استنباط المجتهدين الأحكام التفصيلية من كتاب الله – فهى من الدين الذى أكمله الله ، وليس القياس خارجا عن الدين .

قوله : ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ لما كان دين الله الحق هو النعمة العظمى، وإكمال الدين لنا هو إتمام النعمة علينا ، والنعمة هى أن يفوز المؤمن باللذة والسعادة الجامعتين لنعيم كل القوى الإنسانية من روح ونفس وعقل وجسم وحس نَيْلاً وإدراكا ، نيلاً يدوم أبديا لا ينتهى ، ولا يشوب هذا النَّيْل سلبٌ فتنقلب اللذة ألما والسعادة شقاء ، فينتقل من نعمة جامعة لأنواع المسرات الجسمانية والروحانية أو نعمة خاصة بالأشباح إلى نقم لا قبل للإنسان بها ، ولما كان كمال الدين هو تحصيل تلك المسرات وأعظم منها قال تعالى :﴿وَأَتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتِى ﴾التى هى النعمة الحقيقية من الله تعالى ، وقد أتمها سبحانه لنا فى الدنيا وفى الآخرة ، وأما النعمة التى أتمها علينا فهى أن هدانا صراطه المستقيم ، وبين لنا أسرار كتابه العظيم ، ثم منحنا أتم النعمة فى الدنيا وهى التمكين فى الأرض بالحق ، والعلو فيها على أهل الباطل ، وجعل لنا العزة وتنفيذ الكلمة ، وأقامنا عمالا له ننصره سبحانه ، ومنحنا العافية والقوة وسخر لنا كل شىء فى الملك والملكوت ، بل وسخر لنا غير المؤمنين من بنى الإنسان ، فجمع لنا بإكمال الدين نعمتى الأشباح والأرواح فى الدنيا قبل الآخرة ، ثم زادنا فى الدنيا خيرا فوق إتمام

١- سورة العلق آية ١.

النعمة الدنيوية ، وهو أنه أرانا جماله العلى الذى أغنانا عن الدنيا وما فيها من النعمة العظمى التى ذكرت لك بعض أنواعها مما تسارع إليه نفوس الأبرار ، فزهدنا فى الدنيا ، لازهد أهل المبادلة الذين يزهدون فى الدنيا للفوز فى الآخرة ، بل زُهْد من فر من الكون إلى المكوِّن ، ومن النعمة إلى المنعم .

وأما نعمة الله فى الآخرة ، فأولها أن يكون لنا ما نشاء عند ربنا ، وفوقه أن نكون فى مقعد صدق عنده ، قال تعالى : ﴿ فِى مقعِد صِدق عِندَ مَلِيكٍ مُّقتَدِرٍ﴾[1] وفوقه الرضوان الأكبر ، قال تعالى :﴿وَرِضوَانٌ مِّن آللَّهِ أكبَر ﴾[2] وفوق ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النظر إلى وجهه العلى العظيم ، قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يومَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3] وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ...﴾الآية . أى : الآن فى الدنيا تفضلت عليكم بإكمال الدين وإتمام النعمة كما بينت ، وهذا فى الكون المحدود والمعدود ، فكيف وقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إتمامُ النعمة الجنةُ) أسأل الله تعالى أن يكمل لنا دينه ، ويجعلنا أنصارا له جل جلاله كما جعل سلفنا الصالح آمين .

﴿ وَرَضيتُ لَكُمُ آلإسلاَمَ دِيناً ﴾ الرضا عن الشىء أو على الشىء لغتان صحيحتان ، وهو أن يختار الراضى الشىء لنفسه لكماله وجماله قبولا وحبا ، أو انتفاعا ومتعة . فَرِضَا الله تعالى الإسلام لنا دينا اختياره لنا الإسلام لجماله وكماله ولحب الله له ، كما نرضى بالجنة لنا من الله تعالى لجمالها ولا نتفاعنا بها ، فالرضا

١- سورة القمر آية ٥٥.

٢- سورة التوبة آية ٧٥.

٣- سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٣.

من الله تعالى اختيار منه سبحانه قبولاً وحبا ، والرضا منا عن الله تعالى اختيارنـــا قَدَرَه ولننتفع بسبب رضانا بِقَدَر الله تعالى بنيل رضوان الله الأكبر الذى هو فـــوق النظر إلى وجه الله تعالى ، وذلك لأنه وردَ فى الحديث قوله ﴿ ﷺ وآلــه﴾ : (إن الله يتجلى لنا يوم القيامة فنسأله الرضا عنا) وهذا الحديث أثبت أن التجلى يفيـــد النظر إلى وجهه تعالى ، فسؤالنا الرضا منه دليل على أن الرضا فوق النظر إلى وجهه العلى ، وذلك لأن الرضا يديم لنا النظر إلى وجهه تعالى .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَرَضيتُ لَكُم الإسلاَم دِيناً ﴾ أى : اخترت لكـــم الإسلام الذى هو الاستسلام والتسليم لكل ما جاءنا به محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ مـــن عند الله تعالى ، تسليما حقا يجذب قلوبنا وجوارحنا إلى السمع والرضـــا عنـــه لله تعالى ولرسوله ، ورضا الله تعالى لنا الإسلام دينا حجة من الله لنا بأن رَضِيَنَا لذاته العلية ، فثبت لنا الرضوان الأكبر من الله تعالى برضاه لنا الإسلام دينا ، وما رضى الله لنا الإسلام دينا إلا وفيه حبنا له ، والرضا ينتج الرضا ، والرضا أعلى مقامـــات اليقين . فإن كُمَّلَ الرجال وكُمَّلَ ورثتهم يفرون من الكونين إلى الله تعالى كما قال سبحانه :﴿فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] ليفوزوا برضوانه تعالى . ورضاه لنا الإسلام دينـــا لرضاه عنا ، لأنه تعالى وفقنا وأعاننا للقيام بالسمع والطاعة ، والمسارعة إلى تنفيذ ما أمرنا به عملا بقدر طاقتنا ، وترك ما نهانا عنه مطلقا ، لأن الله ما أمر بـــأمر إلا وشرط الاستطاعة ، وما نهى عن شىء إلا وأحب أن يتركه المكلف مطلقـــا ، ولم يرخص فى شىء من ذلك إلا إذا دعت الضرورة الفادحة ، كما بينـــت الشـــريعة المطهرة فى مواضع الرخص التى هى عزائم فى الحقيقة .

١- سورة الذاريات آية ٥٠.

والدين هو المذهب وما يدان به الإنسان، وهو الصراط المستقيم، والمنهج القويم، وهنا أبين للسالك فى مقام جهاده، وللواصل فى مقام شهوده، وللمتمكن فى مقام وجوده الحق، فأقول للسالك: كيف يرضى الله لك الإسلام ديناً وأنت تسلك لتصل إليه، وتخالفه فيما تقوى على إطاعته فيه ونيل رضاه ؟ وأقول للواصل: إنك فى مقام الإحسان تعبد الله كأنك تراه، فكيف ترضى أن يمن الله تعالى عليك بكشف الحجاب حتى كأنك تراه فى عبادتك وأنت تخالف دينه بالغفلة عنه سبحانه أو ميل قلب أو بتمن والتمنى باب الحجاب ؟ وأقول للمتمكن: كيف تشهد لنفسك الوجود الحق وأنت تلا بس مالا يليق بأهل الحق ؟ والله تعالى يرضى لنا الإسلام دينا، ونحن نظهر عدم الرضا به بمخالفتنا أحكامه ودينه.

﴿ فَمَن آضطُرَّ فى مَخمصَةٍ غَيرَ مُتَجَانِفٍ لإِثمٍ ﴾ لما أن بَيَّن سبحانه وتعالى ما حرمه بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَت عَلَيكُم الميتة ...﴾ الخ ؛ بين ما تبيح أكله الضرورة من تلك المحرمات ،وخصه لأهل الإيمان رحمة من الله تعالى بهم فقال سبحانه :﴿ فمنِ اضطُرَّ ﴾ أى : أحوجه الضرر الفادح بالجوع الذى لو دام لقتل الإنسان مبينا ذلك بقوله :﴿ فمنِ اضطُرَّ ﴾ أى : ألجأته الضرورة لوقوع الضرر به فى حالة ما إذا كان غير متجانف لإثم والمتجانف هو الذى يميل إلى ارتكاب المحرَّمِ طعما وشهوة وقصدا بها فى الوقوع فيما يخالف الشريعة . والمعنى أن من وقع فى المخمصة أى: المجاعة، لأن المخمصة ضمور البطن من الجوع وانخفاضها عن مستواها بحسب العادة ، وخمص البطن بغير الجوع من نوع جمالها ، فأباح الله لنا أكل اللحوم المحرمة علينا بشرط الاضطرار ، وبشرط أن يكون ذلك الاضطرار فى مخمصة وإلاَّ فلا يحل أكلها . وبيان ذلك أن من تعود أكل اللحم فى كل يوم مرة أو مرتين أو ثلاث مرات كما يعمل النهامون وفقده حتى اشتد نهمه إليه، فلا يحل له أكل اللحوم التى حرمها الله تعالى . وإذا أكل منها متأولا فإنه يكون ارتكب

مخالفة الشرع فى أكل ما حرم الله عليه وفى تأويله الباطل والمتجانف لإثم هو الذى يميل إلى ما حرمه الله تعالى فيستحق عقوبته.

﴿ فَإِنَّ آللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعنى أن الذى اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فأكل لحما حرمه الله عليه لا يكون وقع فى محرم ، لأن أكل اللحم المحرم فى مثل هذه الحالة مرخص به ، فهو مباح بشروطه المتقدمة، وذلك لأن الله تعالى غفور بستر للعبد وقوعه فيما حرم الله تعالى بسبب اضطراره ويرحمه لأنه أطاع الله تعالى فيما أمر لأنه لم يلق بنفسه إلى التهلكة وأمامه ما يحفظ به نفسه برخصة الله التى رخصها سبحانه لنا ، وذكر الغفور الرحيم هنا بشرى من الله لأهل الإيمان ، لخفى لطفه بنا وإغاثتنا عند الضرورة .

قوله تعالى : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿٤﴾

(يَسْأَلُونَكَ) يعنى بذلك جل جلاله سؤال الصحابة رضوان الله عليهم بحسب الحال القائمة بهم التى يعلمها الله تعالى منهم ، و﴿ مَاذَا ﴾ يصح أن تكون مبتدأ ، و ﴿ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ خبر ، ويجوز أن ما مبتدأ وذا بمعنى الذى خبر ، و﴿ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ صلة ذا، وقد تأول هذه الآية بعض المفسرين فقال : إن هنا قولا محذوفا تقديره : يقولون ماذا أحل لهم . وهذا التأويل ضعيف ، لأنه لو كان كذلك لكان الكلام : ماذا أحل لنا ، وهذا والسؤال وارد بعد بيان الله تعالى ما حرمه الله علينا ، وإن كان سبحانه يبين لنا ما أحله إجمالا فى قوله : (أُحِلَّت لَكُم بَهِيمَةُ) فإنا فى حاجة إلى التفصيل .

﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾هذه الآية أمر من الله تعالى ، أمر بـــه رســـوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن يخبرهم بما أحله لهم سبحانه من أنواع الحيوانات ، وأن يبين لهم الوسائل التى تكون بها حلالا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ والطيبات هى ما تشتهيها النفوس الفاضلة لا النفوس السافلة ، ويحصل لها بأكلها اللـــذة فى الطعم والرائحة وسهولة المضغ .

﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ معنى هذه الآية الشريفة : وأحـــل لكم صيد ما علمتم من الجوارح مكلبين ، والجوارح هى الكواسر ، وهـــى الـــتى تسيل الدم بجرحها للصيد . وتلك الجوارح أغلبها الكلاب المعلمة التى لأجلها غلب التكليب على كل الجوارح ، ثم الباز والصقر والشاهين من الطيور ، وما نعلّمه من غيرها من الوحوش إن أمكن ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّـــهُ ﴾ أى : تعلمـــوهن الصيد مما ألهمكم الله تعالى بحسب الهداية بسبب احتياجكم إلى ما لا بد لكم مـــن المأكل والمشرب والملبس ، كما ألهم الله تعالى جميع أنواع الحيوانات ما به ينتفعون فى مأكلهم ومشربهم ومأواهم ، والآية صريحة فى أن جوارح الصيد لابد أن تكون معلمة ، ولا يَحِلِ أكل صيدها إلا إذا تم لها التعليم ، وكمال تعليمها أنها إذا أصاب سهم راميها أسرعت فأمسكت الصيد وامتنعت عن الأكل منه ورجعت به علـــى الرامى ، فإذا جرحته وسال دمه حل أو ذكاه الرامى بسرعة إذا وجده مما يذكى ، ومن علامة تعليمها أيضا : أنها إذا امتنعت عن الأكل من الصيد وهى جائعة إلا إذا أطعمها صاحبها منه ، وقد قرر بعض العلماء أنها إذا عملت هذا العمل ولو مـــرة واحدة كانت معلمة ، وقيد بعضهم لأنه لابد من تكرر هذا العمل منها ولو مرتين.

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ ﴾ أى : فكلوا لحم ما أمسك عليكم جوارح الصيد ، واذكروا اسم الله عليه عند رمى السهم ، أو عنـــد قيام الكلب لصيده ، أو عند تذكيته إن رده الكلب إليكم من غـــير إمســـاك لـــه

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ أى : خافوا الله خوفا يمنعكم من الوقوع فى أكل ما حرمه عليكم مما بينه فى آية التحريم ، ومن أكل ما حرم عليكم أكله فى هذه الآية مما أخذ بالمفهوم . فإن أكل ما صاده الكلب لنفسه ، وأكل ذبائح المشركين ، وأكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، وأكل ما صاده الجوارح غير المعلمين ؛ كل ذلك حُرِّم ، فخافوا الله تعالى ، فأطيعوا أمره وامتنعوا عن الوقوع فى نهيه .

﴿ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى: يعجل العُقوبة لمن خالف أمره ووقع فيما نهى عنه. وفى هذه الآية تهديد ووعيد لمرتكبى المعاصى، وفيما أيضا بشرى لمن اتقى الله، فإنه أيضا سريع الحساب بالخير لأهل التقوى ويغفر لهم ما يقعون فيه مما تدعو إليه بشريتهم و لم يكن من الكبائر، كما قال تعالى:﴿إِن تَجتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنهَونَ عنهُ نُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّئَاتِكُم ﴾[1].

قوله تعالى : الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾لما كان القرآن خاتم الكتب ومهيمنا عليها؛ جمع الله لنا فيه ما به نيل سعادتنا فى الدنيا والآخرة إذا تمسكنا به، فلم يدع الله تعالى صغيرة ولا كبيرة مما لابد لنا منه فى ضرورياتنا وكمالياتنا إلا بينه فيه، حتى قال على بن أبي طالب عليه السلام: (لو ضاعَ منى عقالُ بعيرٍ لوجدتُه فى كتاب الله) ولذلك فإن الله تعالى شأنا من شئوننا فى مجتمعنا المترلى والقروى والمدنى وفى المجتمع العام، مما يتعلق بالقلوب أو بالجوارح أو بالعقيدة والعبادات والأخلاق

١- سورة النساء آية ٣١.

والمعاملات، ولا فى أكل أو شرب أو نوم أو لباس أو مسكن أو زواج أو غير ذلك، إلا بيَّن لنا ما أوجبه علينا، أو حرمه أو أباحه لنا، من الذبائح والأطعمة والأشربة مما يتعلق بدنيانا، وبيَّن لنا سبحانه ما يتعلق بديننا ومآلنا، وهذه الآية الشريفة أحل الله لنا فيها أكل لحوم الذبائح التى أباحها لنا والطيب من الأطعمة، وقد تقدم الطيب.

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾أى: وذبائح أهل التوراة والإنجيل حل لكم، ما تمسكوا بالتوراة والإنجيل، فإن خالفوها حرمت علينا ذبائحهم، كما حرم بعض العلماء ذبائح نصارى بنى تغلب لأنهم خالفوا الإنجيل، وكما حرم علىٌّ رضى الله عنه ذبائح الروم لمخالفتهم الإنجيل والتوراة.

وتبيح هذه الآية أطعمة أهل الكتاب من غير الذبائح، وكان ذلك مباحا من غير احتياج إلى نص صريح، إلا أنه قد يتوهم أن طعامهم غير الذبائح حرام علينا، وقوله تعالى:﴿حِلٌّ لَّكُم ﴾ أى : مباح لكم أن تأكلوا منه ، وقوله : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ هذا بيان من الله تعالى لنا أننا لا يحرم علينا أن نطعمهم من طعامنا بمبادلته ، أو لتأليف أو لضيافة أو لصدقة .

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ لما بين لنا ما أحله لنا وما حرمه علينا من الأطعمة والأشربة، أخذ يبين ما يتعلق بالأنكحة وما يحل لنا وما يحرم علينا منها حتى نكون فى كل أحوالنا فى عبادة، من صلاة وصيام، وحج وزكاة ونوم وأكل وشرب وتجارة وزراعة وصناعة وجهاد ونكاح، إننا فى كل ذلك إنما ننفذ أوامر الله تعالى، مراقبين جلاله العلى، متمسكين بتقواه سبحانه، وبذلك نكون خرجنا من قيود الإنسانية ونحن فى

هيا كلنا الإنسانية، واتصلنا بالعلم الملكوتى الذى يمدحهم الله تعالى بقوله: ﴿ لاَ يَعصُونَ آللَّهَ مَآ أَمَرَهُم وَ يَفعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾[1].

وما أيسر القيام بأوامر الله على الخاشعين، وما أصعبه على الغافلين، فإن الله تعالى أباح لنا الطيبات من الرزق وأجمل الزينات من الملابس والمساكن، وأباح لنا ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع، وطلب منا السعى فى مناكب الأرض لتحصيل رزق الله لنا، وما ترك لذة من الملاذ ولا شهوة من شهوات البطن والفرج أو من بهجة العقل والنفس إلا وأباحها لنا فى حدوده وشرعه المشروع، بقوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾أى: وانكحوا المحصنات من المؤمنات، والمحصنة لغة وشرعا هى العفيفة أو الحرة ، وعلى تأويل الآية بأنها العفيفة فتكون إماء أهل الكتاب يحل لنا زواجهن ، ومعنى المحصنة أيضا الحرة عفيفة كانت أو فاجرة ، وعلى تأويلها بالحرة يباح لنا نكاح الفاجرات ، وقد أيد ذلك ما ورد من أن بعض الآباء كان يرفع إلى أمير المؤمنين عمر أن ابنته فعلت ما يكره ، أو يزوجها ؟ فيأمره بزواجها ويقول له : إن ذكرت شيئا من ذلك آخذتك أشد المؤاخذة . ولو كانت المحصنة هى العفيفة لحرم علينا نكاح الفاجرة إذا ثبت ذلك.

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ ﴾ أى: أباح الله لكم نكاح المحصنات اللائى هن عفيفات حرائر، قوله: ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكتبَ مِن قَبلكُم﴾يعنى أن الله تعالى أباح لنا أن نتزوج من الحرائر العفيفات من بنات اليهود والنصارى وهن على دينهن، وقال بعض العلماء: المراد: والمحصنَاتُ اللائى أسلمن من نساء اليهود والنصارى، وهذا التأويل لأن المسلم إذا تزوج بغير المسلمة ربما نوعت أفكاره إذا أحبها، أو أفسدت ولدها فاتبع دينها، أو علمت سرا من أسرار سياسته أمته إذا كانت غير المسلمة

١- سورة التحريم آية ٦.

متزوجة أميراً أو وزيراً أو ذا شأن، كما حصل فى مراكش حيث كان عبد العزيز ملك مراكش ابن امرأة فرنسية فأفسدت ولدها، حتى جعلته فرنسيا طبعا وميولا وتعصبا فأضاع الملك لفرنسا، والتاريخ مرآة الحقائق، فإن رجلا من ملوك الفراعنة تزوج بامرأة يونانية فأولدها (اسمانيك) الأول الذى استعان بجيوش أخواله من اليونان حتى خرب المملكة المصرية، ولهذا رأى بعض العلماء أن زواج غير المسلمة لا يحل، وأول رجل أفتى بهذا الحكم عبد الله بن عمر رضى الله عنه بدليل قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿ وَمَن يَكْفُر بِالإيمنِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾.

﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الأجور هى ثمن التمتع بالبضع، فهى المهور التى يدفعها الإنسان عوضا عن الاستمتاع بالمرأة، والمعنى إذا آتيتم المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب مُهورهن أحلهن الله لكم، وفى قوله: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ قدمت تأويل المحصنات، أن المحصنة هى العفيفة على قول، أو الحرة على قول آخر. فإن كان المراد بها العفيفة جاز للمسلم أن ينكح اليهودية أو النصرانية وإماءها العفيفات من غير شرط، حربيات كن أو غير حربيات، وإذا أوَّلنا المحصنات بأنهن الحرائر حرم على المسلمين نكاح إمائهما بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّم يَستَطِع مِنكم طَولاً أن يَنكحَ ٱلْمُحصَنتِ المؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَت أَيمَـانُكُم ﴾[1] الآية. فرخص سبحانه فى نكاح الأمة المؤمنة فقط. وحرمت هذه الآية الشريفة نكاح الإماء غير المسلمات، وإذا أولنا المحصنات بالحرائر جاز نكاح الفاجرات إذا تُبن، لأن المراد بالحرة هنا غير الأمة، وفى قوله: ﴿ أُجُورَهُنَّ ﴾ إشارة إلى أن أقل المهر لا نهاية له، إذ قد يتزوج الرجل المرأة بخاتم من حديد. (محصنين) أى: حرائر عفيفات قد استوفين شروط الشريعة المتعينة فى الزواج، وقوله: ﴿ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

١- سورة النساء آية ٢٥.

وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ السفاح هو عمل الفحشاء ظاهرا، واتخاذ الأخدان عملها سرا، وذلك كقوله: ﴿ وَلاَ تَقرَبُوا الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[1] فالذى ظهر منها هو السفاح، وما بطن هو اتخاذ الأخدان.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ ﴾ معلوم أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والكفر بالإيمان إما جحود التوحيد أو تعدى حدود الله تعالى. فمن أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فقد كفر بالإيمان. وقوله تعالى: ﴿ فَقَد حَبِطَ عَمَلُه ﴾ جواب الشرط، والعمل إنما يقوم به العامل لينال أجره بمبادلة ومعاوضة، أو ليفوز برضاء من عَمِلَ له.

﴿ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لما كان حبوط العمل يراد به عدم قبوله من العامل، والعامل إنما يعمل لينال جزاءه فى العاجل أو الآجل أو فيهما. فى العاجل كعمل أهل الدنيا، وفى الآجل كعمل أهل العلم بالله الفانين عن إخلاصهم التائبين من توبتهم، أو فيهما وهم الراغبون فى أجر الدنيا والآخرة وهم أهل التمكين، ممن علت هممهم وقويت إرادتهم حتى طلبوا جنة الرضوان فى الآخرة، واليقين الحق فى شهود معانى الصفات الكاملة فى الدنيا. وعامل حبط عمله فقد الجزاء فى الآخرة، لأن حبوط العمل يتقضى فقد الإيمان لأنه من أعمال القلوب، ومتى فقد الإيمان كان ممن توعدهم الله بالخلود فى نار جهنم، ومعنى حبوط الأعمال الحرمان من جزائها.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ

١- سورة الأنعام آية ١٥١.

النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾.

معلوم أن الصلاة هى الصلة بين العبد وربه، وهى الحجة على أن العبد عرف نفسه أنه عبد الرب الذى أبدعه من العدم ، وأمده بكل ما يحتاج إليه مما يوجب له عليه الشكر عقلا وشرعا ، ومعلوم أن الشكر عمل والحمد قول ، والشكر عمل خاص يناسب المنعم على قدر نعمته ، ولما كان الشكر لله تعالى يجب أن يكون مناسباً بقدر جلاله لغناه المطلق عن العالم ؛ واحتياج كل من سواه إليه جل جلاله ؛ فيجب أن يكون الشكر مناسباً لعظمته تعالى وواسع إحسانه ، ويكون أيضا بقدر العبد ، ولا شكر لله أكمل وأتم بالنسبة للإنسان من الصلاة ، لأنها جمعت شكر الله بكل قوى الإنسان ، وشكر الروح هو استحضار عظمة الله تعالى وجلائل نعمه ، وشكر القلوب إخلاص النوايا لله وفقه كلام الله تعالى ورسوله من أعمال الصلاة ، وشكر الجسم حركاته وسكناته الدالة على الخشوع والخضوع والذل، والصلاة هى الصلة التى تحفظ نسب العبد لربه حتى قال الله تعالى: ﴿ وَٱسجد وَٱقتَرب﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَىٰ عَنِ ٱلفَحشَاءِ وَ ٱلمُنكَرِ ﴾[2] ولما بشرنا بقوله تعالى: ﴿ قد أفلَحَ ٱلمُؤمِنُونَ ﴾[3] بين أكمل صفاهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُم فِى صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ ﴾[4] وورد فى الحديث الشريف: (تاركُ الصلاةِ ملعون ...) الخ الحديث.

١- سورة العلق آية ١٩.

٢- سورة العنكبوت آية ٤٥.

٣- سورة المؤمنون آية ١.

٤- سورة المؤمنون آية ٢.

ولا يترك الصلاة مسلم أبدا، وإن صرفه الله ملكه وأطلعه علـــى مكنـــون غيبه، اللهم إلا إذا سلب عقله فقد سقط عنه التكليف لأنه لا يعقل شيئا، وحكمه حكم المجانين الذين هم كالأطفال فى نشأتهم الأولى، وهو ما يوجب على العقـــلاء رحمتهم وإبعادهم عن الناس بحبسهم فى المستشفيات عند أطباء رحماء. وأما مـــن غلبتهم مشاهد التوحيد العالية، ووقعوا فى حيرة الوجود المطلق فَعَلامَاتُهم التجـــافى عن دار الغرور، والفرار إلى الله تعالى بصولات الحق. فإذا نظروا إلى الدنيا وميزوا بين قديد الخشكار وبين شهى الأطعمة، أو شعروا بالأذية، أو حرصوا علـــى مـــا يزول، أو آثروا أنفسهم فهم قطاع طريق، كما قال تعالى: ﴿ يُخَـــادِعُونَ ٱللَّـــهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يخدعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشعُرُونَ ﴾[1] ودليلنا علـــى ذلـــك أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ حُمِلَ إلى الصلاة فى مرض موته وصلاها بالناس، ورجـــع فرفعه الله إليه. وحُمِلَ عمر إلى الصلاة بعد أن طعنه عدو الله أبو لؤلـــؤة وصـــلى بالناس، ورجع فتوفاه الله تعالى. وهل بعد عمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعمـــل خليفته الثانى يدَّعى منافق أن الصلاة تسقط عن حى مســـلم مميـــز بـــين الحلـــو والحامض؟ لذلك كان من الواجب على المسلم إذا حل وقت الصلاة وكان محـــدثا أن يطهر نفسه ظاهرا وباطنا استعدادا للوقوف بين يدى الله. أما طهارة الباطن فإن أعظمها وأجلها عقد القلب على عقيدة التوحيد التى بينها قول: (لا إلـــه إلا الله) وعلى أركان الإيمان المبينة فى قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ...﴾[2] الآية، وعلـــى الإيمان بكل شعب الإيمان، ويكون الطهر الجديد للحدث حسن النية والإخـــلاص لله تعالى.

١- سورة البقرة آية ٩.

٢- سورة البقرة آية ٢٨٥.

وأما طهارة الظاهر فقد بينها تعالى فى هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ الخ، ومعناها إذا تعينت عليكم الصلاة ودخل وقتها وأنتم محدثون فتطهروا ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ وما بينه الله تعالى فى هذه الآية فهو فرائض الوضوء، وما عمله ﴿ ﷺ وآله﴾ مما زاد على باقى الآية هو سنن الوضوء، وحدود الوجه من منابت شعر الرأس المعتاد إلى منتهى عظم الذقن، ومن وتد الآذن اليمنى إلى وتد اليسرى. ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ معطوف على الوجه، أى: واغسلوا أيديكم إلى المرافق، والمرفق هو المفصل الذى يفصل الذراع من العضد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فيجب غسل المرفق وأخذ جزء من العضد، وهى الغُرَّة، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (أطيلوا الغُرَّة) .

﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ ﴾ نوَّع العمل فى فرائض الوضوء بعد أن قال سبحانه: ﴿ فآغسِلوا وُجُوهَكُم وَأيديكُم ﴾ قال سبحانه: ﴿ وَامسَحُوا بِرُءُوسِكُم﴾ فالمسح غير الغسل، ولما كانت الأحكام الشرعية إنما يقصد منها عبادة الله بإطاعة أمره، مع رعاية حفظ الصحة على المسلم أو عودها إليه إن فقدها، أمرنا سبحانه بمسح رؤوسنا لأن للشعر مسام تمتص الماء الموضوع عليه، فيضر الرأس بما ينتج من غسله فى اليوم خمس مرات من الاحتقان فسبحان اللطيف الحكيم، ولذلك فإن السنة عند غسل الجنابة أن يبل المغتسل يديه ثم يدلك بهما رأسه قبل وضع الماء عليها ليسد مسام الشعر وقاية لها من الماء. وفى قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُواْ رُؤُوسِكُمْ﴾ إشارة إلى التخفيف، ولذلك فقد اختلف العلماء فى فهم هذه الآية، فتأولها الشافعى بجزء من مقدم الرأس، وتأولها أبو حنيفة بربع الرأس، وتأولها بعض السلف منهم الإمام ابن عمر – وهو من أفقه المؤمنين وأعملهم لأحكام الشرعية – بمسح جزء من الرأس، وتأولها غيرهم بمسح جميع الرأس حتى قال مالك : يمسح الرأس من مقدم الوجه إلى آخرها ثم يرد المسح من مؤخر الرأس إلى مقدمها، ومن

ترك شيئا منها يبطل وضوءه، وكل هذه التأويلات ثابتة من قوله تعالى : ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ﴾ ومنهم من تأول الباء للإلصاق، ومنهم من جعلها للتبعيض، ومنهم من تأولها بمعنى فامسحوا بأى شيء رؤوسكم . وكل تلك التأويلات تفهم من الآية.

﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ ﴾ أرجلكم معطوفة على وجوهكم فهى عضو فرضه فى الوضوء الغسل، أى : واغسلوا أرجلكم والغاية داخلة، أى : واغسلوا الكعبين. وقد تقدم أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يطمئن القلب بغسل الرجلين إلى الكعبين إلا إذا غسلت جزءا من الساق مع الكعبين، وهذه الأحكام التى بينها الله تعالى هى فرائض الوضوء، فمن ترك شيئا منها عامدا بطل وضوؤه.

﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ ﴾ قبل أن نتكلم فى معنى الآية الشريفة نبين موجبات الغسل، يجب الغسل فى خمسة مواضع:

١ — إنزال مَنِيٍّ فى نومٍ مطلقا، رأى فى نومه أنه يطأ امرأة أو لا.

٢ — إنزال منى من غير وطء باستدامة نظر أو ملاعبة.

٣ — جلوس الرجل بين شعب المرآة الأربع والتقاء الختانين ولو لم يترل سواء أدخل الذكر أو قدر الحشفة فى الفرج.

٤ — الحيض.

٥ — النفاس.

وغسل واجب أيضا وهو غسل الكافر إذا أسلم .. وغسل واجب على غير الشخص، وهو غسل الميت المتعين على من حضره.

حكم الله على المسلم إن كان جنبا أن يغتسل، وقد بين لنا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ كيفية الغسل وبين لنا أنواع الجنابة، وقد أنكر النصارى الطهر من الجنابة لأن المسيح عليه السلام كان أقرب إلى الروح منه إلى البشر، .

ولذلك فإنه لم يتزوج، وكان مقتديا بشريعة موسى عليه السلام متمما لها أخلاقا وآدابا، والحكمة فى الغسل بعد الجنابة أن ماء الرجل وماء المرآة منتزع من كل أعضاء الجسم فصار الجسم نجسا[1] وهناك حكمة وهى أن الأعمال الحيوانية الصرفة تجعل الإنسان ينحط إلى رتبة الحيوانات، فيجب عليه إذا قام لعبادة الله أن يتطهر بالوضوء عند الحدث الأصغر، والغسل عند الحدث الأكبر، لأن تلك الأعمال حيوانية صرفة. والإنسان الذى يقف بين يدى الله للعبادة الأولَى له أن يكون أشبه الخلق بالملائكة، وموجبات الوضوء والغسل وفرائضها وسننها مبينة فى كتاب: (أصول الوصول) فراجعه، والآية شرط وفعله وجوابه.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرضَى أَو عَلَى سَفَرٍ أَو جاء أَحَدٌ مّنكُم مِّنَ ٱلغَآئِطِ أَولَمستُمُ النساء ﴾ بعد أن بين سبحانه الطهر بالماء للصلاة؛ وكانت الصلاة فريضة لا تسقط عن المؤمن ما دام مكلفا شرعا؛ بين لنا ما يقوم مقام الماء عند فقده لعدم عينه، أو عند عدم القدرة على استعماله بسبب مرض أو مانع شرعى يمنعه عن استعمال الماء مع وجوده، كما إذا كان على الماء وحش أو عدو قاتل فحكمه حكم فقده، قال سبحانه: ﴿ مَّرضَى أَو عَلَى سَفَرٍ ٠٠﴾ الخ الآية، أى: وكنتم مرضى لا يمكنكم طلب الماء لمرضكم، أو على سفر وليس معكم من الماء إلا ما يكفى للشرب، أو أحدثتم حدثا أصغر كالتغوط ونحوه كالبول – وإن قال مالك رضى الله عنه: أدركت القوم لا يتوضأون من البول أى: لا يستنجون من البول عملاً بظاهر الآية

١- نجاسة معنوية.

– أو حصل منكم ملامسة النساء الموجبة للغسل ﴿ فَلَمَّ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ إما للعجز عن تحصيله، أو لجهل محله، أو لغلو ثمنه، فإن قوله تعالى: ﴿ فَلَم تَجِدُوا ﴾ صادق على كل هذه المعانى، وهنا نبين الماء الذى يصح منه الطهر:

قال بعض العلماء: والماء الطهور الذى يطهر بعضه غيره، هو الماء الذى لم يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه، حتى قال بعضهم: وإن قليلاً من الماء لو وضعت عليه نجاسة فلم تغيره لونا ولا طعما ولا ريحا فهو طهور ويجوز الاغتراف منه، حتى جوزوا الوضوء والغسل بفضلة المحدث والجنب.

وقال بعضهم: إن الماء الطهور إذا تغير لونه أو ريحه أو طعمه بطاهر يجوز منه الوضوء ولو قل كالماء الممزوج بماء الورد أو غيره، وإذا اختلط الماء بنجاسة ولو لم يتغير شيء من أوصافه بطل منه الوضوء إلا إذا بلغ قلتين بغداديتين، وعند أبى حنيفة لا يصح الوضوء إلا فى حوض عشرة فى عشرة. وسؤر الحيوانات لا يمنع الوضوء من الماء، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مر على حوض فى البادية فنزل يتوضأ منه فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض: أترد السباع على حوضك ؟ فقال أمير المؤمنين: لا تقل لنا يا صاحب الحوض فإنا نَرِدُ على السباع.

وتعذر عند المالكية لأنه لا يجوز الوضوء بالماء الممزوج بالطاهر مطلقا، ويحكمون بالتيمم إذا فقد الماء الطهور. وعند الحنفية يتوضأ بالماء الممزوج بالطاهر إذا لم يوجد الماء الطهور ولا يتيمم لأن الله تعالى يقول: ﴿ فلم تجدُوا مَاء ﴾ والماء الممزوج بالطاهر هو ماء وإن مزج بماء ورد أو ما شاكله، لأنه كثيرا ما يوجد الماء تحت الأشجار فتسقط فيه أوراق الشجر فتغيره ولم يمتنعوا عن الوضوء منه، ويدخل فى ذلك ميضات المساجد التى تتغير بما يتولد من طحالب وغيرها من الطاهرات.

﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ﴾ والصعيد الطيب هو ما صعد على وجه الأرض مِمَّا لا يدخل فى نقد ولا حليه ولا دواء، فخرجت المعادن وما يدخل فى الدواء كالكبريت والزرنيخ وقد يدخل الشب والملح وما أشبه، فإذا لم يوجد التراب الطاهر جاز التيمم على الحجر والمدر والرخام غير الصناعى، لأن الله تعالى يقول: ﴿ صَعِيداً طَيباً ﴾ وقوله: ﴿ فَتَيَمَّمُوا ﴾ أى: أموا، فهو مصدر أَمَّ متضمنا معنى قصد، وبين سبحانه فرائضه بقوله: ﴿ فَآمسَحُواْ بِوُجُوهِكُم وَأَيديكُم مِنهُ ﴾ فى هذه ما فى قوله: ﴿ وَآمسَحُوا بِرءُوسِكُم ﴾ وعضو التيمم فى الوجه هو عضو الغسل فيه وكذلك الأيدى.

وهذه الآية دلت على أن المؤمن طاهر لا ينجس بخلاف قول من قال: إن الوضوء والغسل بالماء يطهر نجاسة حكميَّة فى الجسم، ولو كان الأمر كذلك لما أمر الله تعالى بالتيمم عند فقد الماء وجعله يبيح الصلاة وإن لم يرفع حكم الحدث، والذى فهمته فى حكمة التيمم أن المراد من الطهر بالماء أو التراب إنما هو محو الغفلة عن القلب بنسيان العبودة أو العبودية، أو الغفلة عن مشاهد التوحيد بالنظر إلى نفسه أنَّ له مكانة عالية فوق الخلق، ويكون التيمم أعظم فى التأثير على القلوب، لأنه يضع التراب على أشرف عضو فيه وهو وجهه، ووضع التراب على الوجه يشعر بأنه من التراب، لأن الكافرين والمنافقين يوم القيامة يتمنون أن يكونوا ترابا، وقد بينت فى كتاب: (أصول الأصول) شروط التيمم والأحكام المتعلقة به. وقوله تعالى: (مِنهُ) أى: من الصعيد الطيب، والطيب هنا هو المقبول للنفس والنظر والشم.

﴿ مَا يُرِيدُ آللهُ لِيجعَلَ عَلَيكُم مِن حَرَجٍ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم ﴾ ينفى الله سبحانه إرادة الضيق والإثم عنا، لأن الحرج هو الضيق والحرج أيضا هو الإثم. ومعنى ﴿ مَا يُرِيدُ آللَّهُ ﴾ أى: أنه سبحانه لم يحب أن يكلفنا ما لا نطيق، لأن

الإرادة كما بينت معناها فى سورة البقرة نوعان: إرادة كائنة وهى القدر المحتـــوم. وإرادة محبوبة وهى ما أمرنا الله بعمله ونهانا عن فعله، وهذه الإرادة قد تكون وقد لا تكون، فقد يأمر العبد بالأمر و لم يقدِّره له، وينهاه عن الأمر ويقدره عليه، فأبو بكر أمره بالطاعة وقدَّرها له، وأبو لهب أمره و لم يقدِّر له.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ مَا يريدُ اللهُ ﴾ الآية، أن الله سبحانه وتعالى لم يكلفنا بالغسل من الجنابة عند وجود مقتضاها؛ أو بالوضوء عند الحدث؛ أو التيمم عنـــد فقد الماء مع قيام الحدث ليشق علينا، ولكنه سبحانه أحب أن يطهرنا من نجاســـة معنوية تقوم بالجسم عند قضاء حاجة الإنسان أو ملامسة النساء، لأنه فى الحـــالتين كان أقرب شبه بالحيوانات، والمسلم إذا قام يصلى كان أقرب شـــبه بالملائكـــة، فلأجل أن يدخل تلك الحضرة يجب أن يكون طاهر الظاهر والبـــاطن. وطهـــارة الظاهر أُمٌّ لطهارة الباطن، فإذا تمضمض خرجت معاصى الفم واللسان مع المـــاء، وإذا غسل الوجه خرجت معاصى العينين والأنف والوجه، وإذا غســـل اليـــدين سقطت معاصيهما، وإذا مسح الرأس خرجت معاصى الوهم والخيال، وإذا مســـح الأذنين خرجت معاصيهما، وإذا غسل الرجلين سقطت معاصيهما، وليس الوضوء والغسل ليطهرنا الله بهما من نجاسات فى أجسامنا، لأن المؤمن طهور لا ينجســـه شىء، والمؤمن أكبر على الله من الكعبة، بل وأكرم على الله من الملائكـــة لأن الله تعالى خلق الإنسان بيديه، قال تعالى لإبليس عند امتناعه عن السجود لآدم: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِمَا خَلَقتُ .

بِيَدَىّ ﴾[1] فكان شرف آدم بسجود الملائكة له لأن الله تعالى خلقه بيديه، والعالم كله بيد واحدة فالعالم ملكه وملكوته نصـــف الإنســـان قـــال تعـــالى:

١- سورة ص آية ٧٥.

﴿ فَسُبۡحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ ﴾[1] وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[2] والله تعالى خلق ملكوت السموات والأرض بيد واحدة، وخلق ملك السموات والأرض بيد واحدة، وخلق الإنسان باليدين، ولذلك فقد سخر الله للإنسان ما فى السموات والأرض جميعا منه، وزاده ما هو فوق السموات والأرض ملكا وملكوتا بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[3].

ومعنى النفخة أنه خلقه سبحانه على صورته، لأن الله تتزه وتعالى ليس له شفتان وحلقوم ينفخ منهما، ومخلوق خلقه جل جلاله بيديه وأقامه خليفة عنه فى أرضه وأسجد له ملائكته وأعد له الملك الكبير والنعيم المقيم لا يحب سبحانه وتعالى أن يكلفه فوق ما يطيق، ولا أن يضيق عليه بالحرج.

﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ ﴾ شرحت لك معناها فى الآية السابقة ولكنى أزيدك بيانا، هو أن الله تعالى يريد أن يزيل عنا ما علق بأجسامنا من نجاسة معنوية أَلَمَّتْ بالإنسان عند مباشرته ملامسة النساء، أو عند قضاء الحاجة، وقد بينت أن كل عمل يشترك فيه الإنسان مع الحيوان يحجب الإنسان عن مشاهد رتبته الإنسانية الكاملة، فيجب عليه أن يتطهر بالماء أو التراب، ليشهد قلبه التجريد من التشبيه بالرتبة السافلة، فكان الطهر بالماء أو التراب رمزا إلى طهارة القلب من ملامسة ما به غفلته عن حضوره مع عالم الروحانيات العاليات، والمجانسة لما فيه من الروح الملكية أو النفخة القدسية، ولم نسمع أن حكومة من الحكومات عاقبت الآلة التى قتل بها أو ضرب بها، وإنما المعاقب هو القاتل أو الضارب، فالأيدى

١- سورة يس آية ٨٣.

٢- سورة الملك آية ١.

٣- سورة الحجر آية ٢٩.

والأرجل بل والجوارح الأخرى آلات تحت سلطان القلب، فالمعاقب هو القلب، ولكن الشريعة أمرت بطهارة الآلات والأدوات مع أنها لم ترتكب إثما لتكون طهارة القلوب أولى، ومن طهر جوارحه بالوضوء أو الغسل و لم يطهر قلبه بالتوبة والندم وتصريف النوايا من حسن إلى أحسن جهل حكمة حكم الشريعة. وقد أظهر الله تلك الحكمة فى هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم ﴾ بعد قوله: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجعَلَ ... ﴾ الآية، فيما أنزله إليكم من أحكام الطهارة، ولكن الحكمة هو أن الله أحب طهارتنا، وليس المراد طهارة الأجسام فحسب، بل المقصود طهارة القلوب حتى يحصل للمسلم صفاء يجعله يقف بين يدى الله تعالى، فيسمع منه سبحانه ما يورده عليه من معانى القرآن والتسبيح والتكبير فى الصلاة، ومن معانى الحركات والسكنات فيها المنبئة بكمال العبودية لذاته.

﴿ وَلِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لعَلَّكُم تَشكُرُونَ ﴾ معلوم أن النعمة نوعان: نعمة الأشباح ونعمة الأرواح . فنعمة الأشباح قد أتمها على غير المؤمنين به كما نرى، فقد مكنهم فى الأرض تمكينا حتى طاروا فى الجو، وغاصوا فى البحار، واخترعوا ما أدهش العقول من الصناعات والحرف، حتى لم يبق فى الملك حقيقة من الحقائق النباتية أو الجمادية أو الحيوانية أو الكواكب السماوية إلا وأمدهم الله بعلم من علوم الصناعات يستخدمون به خواصها لنفع الإنسان، ولا يزال سبحانه ولن يزال يفتح كنوزه التى أودعها لبنى الإنسان فى الأرض والسماء، ونرى من أبدعوا تلك المخترعات والصناعات وهم الكفار بالله. وقوله تعالى: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ... ﴾ الآية، المخاطب بها أهل الإيمان بالله تعالى، فلم تكن تلك النعمة التى بشرنا سبحانه وتعالى بأنه يتمها علينا إلا نعمة الأرواح كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.. ﴾[1].

١- سورة المائدة آية ٣.

قوله تعالى: وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿ ٧ ﴾

كما بين الله تعالى لنا أحكام وسائل الصلاة وما تقدمها من بيان الأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات؛ بين لنا سبحانه ما يجب علينا القيام به لحضرته العلية من الشكر والثناء والحمد فقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ونعمة الله تعالى هو الخير العظيم المتعلق بالأرواح كالهداية للإسلام، والتوفيق لمحابه ومراضيه، وبيان الأعمال والأقوال والأحوال التي يحبها من العبد، بعد أن، بين لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تفصيل تلك الأحكام بالعمل والقول، حتى نكون أشبه الناس به ﴿ ﷺ وآله﴾، فتكون أجسامنا على الثرى وقلوبنا معلقة بالعرش الأعلى، ولدينا تسوح أرواحنا سياحة ملكوتية، وتقتبس الأنوار من المشكاة المحمدية، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وإضافة النعمة إلى الله جعل المراد من النعمة جميع النعم.

﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ إن كان الخطاب للمؤمنين يكون هذا الميثاق هو بيعة الأنصار لرسول الله بمكة قبل هجرته ومبايعته للصحابة تحت شجرة عند بئر الحديبية، والبيعة التي بايعوا رسول الله بها معلومة، وهذا خطاب من الله تعالى يحيي به قلوب أهل الأيمان ليحافظوا على القيام لله بما عاهدوا عليه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ونسب الميثاق لذاته بيانا على أن كل بيعة وعهد أمرهم به رسول الله هو من الله تعالى بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2] وإن كان الخطاب عاما فيكون هذا الميثاق ميثاق يوم (أَلَسْتُ) [1] حيث

١- سورة الذاريات آية ٥٥.

٢- سورة الفتح آية ١٠.

أخذ ذرية بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم سبحانه وقال : ﴿ ألستُ بِربِّكُم ﴾ ثم عاهدهم بقوله : ﴿ أَن تَقُولُواْ .. ﴾ الخ، وفى هذه الآية وعد من الله لأهل الإيمان الذين وفقهم لاتباع رسوله، وأقامهم مسارعين إلى العمل بمحابه ومراضيه سبحانه فى الشدة والرخاء، ووعيد لأهل الكفر وهم الذين لم يفوا بعهد الله وميثاقه. وجائز أن يكون الخطاب لبنى إسرائيل الذين لم يؤمنوا برسول الله، ويكون الميثاق ما عاهدهم الله عليه على لسان موسى من الكلمات التسع.

﴿ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (إذ) ظرف للماضى من الزمان، يعنى سبحانه وتعالى حين قلتم: سمعنا كلامك وأطعنا أمرك وعاهدناك على أن نقوم لك بما جئتنا به من عند الله تعالى بقدر طاقتنا. قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تقدم الكلام على قوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾[2]. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدُور ﴾يعنى إن الله مطلع على كلام نفوسكم وتصريف نواياكم وَهَمِّ وَلَمَم ضمائركم، فهو أعلم بأمور الظاهر من أعمال جوارحكم من باب أولى، تخويفا للظالمين، وبشرى للمؤمنين الذين يتقون الله فيتفضل عليهم بما وعدهم وأعظم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

١- إشارة إلى قوله تعالى: " وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهور ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ..) الآية ، سورة الأعراف آية ١٧٢.

٢- راجع تفسير قوله تعالى: (اتقوا الله) سورة آل عمران آية ١٠٢، الجزء الرابع من (أسرار القرآن).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ ﴾ يا أيها الـــذين صدقوا الله ورسوله كونوا مسارعين إلى محاب الله سبحانه ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، قياما بالجهاد الأكبر فى ذات الله تعالى، شهودا بالحق لإعلاء كلمته سبحانه، وتنفيذ أمره ونهيه بقدر طاقتكم باليد واللسان والقلب، أو القلب واللسان، أو بالقلب فقط غيرة وإنكارا من غير انحراف أو تحيز ولو على أنفسكم، واجعلوا هذا القيـــام أولا وبالذات بإخلاص وحسن سريرة وجمال نية ولو على أنفسكم، لتكونـــوا نفعـــتم أنفسكم أولا، وتعلمتم بجهادها مواطن نزوعها إلى الباطــــل ، وطـــرق تزكيتـــها بالحكمة، فتنفعون غيركم بما حصَّلتموه من العلم بالقيام على أنفسكم، فينتفع بكم غيركم، ويشفى الله بكم مرضى القلوب، ومفسودى الأخلاق الذين ينكرون مـــا عُلِمَ من الدين بالضرورة، أو الذين تقهرهم نفوسهم الأمارة بالسوء على ارتكاب الآثام، أو يميل بهم طبعهم الخبيث إلى ما يخالف الشريعة المطهرة.

وفى قوله ﴿ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ ﴾ إشارة إلى أن شهيد بمعنى شاهد، والشاهد هنا إما أن يكون شاهدا على غيره بحقائق شهدها حسا أو علمها يقينا، أو يكـــون شهد لنفسه أسراراً من الغيب تفضل الله بها عليه بحسب ما وهبه من النفس الملكية، أو بحسب رياضته وجهاده، وهنا يجب أن يحصِّن نفســـه بحصـــون الأدب عنـــد مشاهدته، فإن للشيطان مكائد ودسائس ووسوسة لا ينجو منـــها إلا عبـــاد الله المخلَصون الذين خلَّصهم سبحانه لذاته.

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ ولا يوقعكم فى الإثم بغض قوم على عدم العدل معهم، وذلك لأن قريشا منعوا رســـول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ وأصحابه فى الحديبية عن دخول مكة، وكان مع رسول الله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ أربـــع عشرة مائة – أى: ألف وأربعمائة رجل – خرجوا للعمرة، فصدهم قريش عنـــها حتى أرسل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن عفان ليتفاوض مع قريش، فغـــاب

هناك ليلتين أو أكثر، حتى تواتر الكلام أنهم قتلوا عثمان فحصل الهلع للصحابة، ثم انطلق رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تحت الشجرة، وأسرع الصحابة إليه يبايعون على أن يموتوا فى سبيل الله أو يدخلوا الحرم، وفى هذا اليوم أرسل عمر بن الخطاب ابنه لإحضار جواده، فوجد القوم يبايعون رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وعمر لا يعلم فبايع وأسرع إلى أبيه ليخبره فقال بعض الرواة : بايع عبد الله بن عمر قبل أبيه. وهذه الحادثة هى سبب نزول هذه الآية.

ولكن لها أسباب كثيرة مما كان يؤذى بها قريش واليهود النبى ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه، ومن تلك الحوادث أن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ذهب إلى اليهود ليطلب مساعدتهم فى دفع دية رجل من المشركين قتله رجل من الصحابة، فلما ذهب إليهم قالوا: يا أبا القاسم نفعل ما تريد، فجلس خلف جدار ومعه أبو بكر وعمر، ودخل اليهود الدار فرفعوا حجر طاحون فوق السلم ليلقوه على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وصاحبيه ليقتلوهم، فلما ارتفع الحجر إلى آخر السلم دخل يهودى فوجدهم فى حالة جهد، فقال: ما بالكم ؟ قالوا: نريد أن نقتل أبا القاسم وصاحبيه، فقال: أقسم أنى لقد رأيته يدخل المدينة الآن وأنا خارج منها، فارتجفت قلوبهم فوقع الحجر عليهم فقتل واحداً منهم، وكان أبو بكر وعمر ينتظران عودة رسول الله

﴿ﷺ وآله﴾ بعد قيامه، فلما سمعا جلبة الحجر انصرفا إلى المدينة، فكانت الحوادث التى أذوا بها رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وأصحابه تجعل فى قلوب الصحابة غضاضة، والله تعالى يحب الرحمة والعدل، فأمرنا سبحانه أن لا يجرمنا بغض هؤلاء القوم فنترك العدل معهم، بل يجب علينا أن نعمل بالعدل مع أوليائنا وأعدائنا على السواء، ونترل أحبابنا وخصومنا عند الحكم مترلة واحدة، وهذا لا يمنع من أن قلوبنا تبغضهم بغضا حقيقيا، وأننا لا نسعى فى نفعهم أبدا، فلا نستخدمهم فى أعمالنا، ولا نستعين بهم فى حاجة إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، ومَن والى كافرا

أو قبل منه مساعدة أو استعان به فىغير ضرورة، دل ذلك على ضعف إيمانه، اللهم إلا إذا كانت المسألة قضاء أو حكما فى شأن من الشئون بين حبيب وعدو.

وقف يهودى أمام القاضى أبى يوسف يخاصم أمير المؤمنين هارون الرشيد، فتمنى أبو يوسف أن يكون الحق لهارون، ولكن ظهر الحق لليهودى فحكم بالحق على الخليفة، وعند الموت بكى أبو يوسف بكاء مرا، فقيل له: لماذا ؟ فقال: لأنى تمنيت أن يكون الحق لهارون على اليهودى، فأنا أخاف من تلك الأمنية.

﴿ عَلَى أَلاَّ تَعدِلُوا ﴾أى: على أن لا تقوموا بالعدل لعدوكم على حبيبكم، ولمفارقكم على مواليكم. ﴿ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ يأمرنا ربنا جل جلاله بأن نقوم بالعدل أمرا واجبا مهما كان الداعى موجبا للانتقام، فإن العدل أقرب للتقوى، وهنا أبين لك التقوى وقد شرحتها فيما سبق مرارا: التقوى أن تذكر الله فلا تنساه، وأن تطيعه فلا تعصيه، وأن توحده فلا تجحده، وأن تشكره فلا تكفره، وهذه هى التقوى التى قال الله فيها:﴿ آتقُوا اللهَ حَقَّ تُقاَتِهِ ﴾[1] ولما كان العدل الحقيقى فى الأحكام لا بد وأن يوافق الحقيقة فى نفس الأمر، وذلك مستحيل لأن الغيب المصون لم يطلع عليه أحد من الخلق إلا من أطلعه الله سبحانه من رسول كريم بالوحى، قال تعالى: ﴿ فَلاَ يُطهِرُ عَلَى غَيبِهِ أحَداً مَنِ آرتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[2] فلم يبق إلا الاجتهاد بقدر العلم، وذلك لا نحكم بأنه هو العدل عند الله، وهذا هو الحكم الذى يخبرنا الله عنه بأنه أقرب للتقوى وبه النجاة يوم القيامة، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر (إنما الأعمال بِالنِّيَّاتِ

١- سورة آل عمران آية ١٠٢.

٢- سورة الجن آية ٢٦ - ٢٧.

) ومن اجتهد فأصاب فله أجران، لأن إصابته الحقيقة دلت على صفاء نفسه، وأنها من جواهر الصفا التى تقتبس من الغيب المصون.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمرنا جل جلاله بتقواه بالاسم العظيم العظم، وهو الله جل جلاله، لأن الخطاب لأهل الإيمان به سبحانه، ويكون الأمر بالتقوى هنا معينا للخوف من الله تعالى، خوفا يجعلهم يسارعون إلى الوفاء بالعقود، وإلى تنفيذ أوامر الله تعالى فيما أحبوا وما كرهوا، وإلى رعاية العدل بقدر الطاقة فيمن والاهم ومن خالفهم، فإن تقوى الله تعالى هى مراقبة عظمته وكبريائه بالأرواح والقلوب، وتنفيذ أوامره ونواهيه بالعقول والأجسام، بخلاف تقوى الرب، فإن تقوى الرب خوفا من العذاب ورغبة فى النعيم، للخروج من الكفر إلى الإيمان، ومن النفاق إلى الإخلاص.

﴿ إِنَّ ٱللَّه خَبِير بِمَا تَعمَلُونَ ﴾ هذه الآية بشرى لأهل الإيمان بالله، وإنذار لأهل الكفر والنفاق والمجاهرين بالمعصية، فإن الله افتتح الآية بحرف التوكيد تقوية للخبر، ثم أتى بالاسم العظيم الذى أحاط علما بما فى النفوس وخواطرها، وخفىّ نواياها ومقاصدها، وأعلم من باب أولى بحركات وسكنات وهمسات الأجسام، فإذا تحقق العبد بأن الله خبير بما يعمل بعقله وماله، وأنه سبحانه يحاسب على النقير والعظيم، فيجازى بالإحسان ويزيد من فضله، ويعذب المسىء بقدر إساءته عدلا منه سبحانه، انزعج قلب المسارع إلى السوء وتاب من ذنبه ورجع عن عمله، وفرح القائم لله بتنفيذ أوامره فأقبل مسارعا إلى محاب الله ومراضيه سبحانه.

قوله تعالى: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

﴿ وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ الوعد والوعيد، معلومان، والوعد هو بشرى بنيل خير على عمل محبوب للآمر، والوعيد هو إنذار بعقوبة تقع على المخـــالف، ومعلوم من الدّين بالضرورة أن الله تواب غفور، فقد يخلف الوعيد ولكنه لا يخلف الوعد فضلا منه لا وجوبا عليه. وهنا يخبرنا الله تعالى بأنه وعد الذين آمنـــوا أى: عقدوا قلوبهم على توحيد الله تعالى، وصححوا نواياهم على العمل بما أمرهم بـــه، وعزموا بإخلاص على ترك ما نهاهم عنه ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّـــالِحَاتِ ﴾ أى: قـــاموا بتأدية فرائض الله وسنن نبيه التى جمع الله لنا بها كل خير فى ديننا ودنيانا وآخرتنـــا للفرد فى نفسه، وله فى أسرته من والدين وزوجة وأولاد وإخوة وأخوات وأتباع، وله فى المجتمع الأصغر من قرية وسكة، والأوسط من مدينة أو بلد جامع، والمجتمع العام وهو المجتمع الإسلامى، حتى صارت أعمال المسلم كلها عبادات لله فى أحواله الشخصية أو غيرها إذا تمسك بما بينه لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وهـــذا معـــنى ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ فما من حركة ولا سكنة من طرفة عين فأكثر إلا ويتعلق بها حكم شرعى علمه من علمه وجهله من جهله.

﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمَّا أن قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللّهُ الَّـــذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ اشتاقت نفوس أهل الإيمان إلى معرفـــة الموعـــود بـــه، فكانت الآية كالجواب لهذا السؤال وهو قوله تعالى:﴿ لَهُم مَّغفِـــرَةٌ ...﴾ أى: للذين آمنوا وعموا الصالحات مغفرة وأجر عظيم. والمغفرة هى ستر الذنوب حـــتى عن الكتبة الكرام وعن نفس المذنب وعن جوارحه ومعالمه من الأرض كما قـــال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا تاب العبدُ أنسَى اللهُ الحفظةَ ذُنُوبَه وأنسى ذلـــك جوارحَـــه ومعالمه من الأرض حتى يلقى اللهَ وليس عليه شاهدٌ بذنبٍ) والأجر العظيم بحسب ما تفهمه العقول هو الفوز بالنعيم المقيم فى فردوس الله الأعلى ، أما بحسب أنه خبر من الله تعالى فذلك مالا تتصوره الأرواح الطاهرة بل ولا يخطـــر علـــى قلـــوب

الأخيار، وغاية ما تنتهى إليه العبارة أنه النظر إلى وجهه الكريم، لأن قوله تعالى: ﴿ عظيم ﴾ فوق عقولنا وأرواحنا ، وحيث لا يعلم علمه إلا الله تعالى، وفى نسبة الوعد إلى الله تعالى الذى هو الغنى عما سواه؛ المفتقر إليه كل من عداه؛ المنزه فى ذاته وأسمائه وأفعاله وصفاته حجة على أن هذا الوعد متحقق الحصول لا يختلف أبدا، وما الذى يمنع وقوعه ؟ والذى وعد به هو القادر المطلق المقدرة، الذى خلق السموات وما فيها ومن فيها بل وما فوقها والأرض وما فوقها وما حولها بكلمة واحدة، وكلمات الله لا تحصى، فسبحان من لا يخلف وعده فضلا منه وكرما، وقد يخلف وعيده رحمة منه وإحسانا، وإن كان الوعيد عدلا.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

بعد أن بين ما أعده لأهل الإيمان به فى الآية السابقة، أورد ما توعد به أعداءه الذين لم يؤمنوا بحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾أطلق العبارة فى مقام الوعد إطلاقا واسعا، وهنا قيدها بالحصر المقتضى للخلود الدائم فى النار﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ سترهم الحظ والهوى عن التسليم لله تعالى ولرسوله فكفروا، أى: ستروا ﴿ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أى: كذبوا بما أقام الله تعالى من الآيات دليلا على توحيده وعلى تصديق نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾اسم الإشارة عائد على الذين كفروا وكذبوا، وأصحاب الجحيم أهلها الذين لا يفارقوها أبدا، والجحيم هى طبقة من طبقات جهنم أشد عذابا من عذاب الحطمة.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يذكرنا ربنا سبحانه وتعالى بعد أن مكن لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه فى الأرض بما تفضل علينا من القوة بعد الضعف، والظهور بعد الخفاء، حيث أيام مكة قبل الهجرة. وما فعله بنو النضير وقينقاع وقريظة وأهل خيبر بعد الهجرة مما يجعل النفوس تميل إلى الانتقام منهم عند الفرص، الأمر الذى لا يحبه الله من أهل الإيمان به سبحانه، ويحب منهم أن يتجملوا بأخلاقه العلية التى منها العدل فى معاملة الأعداء، والفضل فى معاملة الأوِدَّاء، وبين تلك الأحداث التى تثير ضغائن القلوب ما حصل من بنى النضير عندما توجه إليهم رسول الله ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى يطلب منهم أن يعينوه على دية العامريَّيْن اللذين قتلهما عمر بن أمية الضمرى، فكادوا له ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وطلبوا منه أن يجلس حتى يقدموا له الطعام ، وأعدوا له حجر رحى ليلقوه عليهم ، فأخبره جبريل بذلك فانصرف رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة، وغير تلك الحادثة. فذكرهم الله تعالى نعمته عليهم – بدفعه عنهم كيد الكائدين – والنعمة المضافة إلى الله تعالى تفيد نِعَم الروح والجسم، فمن نعم الروح الهداية للإسلام، والإيمان برسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبيان أسرار آياته وما يحبه ويرضاه من العقيدة التى بينها لنا فى القرآن ، مما قامت عليه الدلائل الحقة التى هى دلائل فى الحقيقة، لا الدلائل المنطقية التى مقدماتها اليقينية هى كل ما يقع تحت الحس، لأن المنطق وضع ليكون ميزانا للعقل إذا تصرف فى الكون لتنويع المادة إلى صناعات، و لم يوضع المنطق ليكون سبيلا لإقامة الحجة على صدق الحكم على الله تعالى من العقل.

﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى: قصدوا، وبسط اليد مدها للبطش والنكاية ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ أى: فحفظكم من كيدهم وبطشهم فى كل الحوادث التى حصلت بينكم وبين قريش، وبينكم وبين اليهود مما تقدم بيان

بعضه، وتلك الأحداث التى حصلت بين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبين قريش قبل الهجرة مما يشيب لهولها الوليد، فلكم آذوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بوطء عنقه فى الصلاة، ورميه بالحجارة حتى سال الدم من ساقيه ﴿ ﷺ وآله﴾، ومن تسليط أبى لهب وأبى جهل عليه وغيرهما، وكم عذبوا الصحابة رضوان الله عنهم، وكم آذوا بلالا وياسرا وابنه عمار وزوجته سمية رضى الله تبارك وتعالى عنهم وغيرهم من فقراء المسلمين قبل الهجرة. وكم عذبوا رجالا حتى هاجروا إلى الحبشة، وعذبوا من تخلف بعد هجرة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى المدينة، وكم همَّ اليهود بأذية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبالإنكار عليه، وبث الفتن والدسائس بين المسلمين بإيعاز المنافقين، حتى صنعوا السم له ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الطعام فى ذارع الشاة يوم خيبر، وهموا أن يلقوا عليه وعلى أصحابه حجر طاحون من فوق الجدار فكف الله أيديهم.

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ ﴾ يأمرنا الله تعالى بملازمة تقواه سبحانه، معتقدين أنه سبحانه يعصمنا من الناس، لأن عناية الله برسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبالصحابة ونجاتهم من مكائد المشركين واليهود، بل ونجاة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الأعرابى الذى وجد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ نائما تحت الشجرة وسيفه معلق بغصن منها، فقبض على السيف واستله وقال: يا محمد، من الذى ينجيك منى ؟ وهو بضرب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالسيف، فقال رسول الله : (اللهُ تعالى) فارتجف الرجل وسقط السيف من يده. وأخذه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وقال: من ينجيك منى ؟ فقال : لا أحد، فنادى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أصحابه وأخبرهم الخبر والرجل جالس بجانب رسول الله، ولم يعتب عليه رسول الله . وفى تلك الأحداث العظيمة دليل على عناية الله تعالى بالنبى عليه الصلاة والسلام وبأصحابه، حيث حفظ النبى ﴿ ﷺ

وآله﴾ من الأعرابى، وفى ذلك كمال حفظ الله له عليه الصلاة والسلام، وحفظــه خير عظيم لنا جميعا.

إذن فالتقوى هى سبب كل خير، فمن أراد الدنيا أو أراد الآخــرة أو أراد العافية أو أراد الرضوان الأكبر فعليه بالتقوى.

﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ والتوكل هو تفويض كل الأمــور إلى القوى القريب المجيب، الذى يلبى من دعاه، ويغيث من استغاث به، ويقبل توبة من تاب إليه. ولا يكون التوكل على الله حقا إلا إذا كان من المؤمنين، لأن المؤمن هو الذى صدق بما جاء من عند الله تعالى، والواجب عليه أن يفوض جميع أمــوره لله تعالى، راضيا عن الله فيما قدَّره.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُــوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِــن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴿١٢﴾

بعد أن بين الله تعالى لنا ما همَّ به بنو إسرائيل من بســط أيــديهم إلينــا بالنكاية والانتقام منا، حسداً على ما تفضل الله به علينا من بعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ مناًّ، ومن هدايتنا للإيمان، ومن تشريفنا بإنزال القرآن لنا على لسان حبيبــه ومصطفاة عليه الصلاة والسلام، أخبرنا جل جلاله أنه أخذ ميثاق هؤلاء القوم على أن يطيعوه فى تنفيذ ما أمرهم به كمن الإيمان بالرسل، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وغير ذلك مما بينه سبحانه فى هذه الآية، فأبى سلفهم إلا خيانة الله تعــالى وتــرك الوفاء بما واثقوه سبحانه عليه.

وليس عمل خلفهم المعاصرين لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ببدع، بل هو سنة سلفهم وفطرتهم التى فطروا عليها، فإنهم آذوا الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وخرجوا عليهم وكم قتلوا منهم. وهذه الآية الشريفة أنزلها الله تعالى لِيُطَمْئِنَ بها قلبَ النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ وقلوبنا، فإنا لا نزال ولن نزالَ نرى أعداء الله اليهود يسارعون إلى مساخط الله تعالى بمحاربة الإسلام وأهله، ونصرة أعدائنا الإفرنج علينا، والله لا يهدى كيد الخائنين.

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ افتتح الآية بمؤكدين للخبر، لأن اللام للقسم وقد للتحقيق، وقوله:﴿أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾أى: واثقناهم ميثاقا مؤكدا ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ النقيب: هو القائم بشأن من أُقِيمَ نقيبا عليهم، والنقب: هو الثقب فى الحائط. والرئيس الذى يبحث عن شئون القوم ويراعى مصالحهم القائم بالواجب يسمى نقيبا، والنقيب فوق العريف. يخبرنا ربنا جل جلاله أنه بعث من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا أى: أمر كليمه عليه السلام أن يبعث من كل سبط من أسباط بنى إسرائيل رجلا يمتاز بالحكمة والفطنة، ليَرِدُوا أرض الجبارين التى وعد الله كليمهُ عليه السلام أن يورثها له ولقومه بعد هلاك العمالقة إذا وفى اليهود بميثاق الله تعالى، فلما ذهب النقباء إلى أرض الجبارين ليتجسسوا عن أحوالهم وقوتهم لقيهم رجل منهم يسمى (عاج) ولعله المشهور بـ (عوج بن عنق) وحملهم وذهب بهم إلى داره، ووضعهم أمام زوجته وقال لها: انظرى إلى هؤلاء الذين يريدون أن يقاتلونا، وهَمَّ بقتلهم فمنعته وقالت: دعهم يخبروا قومهم بما رأوه، فلما نجوا تعاهدوا أن لا يخابروا أسباطهم بما رأوه خوفا من ذعرهم وخروجهم على كليم الله عليه السلام، فلما وصلوا أفشى عشرة منهم هذا السر وكتمه رجلان منهم هما يوشع بن نون وكلاب بن لوقيا. فلما دعاهم موسى عليه السلام إلى

حرب العمالقة قالوا له:﴿ فآذهَب أنتَ وَرَبُّكَ ﴾[1] متابعين من أخبروهم عـــن القوم، مخالفين من كتما سرهما.

وقيل: إن النقباء جاسوا خلال ديار الجبابرة ورجعوا ومعهم حبة فاكهـــة، فلما نظرها القوم قالوا: إذا كانت هذه فاكهتهم فكيف يكون شأن القوم ؟ نحن لا نحاربهم . وقالوا موسى عليه السلام: ﴿ فآذهَب أَنتَ وربُّك فَقَلاتِلاَ إنـــا هَاهُنـــاَ قَاعِدُونَ ﴾[2] وهذا دليل على أن القوم فطروا على مخالفة الله تعالى، والإنكار على رسله عليهم الصلاة والسلام من لدن الكليم عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي ﴾ أى: أؤيدكم بنصرى وأعينكم بعنايتى إذا أنتم خرجتم العمالقة مع رسولى موسى، فستقهروهم وتتمكنون من الأرض التى جعلتها لكم. والمعية هنا بمعـــنى الإغاثـــة والنجدة والعناية والتأييد. وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل تقدم شرحها فى الآيات السابقة، وهنا أخَّر قوله تعالى: ﴿ وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ عن قوله تعـــالى: ﴿ أقمتم الصَّلَوةَ وَءَاتَيتُم آلزّكوة ﴾ لحكمة هى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تقتضيان الإيمان بالرسل، وذكر الإيمان بالرسل بعد ذلك من ذكر الخاص بعد العـــام لمزيـــة خاصة هى الإيمان بكل الرسل وخصوصا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن اليهود كانوا يصلون ويزكون بحكم التوراة ، ولكنهم لم يؤمنوا بخاتم الرســـل عليـــه الصـــلاة والسلام، فذكر الله هنا الإيمان بالرسل بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لتقوم الحجة عليهم أنَّ كفرهم بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ كُفْرُهُمْ بالله وبجميع رسله وكتبه.

١- سورة المائدة آية ٢٤.

٢- سورة المائدة آية ٢٤.

﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ معنى عزرتموهم أى: أيدتموهم ونصرتموهم وعظمتموهم بحسن اتباعهم ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض أن يقدم الإنسان لغيره خيرا ينتفع به ويرد عليه بعد ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ضامنا لنفسه أجره من الله. وهذا القرض هو الذى يقرضه غيره من الخلق، وفى هذه الآية الشريفة بين الله لنا أن عمل الخير الذى يقوم به العامل مما ينفع المسلمين فى دينهم أو دنياهم أو أبدانهم، كأننا نعامل الله تعالى به تنزلا منه سبحانه وتعالى، ليسارع فاعل الخير إلى إعطائه، فجعل سبحانه وتعالى ما نقدمه لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من المال والخيل والسلاح للجهاد فى سبيل الله قرضا الله اقترضه منا، وهو سبحانه وتعالى تنزه عن الاحتياج، ولكنه جل جلاله يتفضل علينا بالمال وبالتوفيق لبذله فى سبيله، ثم يتفضل فينسب ذلك إلينا وأنه اقترضه منا، وهذا فضل من الله تعالى على فضل، وهو المتفضل جل جلاله كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلفَضلِ ٱلعَظِيمِ ﴾[1] وفى قوله: (العظيم) بعد الفضل برهان على ما بينت، فله الحمد سبحانه وله الشكر.

هذه الآية كلها عجب ! رب كريم خلقنا من العدم، وهدانا سبحانه للإسلام، ووفقنا للجهاد فى سبيله، وأمدنا بنعمة المال والعافية والتوفيق لإعلاء كلمته وتجديد سنن نبيه، ثم يتفضل بعد ذلك فيجعل ما هو منه وله مِنَّا ولنا، وثم يتنزل سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وقرضا حسنا أن يكون من مال حلال، وأن يخرجه المقرض مطمئن القلب منشرح الصدر بإخراجه، معتقدا أنه وفى بعهده، وأدى أمانة ربه، وصدق فى بيعه لله ماله ونفسه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ﴾[2] وهذا العمل يجعل القرض حسناً.

١- سورة آل عمران آية ٧٤.

٢- سورة التوبة آية ١١١

وفى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيل ...﴾ الآيـة، أن هذا الميثاق يتضمن حقيقتين: الحقيقة الأولى: ما واثقهم به على يد موسـى عليـه السلام مما قبلوا فيه الميثاق وخانوا، وقد بينه الله تعالى فى الآيات السابقة. والحقيقة الثانية: هى الإيمان بخاتم الرسل الذى بين الله صفته واسمه ومولده فى التوراة، وأخبر موسى عليه السلام عنه صلوات الله وسلامه عليه فى أسفار التوراة، فخانوا هـذا الميثاق وكفروا بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، كما خانوا موسى ومن بعده، فـاليهود – قاتلهم الله تعالى – فطروا من أولهم إلى آخرهم على الخيانة والغدر، والكفر بـالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم، وهذه الحالة فطرة فطروا عليها ، وهـم شر الأعداء للمسلمين من حيث العداوة الدينية .

﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أى: لأغَطِّيَنَّ عنكم ذنوبكم حـتى تلقـونى وليس عليكم شاهد بذنب ﴿ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَـا الأَنْهَـار ﴾ اللام هنا داخلة على جواب القسم وهى للقسم ، وجواب القسم صـار جوابـا للشرط فى قوله تعالى : ﴿ لَئِن أَقَمتُمُ الصَّلَوةَ ﴾ وتكفير السيئات وإدخال الجنـة مقَّيد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبالإيمان بالرسل علـيهم الصـلاة والسـلام ، والجنات هى البساتين الكثيرة الأشجار التى بستر شجرها مـن بداخلـها عمـن بخارجها ، ﴿ تَجرى مِن تَحتِهَا الأَنهرُ ﴾ أى :من تحت أشجارها .

﴿ فَمَن كَفَرَ بَعدَ ذَلِك منكُم فَقَد ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيل ﴾ أى: فمن جحـد بما وثق الله عليه من الإيمان بالله والإيمان برسله جميعا – وخصوصا بمحمـد ﴿ ﷺ وآله﴾ –فقد ضل سواء السبيل، الفاء رابطة للجواب، وقد للتحقيق، وضـل أى: مال وفارق وخالف، وسواء السبيل هو وسط الطريق المستقيم، وهو أقرب طريق يوصل إلى الله تعالى أو لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكتاب الله هو الحبل الممدود بين الرسول وبين الله تعالى ، من يمسك به وصل إليه سبحانه ، ومن خالفه هـوى إلى

نار جهنم ، ومن ضل سواء السبيل كان من أصحاب النار اللذين يخلـــدون فيهـــا أبدا.

قوله تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِـــيَةً يُحَرِّفُــونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّـــنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٣﴾

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ هذه الآية مرتبطة بالتى قبلها وهى قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ فنقضوا عهـــدهم وميثاقهم الذى واثقهم الله به، وكفروا بالله وبنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وبكفـــرهم قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ٠٠٠﴾ الخ الآية، أى فبنقضهم الميثـــاق الذى واثقهم الله عليه لعنهم الله تعالى، أى : أبعدهم وصدهم عن سبيله وجعـــل مآلهم إلى النار ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أى : جامدة جافية لا تقبل نور الإيمان، والقلب القاسى هو الذى عليه قفل، والقاسى أيضا فى اللغة هو الـــدينار المزيـــف المختلط بحديد ونحاس وذهب. وكذلك القلب القاسى هو الممتلىء بجويفه نفاقـــا وجحوداً لله تعالى ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بدليل قراءة : وَجَعَلنَا قُلُوبَهم قَسِـــيَّةً . كالدنانير القَسِيَّة المزيفة. وفى هذه الآية بيان لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن اليهـــود جبلوا على نقض الميثاق، وعلى خيانة الله ورسوله منذ موسى عليه السلام، فـــلا عجب إذا أظهروا ما جبلوا عليه مع خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أى: يغيرون أحكام الله تعالى وبشائره بنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وكم غيروا أحكاما وأخبارا لنيل ما يفنى، ومن ذلك أن وفدا من اليهود قدموا على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فسألوه، فأجابهم بما علموه فى التوراة، فاعترفوا بأنه رسول الله الذى ورد خبره فى التوراة، فلما توجهوا إلى كعب

بن الأشرف وكان يعطيهم عطايا من التمر هَدَّدهم بمنع العطايا، فغيروا ما قالوه عند رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وقالوا: إن نبى آخر الزمان من ولد داوود عليه السلام، افتراء على الله تعالى وتغييرا لأسفار التوراة، وكثيرا من هذا، حتى كان أحبارهم يقولون لبعضهم : إذا أتاكم محمد بما عندكم فاتبعوه وإن خالف ما عندكم فلا تتبعوه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ . ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ أى: تركوا نصيبا وافرا مما ذكرهم الله به وبينه لهم الأنبياء من لدن موسى عليه السلام، وقد تقدم تفسير هذه الآية فيما سبق.

﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ ﴾ أثبت الله بهذه الآية ما عليه اليهود من خبث الطبع، ومن الانقياد للنفس الأمارة بالسوء التراعة إلى ما يغضب الله تعالى، ومعنى هذه الآية لأن الله تعالى يخبر حبيبه ومصطفاه ﴿ﷺ وآله﴾ أن اليهود لا ينفكون يخادعون الله ورسوله، ويصدون عن سبيله سبحانه وتعالى، وقوله: ﴿ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يراد بها القول، إذ لو كان المراد بها واحدا لقال: خائن. وإن كان بعض العرب يدخل التاء على المشتقات كاسم الفاعل واسم المفعول أيضا، وعلى المصدر بمعنى خاص، ولكن تأويل الآية بما بينت أوْلى (إلاَّ قَلِيلاً) مستثنى من الهاء والميم فى قوله: (منهم) المتقدمة. ولما كان من حكمة بعثه الرسل أن يكونوا حجة على الجاحدين من قومهم أراد جل جلاله أن تكون الحجة على اليهود من كل أنحاء الدعوة فقال: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا إذا كان الأمر من الله تعالى لرسوله بالعفو عن جميع اليهود. أما إذا كان مراد الله تعالى بالعفو والصفح عَمَّنْ استثناهم فتكون الآية محكمة لا نسخ فيها، ويكون العفو والصفح عن صغائر من استثناهم الله تعالى، لأن قول الله تعالى ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ بذكر العفو والصفح هنا دليل على أن الصفح والعفو

لا يجتمعان إلا لمؤمن، ويكون العفو والصفح عن هفواته وضغائره وسيئاته الـتى لم يتوعدنا الله فى القرآن بدخول النار عليها.

ويظهر أن المراد بالعفو والصفح هو جميع اليهود بدليل قوله تعالى : ﴿ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لأنه ورد فى الحِكَم أن السيئة وراء السيئة سيئة، وأسوء منـها السيئة وراء الحسنة، والحسنة وراء الحسنة حسنة، وأحسـن منـها الحسـنة وراء الإساءة، والمثل الأعلى فى الأخلاق هو رسول الله الذى أدبه الله فأحسن تأديبـه، وهنا يحتسى أهل العلم بالله طهور راح الأخلاق، فإذا نظرنا إلى ما هَمَّ به اليهـود من رمى رسول وأصحابه بحجر الطاحون وهو ﴿ ﷺ وآله﴾ جالس فى ظل الجدار، وإلى أمر الله له ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعفو والصفح، لعلمنا كيـف يجمِّـل الله حبيبـه ومصطفاه بجمال نحنُّ به إلى مواجهته العلية. وهنا نعلم أن اليهود – قاتلـهم الله – هم شرُّ خلق الله على الإطلاق، لأن عنادهم وكيدهم لرسول الله كـان يقابلـه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعفو والصفح، ولا يزدادون إلا نزوعا إلى الشر.

﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الإحسان نتيجة اليقين الحق، ولا يكـون ذلك إلا تفضل الله على المؤمن بمشاهد التوحيد العلية، التى بها يكـون محسـنا فى أعمال القلب وأعمال الجوارح، إحسانا يرفعه إلى مقامات الشهود بعـد كمـال الإخلاص، فإن الرجل قد يكون مخلصا ولا يخلو قلبه من شوب الشرك، كما قـال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (والمخلِصون على خطر عظيم) .

وقد بشر الله المحسنين بمحبته لهم، وليس فوق محبة الله تعالى للعبـد مقـام يعرف، لأن الله تعالى إذا أحب عبدا جمله بمعانى صفاته فصار يبصر بالله، ويسـمع بالله، ويتكلم بالله، ويبطش بالله، ومن منح هذا المقام من الله تعالى فقد أوتى خيرا كثيرا، قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الطويل برواية البخارى: (ولا يـزالُ

عبدى يتقربُ إلىَّ بالنوافلِ حتى أحبهَّ، فإذا أحببتهُ كنتُ سمعَه الذى يسمع به وبصَره الذى يُبصِرُ به ...) الحديث.

وفى قوله: ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إشارة إلى أن، المؤمن إذا عفا عن المسىء وصفح عنه فقد أحسن كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: من عفا عن المسىء فهو محسن. وليس كل من عفا فقد أحسن، وإنما العفو الذى يكون فاعله محسنا هو عفو الدعاة إلى الله، الذين جعل الله لهم ما يشاءون عنده، فيعفو مع قدرته على أن يغرق القوم أو يخسف بهم الأرض أو يهلكهم، كما فعل نوح وموسى ولوط، ولكن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كان كلما أوذى من قريش أو من أهل الكتاب قال: (اللهمَّ اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون) وهذا العفو هو الإحسان الأكمل.

قوله تعالى: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴿١٤﴾

بعد أن بين بنا سبحانه وتعالى ما جبل عليه اليهود – قاتلهم الله – من الكفر بالله وبرسله، ومن تحريفهم أحكام الله وأخباره فى التوراة وخصوصا ما أنزله الله على موسى عليه وعليهم السلام من نعوت نبينا ﴿ ﷺ وآله﴾ ، يبين لنا ما عليه النصارى من الكفر بالله ورسوله، وتحريف كلامه سبحانه، فقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أى: أن الله تعالى يخبرنا أنه أخذ ميثاق بنى إسرائيل، وأخذ من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ فتركوا نصيبا مما ذكرهم الله به فى الإنجيل على لسان عيسى من صفات نبينا

محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وقد أخبرهم المسيح عليه السلام أنه يتمنى أن يَحْمِل حذاءه، وأنه رسول الحرب والملاحم، ينتقم الله به من أعدائه وأعداء أنبيائه، وقد سماه

(البارقليط) أى: راكب الجمل بالعبرية، وقد واثقه الله وواثق الحواريين معه، وفى الإنجيل عندما سأل اليهود يحيى المعمدان الذى كان يُعَمِّدُهُمْ بماء المعمودية: أإيليا أنت ؟ قال : لا. آلمسيح أنت ؟ قال: لا. آلرسول أنت ؟ قال: لا. فأثبتوا بأسئلتهم ثلاثة غير يحيى: إيليا والمسيح والرسول، فإيليا والمسيح سبقا وبقى الرسول، ومن هو الرسول ؟ هو ولا شك خاتم الرسل وقد أخبر عنه المسيح بأنه يحصدهم بالسيف حصداً، وأنه النبى الأمى الذى بينت بعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ كل الكتب السماوية، فما من نبى ولا رسول إلا وبشر بقدومه، وتمنى أن يكون من أمته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ﴾ ولم يقل: من النصارى، إشارة إلى أنهم كذبوا فى دعواهم النصر للمسيح، لأنه ورد أن المسيح قال: ﴿ مَن أنصارِى إِلَى الَّله قَالَ الحَوارِيُّونَ نحنُ أنصارُ الَّلهِ ﴾[1] فمعنى نصارى هنا أى: ناصرون وليسوا منسوبين إلى البلد الذى ولد فيه عيسى حيث كانوا يسمون المسيح بالناصرى، ولو كان هذا الاسم للنسبة لكان ناصريون، فيكونون كذبوا فى النسبة أيضا للفظ ناصرة، وأما معنى كذبهم فلأنهم خالفوه بمغالاتهم فيه التى بلغت حَدَّ الإغراق بقول بعضهم: إنه ابن الله من — النسطورية — وقول بعضهم: إنه الله - كقول اليعقوبية منهم — وقول بعضهم: إنه أقنوم الكلمة. وهم القائلون بالحلول كالملكانية منهم. ولا تعجب، فإنك تراهم يكتبون على آيات إنجيلهم: الكتاب المقدس لربنا ومخلصنا يسوع المسيح. كما قال له بطرس — وهو من خواصه — عندما أحيا العازر: أنت

١- سورة آل عمران آية ٥٢.

الرب. فغضب حتى نتف بعض شعر لحيته وقال: يا بطرس لقد قلتَ كلمةً أغضبت الرب فوق عرشه وستنكرنى بعد. فكان كما قال هو فى صريح أناجيلهم فـأنكره بطرس عند المحنة. وإن البهائم السائمة لو نطقت لأنكـرت هـذا الاعتقـاد، لأن العقول لا تقبل حكما على من بيده ملكوت كل شيء — من أبدع السموات وما أحاط بها من عرش وما فوق ذلك، والأرضين وما عليها ومن عليها بكلمة واحدة من كلماته — أن يحل فى فرج امرأة، تحيط به قاذورات المشـيمة وفضـلات دم الحيض، أو يحل جسم طوله سبعة أشبار، تنزه ربنا وتعالى علوا كبيرا عما يصفه به المبطلون.

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء ﴾ هذه الآية الشـريفة معجـزة مـن معجزات رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأنها تضمنت خبرا عن حقيقة وقعت، وقـد اشتد وقعها من بعثة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الآن، وما بعـد الآن إلى يـوم القيامة. فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إليه أثار اليهـود الكهنـة والكتبـة والفريسيون الغارة على أتباع المسيح، فسلطوا عليهم الرومان الذين كانـت لهـم السلطة فى آسيا، فاضطهدوا أتباعه حتى نجوا بأنفسـهم، فـاجتمعوا فى غابـة فى الطريق، فأتاهم إبليس فى هيئة رجل عراقى وجلس يبكى بكاءً مراً حتى أبكـاهم، فسألوه فقال: أبكى حزنا على المسيح، ثم خاطبهم فقال: الذى يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين حيوانا من هو ؟ ثم أسرع فقال: هو الله، فسلم رجل منهم وأنكر عليه الثلاثة، فحول الْمُسَلِّمَ إلى يمينه، ثم التفت إليهم وقال: الذى يعلم الغيب فيخبرنا عما فى بيوتنا وعما فى جيوبنا وقلوبنا، وولدته أمه العذراء من غير أب، وَفَعَلَ وَفَعَلَ، من هو ؟ ثم أسرع وقال : هو ابن الله ، فسلم له آخر وأنكر عليه اثنان، فحول الآخر إلى يمينه، والتفت إلى الاثنين فقال: الذى نزل من بطن أمه فتكلم بما أعجز أنبياء العصر ، ثم أظهر من الأعمال ما لا يقدر عليه مخلوقٌ ، وليس

له أب وفَعَلَ كيت وكيت مما ذكره هو ثالث ثلاثة ، وبقى معهم حتى سلب من قلوبهم تعاليم عيسى عليه السلام ،وأبدلها بصريح الكفر، وقد نقل هذه الرواية صاحب كتاب عجائب المخلوقات بسنده.

بينت لك أن هذه الآية معجزة، لأن القوم اختلفوا عند رفع المسيح مباشرة، فالذى جاء منهم إلى مصر وهو مرقس نشر الدين ممزوجا بالعقائد الوثنية التى كانت قبل المسيح ببضع آلاف سنة، وذلك أن التثليت كان دينا فرعونيا وهنديا، أما أنه فرعونى فكانوا يعتقدون أن الآلهة ثلاثة (الشمس والماء والهواء) ويرمزون إليها بإيزيس يعنى الأب، وأوزوريس يعنى الأم، وآمون رع يعنى الابن. وبعضهم كان يقول: الشمس والماء والأرض، أو الشمس والأرض والنبات. وعند الهنود القدماء كان معبودهم الثالوث المقدس، هو جسم إنسان عليه ثلاثة رؤوس كما يرمز الفراعنة بصفة القوة بجسم سبع عليه رأس إنسان (أبو الهول) وأما الذى فر إلى إيطاليا فإنه قال بالحلول، حتى صار البابا هناك يبلغ مقام القداسة لأن المسيح حل فيه، وغيرهم من المانوية والملكانية لهم مذاهب تقرب من تلك المذاهب، وبينهم من الحروب والخصومات ما بقى أثره إلى اليوم، وليست الحروب السبعينية ببعيدة عن الذاكرة التى وقعت بينهم فى إيطاليا، وما وقع فى مصر بين جمعية التوفيق من الأقباط وبين البطرك حتى أخرجوا البطرك مهانا إلى الدير، ولا تزال الحرب بين دول الإفرنج النصارى شديدة جدا، بل وبين اليهود والنصارى، فهم كطرفى المقص لا يجتمعون إلا للتفرقة.

فقوله تعالى: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ جائز أن تكون معنى الآية: ألقينا بين اليهود والنصارى كما هو حاصل، وبين النصارى وبعضهم. والعداوة بسبب الاختلاف الدينى والبغضاء بسبب الحسد.

﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى: أن أهل الكفر بالله، بل وأهل معصية الله تملأ ظلمة الكفر وظلال المعاصى تجاويف قلوبهم، فتسلب منها الرحمة والعاطفة والحب فى الله والبغض فى الله، ويمتلىء تجويف قلوبهم حسدا أو غلا وسخائم، حتى يتمنى كل واحد للآخر الشر والسوء، وبذلك تقع العداوة والبغضاء بينهم. وأما قلوب أهل الإيمان بالله فيترع منها ما فيها من الغل فيصرون إخوانا متحابين فى الله. وتلك العداوة والبغضاء لا تفارق أهل الكفر بالله حتى يؤمنوا بخاتم الرسل صلوات الله سلامه عليه.

﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى أن ما أصابهم فى الحياة الدنيا بسبب الكفر لا ينجيهم من العذاب على الكفر يوم القيامة، فإن قوله تعالى: (وَسَوفَ) تدل على الزمن البعيد الذى هو يوم القيامة ﴿ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ ﴾ أى: يقيم عليهم الحجة بكفرهم ولديها يساقون إلى نار جهنم، وقد يكون إنباء الله تعالى إياهم بقراءة كل واحد منهم طائره، وقد يكون بسوقهم إلى النار وكشف الحقائق لهم حتى يقولوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[1].

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ المنادى هنا هم اليهود والنصارى لأن ألـ الداخلة على الكتاب للجنس أو للنوع، أى: يا أهل التوراة ويا أهل الإنجيل ﴿ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعنى محمدا ﴿ ﷺ وآله ﴾

١- سورة السجدة آية ١٢.

(يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتب) يظهر لكم صحة أحكام كثيرة كنتم تخفونها عن الناس عملا بالحظ والهوى، ومما بينه ﴿ ﷺ وآله﴾ حكم الرجم الذى أخفاه اليهود. وقد ورد أن وفدا من اليهود قدموا على رسول الله يسألونه عن الرجم فقال: (من أعلمكم ؟) فقالوا: ابن صوريا، فقال له رسول الله: (أنت أعلمهم ؟) فقال: سل ما شئت، فقال له ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أنت أعلمهم ؟) قال: إنهم يزعمون ذلك، قال: فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى الذى رفع الطور وناشده بالمواثيق التى أخذت عليه حين أخذها، قال: أفعل، فقال: إن نساءنا نساء حسان، فكثر فينا القتلى فاختصرنا أخصورة، فجلدنا مائة وحلقنا الرؤوس وحلقنا بين الرؤوس إلى الدواب، - أحسبه قال: الإبل – قال: فحكم عليهم بالرجم، وقال الله فيهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ٠٠٠﴾ آية.

﴿ وَيَعفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ أى: يترك مما أخفيتموه عن الناس سترا لحالكم، لأنه موضح فى القرآن، ولم يترك رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ما أخفوه إقرار على باطل، بل لأن الله تعالى بين ذلك كله فى كتابه العزيز، فكان جواب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لوفد اليهود قاصرا على ما سألوه عنه من الرجم.

﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ النور هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن النور تنكشف به الحقائق لطالبها كالشمس،وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه شمس شمس الله تعالى الذى يبين للقلوب العقائد فتنعقد عليها، وللعقول آيات الله فتتفكر فيها ، وللأرواح جمال الله الظاهر فى العالم أجمع من معانى صفاته وأسرار أسمائه، وبهذا النور تكون النجاة فى الدنيا والآخرة، وبغيره يكون الهلاك فيهما. فرسول الله هو النور الذى جاءنا من عند الله، والكتاب هو القرآن المجيد، ومعنى (مبين) بينة معاينه، قوية ألفاظه، غض نضر، يحلو كلما

يتكرر ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيل ﴾[1] الآيـــة. والقـــرآن المجيد مهيمن على كل الكتب السماوية، ناسخ لها، وهو مبين فى الحقيقة للغيـــب المصون.

قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْـرِجُهُم مِّـنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

﴿ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾ أى: يرشـــد ويســـدد ويوفق به الله من اتبع رضوانه، والرضوان معنى من المعانى العالية وهو ضد السخط، والرضا من الله تعالى عن العمل قبوله، وعن العبد مواجهته بجمال وجهه. والرضـــا من العبد عن الله هو أنس القلب بمواقع القضاء، وإنما الرضا عن الله فيمـــا قَـــدَّرَهُ، والصبر لله فى المسارعة للقيام بما أمر به وترك ما نهى عنـــه، واتبـــاع الرضـــوان، والمسارعة إلى القيام بما جاء به هذا النور من الله، وما جاء به الكتاب من عند الله.

فالهداية يشترط فيها اتباع رضوان الله تعالى، ومن اتبع رضوان الله تعـــالى أقام الحجة لنفسه أن الله هداه ﴿ سبُلُ آلسَّلاَمِ ﴾ أى: طرق السلام الموصلة إلى الله تعالى والسلام هو الله، والمعنى: (يهدى به اللهُ من اتبع رضوانه سبل السلاَم) التى هى الصراط المستقيم، وإنما أتى به مجموعا هنا فقال: (سبل) وأفراده فى غير هذه الآية فى قوله: ﴿ آدعُ إِلَى سبيلِ ربكَ ﴾[2] وقوله ﴿ آهدِنَا الصراطَ المستقيم﴾[3] للدلالة على أن تعاليم الله ووصاياه كل منها فى حد ذاته سبيل من سبل الســـعادة، وأن العمل بكل حكم من أحكام الإسلام إنما هو سير على الصـــراط المســـتقيم،

١- سورة فصلت آية ٤٢.

٢- سورة النحل آية ١٢٥.

٣- سورة الفاتحة آية٦.

وسلوك على المنهج القويم، والمعنى واحد لأن الـ في الصراط للجنس، والمراد به كل وُجْهَة من وُجَهِ العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات التى يكلف بها المسلم، فهى سبيل من سبل الله تعالى. والمراد من اتبع طرق الله التى وضعها لعباده التى هى مستقيمة قويمة، وهى أقرب طريق بين نقطتين معلومتين، وهى أقصر الطرق وأقربها.

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه ﴾ والهاء والميم فى(ويخرجهم) عائدة إلى من فى قوله: ﴿ مَنِ اتَّبَعَ ﴾ والظلمات هى الكفر والنفاق ويلتحق بهما البدع المضلة ﴿ إِلَى آلنُّورِ ﴾ أى: الإيمان أو إلى الاستقامة ﴿ بِإذنه ﴾ أى: بتوفيقه وبالحسنى السابقة.

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: ويرشدهم ويقبل بهم ويسددهم ﴿ إِلَى صِرَاطٍ ﴾ أى: طريق قريب جداً، لأن الصراط المستقيم هو الخط المحدود بين نقطتين معلومتين وهو أقرب خط بينهما، بخلاف الطرق المعوجة فإنها مع طولها كثيرة العقبات والمهاوى، وهذا الصراط المستقيم كالحبل الذى يكون طرفه فى يد السالك، والطرف الآخر عند المقصد الأعظم.

قوله تعالى: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ الكفر معلوم وهو ستر الحق وتغطيته، وهذه الآية قاصمة لظهور النصارى، لأن المسيح ابن مريم إنسان خرج من بطن أمه، فمكث تسعة شهور داخل المشيمة بين قاذوراتها وفضلات الحيض، وجنين فى مشيمة لا تسع أكثر من ثلاثة أرطال يستحيل على العقل – بل

وعلى البهائم السائمة – أن تتصور أن بديع السموات والأرض وقيومهـــا تســـعه المشيمة، أو تجانسه، وهو العلى العظيم، فقوله تعالى: (لقد كفر) أى: غُطِّىَ عنهم الحق وسُتِرَ، لأن القوم انحطوا عن أسفل درجات الجماد، لأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله أو هو ابن الله، ولا يعتقد هذه العقيدة من سطع على قلبه ساطعة نور مـــن أنوار الحق، فتحقق كفرهم أى: تغطية الحق عنهم، ولما كان الإنسان دينيا بالفطرة؛ كانت النفوس الخبيثة بعيدة عن الحق تقبل الباطل مُسَـــلّمةً مـــن غـــير نظـــر ولا استدلال، كما فعل أول إنسان كفر بالله وهو قابيل الذى قتل أخاه هابيل، فـــإن الشيطان أتاه فقال له: إن النار أكلت قربان هابيل لأنه كان يعبدها فاعبد أنت النار تقبل قرابينك، فبنى للنار بيتا وعبدها هو وأولاده، حيث كان آدم حيا وقابيل أول بنيه، ولكن نفسه صيغت من سجين فقتل أخاه وعَبَدَ النار. ولا يزال يجرى هـــذا الفساد فيمن خلق الله نفوسهم من هذا الخبث إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾[1].

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّـــهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هذه الآية الشريفة حجة دامغة على انفراد الله بالألوهية، واتصاف المسيح بالعبودية الكاملة، فلا فرق بين المسيح وبـــين أى مخلـــوق مـــن مخلوقات الله الذين فضله الله عليهم، لأنه وقد خلقه سبحانه من غير أب كما خلق حواء من غير أم، كما خلق آدم من غير أم ولا أب، بل وكما خلق الكون جميعـــه من لا شيء، ولذلك فإن الله تعالى يأمر سيد الرسل عليه الصلاة والسلام فيقول:

(قُل) للنصارى وخصوصا اليعقوبية منهم القائلين بالحلول ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ الفاء

١- سورة المائدة آية ١٣.

هنا تفسيرية، ومن للاستفهام الإنكارى، و﴿ يَمِلكُ مِنَ آللَّهِ شَيْئاً ﴾ أى: يقدر أن يمنع إرادة الله إذا قدرت إهلاك المسيح وأمه، لأن الله هو الإله القادر الفاعل المختار سبحانه، وما سواه ومن سواه عبيد مقهورون وعباد مربو بون، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، وقد أهلك الله مريم أم المسيح فلم يملك المسيح لها مــن الله شــيئا، وسلط أعداءه اليهود على المسيح فأذلوه وأهانوه وهموا بقتله وصلبه ولكن الله رفعه إليه، لا لأنه ابن الله – تتره وتعالى – بل لأنه عبد فضله الله بالرسالة، فأهانه أعداء الله تعالى كفرا بالله، وجحدا لآياته، فأكرمه الله برفعه إلى السماء، وسيهلكه بالموت بعد نزوله من السماء من غير أن يقدر أحد على أن يمنع ما قدره الله على عبد من عبيده، وإن كان النصارى لم يقولوا – فى مقام إقامة الحجة عليهم -: إن المســيح هو الله. إلا أهم فيما بينهم يقولون ذلك – وإن لم نسمعه منهم – فإن خــبر الله عنهم حق وصدق، وإن أعلم رجل منهم إذا ذكر المسيح قال: إنه ربنا ومخلصــنا. ويكتبون تلك الكلمات على الأناجيل، وقد أخبرنا الله عن سوء ضمائرهم وخبيث مقاصدهم للإسلام وأهله، وأخبرنا بعقائدهم الفاسدة التى تُسَوِّد الوجوه إذا نطقوا بها، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنــتُمْ تُخْفُــونَ مِــنَ الْكِتَابِ ﴾[1] ومما بينه لنا قولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإنكارهم صــفات رسول الله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ التى بشر بها عيسى فى الإنجيل وغير ذلك.

﴿ وَمَن فِى آلأَرضِ جَمِيعاً ﴾ هذه الآية حجة دامغة على أن الأرض ومن فيها عبيد أذلاء مضطرون، لا حول ولا قوة لهم إلا بالله العلى العظيم، وأنه سبحانه هو المنفرد بالقوة والقدرة والقهر، لو خسف الأرض وأهلك من فيهما لا يمنعه مانع من ذلك، تعالى الله علوا كبيرا، وكلنا نؤمن أن الأرض و السموات وما فيها ومن فيهما تهلكان وتبدلان حتى لا يبقى مقرب ولا روح طاهرة إلا وتهلــك بــالموت،

١- سورة المائدة آية ١٥.

وينادى: ﴿ لِمَن المُلك اليَومَ ﴾ فلا يجيب أحد فبقول سبحانه: ﴿ لِلَّــهِ الواحِــدِ القَهَّارِ ﴾[1] إذا تقررت تلك الحقائق، فكيف يقول المبطلون إن الله هو المسيح ابن مريم ؟ .

﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هذه الآية الشريفة مــن مقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وقد أمره الله بأن يقولها للنصارى، وهى حجــة، لأن ما فى السموات وما فى الأرض مملوك لله، مخلوق له سبحانه، وليس فى الأرض من كائن كان نباتا أو حيوانا أو إنسانا إلا وهو مقهور بقهر الله تعالى، ليس فيهــا نوع فيه شيء من الألوهة، بل ولا فى الله سبحانه وتعالى شيء من الكون، وتــتره ربنا وتعالى عن أن يكون فى الأرض وفى السموات منه شيء، أو عن أن يكون من الكائنات فى ذاته شيء. فقوله: ﴿ ولله ملــكُ السّــمَواتِ وَ الأرضِ ﴾ إيجــاداً وإمداداً، فالمسيح وأمه ومَن فوقه عبيد لله مملوكون له سبحانه، وكــل رســل الله صلوات الله وسلامه عليهم عبيد له سبحانه، بل هم أعلم الخلق به، وأشدهم خوفا منه، وتعظيما لذاته جل جلاله، وما كان لإنسان يرى غيره يأكل ويشرب ويمرض ويتغوط ويفرح ويحزن ويخاف ويأمن ثم يتوهم أن فيه من الله شــيئا، أو مــن أن ينتسب لله بغير العبودية الخالصة كما قال تعالى: ﴿ إن كُلُّ مَن فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[2] فإذا كان سكان السموات ومن فــوقهم مــن الأرواح العالية، وما فوق ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله تعالى عبيد مقهورون وعباد مربو بون، فكيف يتوهم أقل الناس عقلا أن واحدا منهم هو الله ؟ أو ابن الإلــه ؟ أعاذنا الله تعالى من الكفر به سبحانه.

١- سورة غافر آية ١٦.

٢- سورة مريم آية ٩٣.

﴿ يَخلُقُ مَا يَشَآء ﴾ يعنى أنه سبحانه هو الخلاق العظيم، إذا شاء أن يخلق خلقاً لا يُكرهه غيره على خلق ما لا يشاؤه، أو من لا يشاؤه، وهو سبحانه إذا شاء أن يخلق إنسانا من الطين خلقه كما خلق آدم، أو إذا شاء أن يخلق إنسانة من إنسان خلق كما حواء من آدم، أو إذا شاء ، يخلق إنسانا من امرأة بدون أب خلق كما خلق عيسى، أو إذا شاء أن يخلق إنسانا من ماء رجل وامرأة خلق كما خلق بقية الناس، وإذا أراد أن يعيد إنسانا بعد موته بمئات من السنين فعل كما حصل لأهل الكهف وكذلك عزير عليه السلام، وكل مخلوق خلقه الله فهو عبد لله سبحانه، وليست له إرادة ولا اختيار فى وجوده من العدم، وفى إمداده بسوابغ النعم، لا فرق بين عيسى وغيره من الخلق من حيث الإيجاد والإمداد.

وفى هذه الآية معنى، وهى أن ما كان يقوم به عيسى عليه السلام من الأعمال المعجزة للبشر كتصوير الطينة بصورة الطير ثم ينفخ فيها بإذن الله مما يخلقه الله تعالى، فإنه سبحانه هو الذى يخلق لحمه ودمه ونفسه وما يلزم الطير من الجوارح، وليس لعيسى بذاته قدرة على أن يخلق من الطين كهيئة الطير، ولكنه جل جلاله يكرم رسله بما يشاء حجة لهم على قومهم ومعجزة يثبت بها الله تعالى أنه رسول من قِبَل الله، لأن الإنجيل ليس معجزة فى ذاته، فاحتاج إلى معجزة تقوم بها الحجة على أن الإنجيل من عند الله تعالى، وأما القرآن المجيد فهو معجزة فى ذاته، بما جمع الله فيه من المعجزات الباهرات التى تظهر لقارئه بمجرد تلاوته، فإخبار عيسى عليه السلام عن المغيبات، وإبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير، كل ذلك خلقه الله وقدره، وأظهره بقدرته سبحانه لا بقدرة عيسى عليه السلام، ومن كان له عقل إنسانى يعقل به ورأى ما يعتور عيسى عليه السلام من الجوع والعطش والبول والغائط والنوم واليقظة والخوف والطمع وقدرة اليهود على أذيته – مع عجزه عن دفع الأذية عن نفسه – يعتقد حقا أن عيسى

عبد مسكين، وأن ما ظهر على يديه من خوارق العادات لرب قوى قادر، وأن عيسى بما اعتوره من تغير الأحوال والشئون ينادى بلسانه – لسان الحال – أنا عبد مخلوق ورسول من قبل الله. فالله تعالى أرسله ليجدد ما اندرس من ناموس موسى، ويكمل لهم الناموس بحسب زمانهم، وقد صرح بهذا فى الإنجيل فى أكثر كلامه.

﴿ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقدم الكلام على هذه الآية كثيرا ولا نخليها هنا من البيان، هذه الآية خبر من الله مؤيد بالبرهان الفعلى المشهود للحس والعيان، والمشهود للعقل السليم بما أبدعه الله فى هذا الكون، وهو البرهان القرآنى الذى سجدت له العقول، وسكرت منه الأرواح، لا البرهان الوضعى الذى وضعه الخلق ليكون ميزانا لسياساتهم وصناعاتهم (المنطق)، فصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم، وهو سبحانه القادر على إيجاد كل شىء، بل وعلى إعدام كل شىء أوجده، قدير لا يُسْألُ سبحانه عما يفعل.

قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴿١٨﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى عن اليهود والنصارى، أنزلها سبحانه ليرتب عليها حكمه عليهم بكذبهم عليه سبحانه.

أما اليهود فقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أتى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عثمان بن إصار وبحوى بن عمر وشاس بن عدى فكلموه، فكلمهم ﴿ ﷺ وآله﴾ فدعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله هذه الآية فيهم. وورد برواية ابن

جرير الطبرى فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ .. ﴾ إلخ، قال: أما أبناء الله فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدا من ولدك (السامرى) يدخلون النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فأخرجهم، فذلك قوله: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعدُوَداتٍ ﴾[1].

وأما النصارى فإن فريقا منهم قال: المسيح ابن الله، والعرب قد تخرج الخبر إذا افتخرت عن الجماعة وإن كان افتخر به واحد منها، فتقول: نحن الأجواد الكرام، وإنما الجواد فيهم واحد منهم. فكما قالوا: المسيح ابن الله، والمسيح معبودهم فجعلوا أنفسهم أبناء الله، وجائز أنهم تمسكوا بقول المسيح فى الإنجيل: (اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء) وعلى فرض صحة هذه الكلمة عن عيسى السلام، فإن المراد بأبوة الله له ولهم إنما هى الرحمة والعناية والحنانة والشفقة بسبب ما أسداه للخلق من سو ابغ النعم – وليس مراد عيسى عليه السلام بالأب كأبوة الرجل لابنه من ظهره، تنزه الله وتعالى علوا كبيرا –.

والنصارى لا يقولون نحن أبناء الله بهذا المعنى – قاتلهم الله على جهلهم – لأن التوراة والإنجيل ثبت بهما أن ابن نوح عليه السلام كفر وغرق مع الكافرين، و لم ينفعه نوح. وجهلوا أن امرأة نوح وامرأة لوط – كما ثبت فى كتبهم السماوية – كانتا تحت رسولين صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا.

فإن الله جل جلاله لو يتخذ من الخلق ولدا، بل و لم يحب أحدا من الخلق لذاته ولا لنسب، ولكن الذى يحبه الله ما زاد على الإنسان من العلم والعمل، ومن الأدب لله والخشية منه، وحسن اتباع رسله عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

١- سورة آل عمران آية ٢٤.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم ﴾[1] ثم أقام الله الحجة على كذبهم وافترائهم بقوله: ﴿ قُل لِم يَعَذِبُكُم بذُنُوبِكُم ﴾ يأمر حبيبه محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله: قل لليهود والنصارى الذين يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه إن دعواكم هذه كذب، بدليل أنه سبحانه وتعالى عذبهم فى الدنيا بنتق الجبل فوقهم، ومسخهم قردة وخنازير، وبأمرهم أن يقتل بعضهم بعضا لعبادة العجل، وبإجلائهم من بيت المقدس على يد الرومان، وبضرب الجزية عليهم وبإلقاء العداوة والبغضاء بينهم وبين والنصارى وبين بعضهم، وهذا عذاب أثبت غضب الله عليهم. بخلاف ما يبتلى به المؤمن من المحن فى الدنيا، فإن المصائب فيها رحمة من الله تعالى لوقوعها بسبب نصرة الحق جل جلاله، وإعلاء كلمته ونشر دينه. بخلاف ما أصاب اليهود، فإنه بسبب كفرهم وخروجهم على أنبيائهم ومخالفتهم أمر ربهم، وشتان بين ما يصيب المؤمن فى سبيل الله، وبين ما يصيب الكافر والمنافق فى سبيل الشيطان. فإن المصائب الأولى ترفع درجات المؤمنين عند الله تعالى، ومصائب اليهود والنصارى عاجل مقت الله لهم وغضبه عليهم فتسمى عذابا حقا، وأما مصائب المؤمنين فى سبيل الله فهى رحمة ونعمة من الله، أعلاها الشهادة وأدناها تحمل الأذى إعلاءً لكلمة الله تعالى.

كما يقول بعض المفسرين عند تفسير قوله : ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ وفهم أن العذاب كان فى الدنيا قبل الآخرة. ثم ما قيل إن الأنبياء عذبوا وكانوا أحباب الله ، فلا مانع من أن اليهود والنصارى يعذبون فى الدنيا وهو أحباب الله ، وهذا القول بعيد عن الحق، لأن ما يناله الإنسان فى رضوان الله لذة ومسرة ، وما يناله فى مغاضب الله ومساخطه – وإن كان نعمة بحسب الظاهر – فهو بلاء وعذاب أليم.

١- سورة الحجرات آية ١٣.

والعذاب من الله تعالى فى الدنيا وفى الآخرة، وقد تحقق وقوعه فى الدنيا، فيكون وقوعه فى الآخرة أشد، لأنه يكون بالخلود فى نار جهنم، وإمهال الله بعض الكافرين إنما يكون إذا كان أهل الإسلام تركوا العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله، فسلط الله عليهم من لا يعرفهم، ولكن الله تتره وتعالى لا يهمل أعداءه إذا ظلموا أحبابه، وصدوا عن سبيله الذى يدعوا إليه رسله وأولياؤه، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1] وإنَّا نرى الله تعالى فى هذا الزمان أمهل أعداءه الكافرين تأديبا لنا، لأننا أهملنا العمل بكتابه وبسنة نبيه، وإنى أسأل الله أن يكون إمهال الله الكافرين تأديبا لنا لا انتقاماً منا. والله تعالى إن أمهل لا يهمل، ونسأله أن يوفقنا للتوبة والإنابة إليه، حتى يباغت أعداءه بقاصمة الظهر نصرة لنا كما وعدنا بقوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

ومعنى هذه الآية : إذا كان اليهود والنصارى يدَّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ فإنَّ البنوة والحب والرحمة والعناية بالأبناء المحبوبين لم تحصل، فثبت أنهم ليسوا أبناء الله ولا أحباءه، وتحقق تعذيبهم فى الدنيا وفى الآخرة، وأنهم كما قال سبحانه : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ أى: يوفق من يشاء للإيمان، ويشرح صدره للإسلام، ويهديه صراطه المستقيم، فيغفر له ذنوبه التى ارتكبها قبل الإسلام، فينعم عليه فى الدنيا بالعلم النافع والعمل الرافع والقلب الخاشع. ويعذب من يشاء ممن لم يُرد له الهداية، ولم يُقَدّر له العناية، فيعيش كافرا ويموت كافرا، فيعذبه فى الدنيا بحرمانه من الفوز بمعرفته سبحانه ومن المسارعة إلى عبادته، ويعذبه فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم، ومن كان شأنه أن يغفر الله له إذا اهتدى ويعذبه إذا ضلَّ فهو بشر ممن خلق، أى: من نبى آدم الذين

١- سورة محمد آية ٧.

٢- سورة الروم آية ٤٧.

حكم الله عليهم لو تبصروا بالعبودية باضطرارهم فى كل أنفاسهم إلى ما هو من شأن العبودية، كالأكل والشرب والتنفس وغير ذلك من الأعراض البشرية التى تثبت عبوديتهم رغم أنوفهم، و﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1].

﴿ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ هذه الآية الشريفة بيان من الله تعالى لأهل الإيمان به سبحانه وتعالى إقامةً للحجة على اليهود والنصارى بأنهم كَذَبُوا فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وعلى زعمهم بنوة المسيح و العُزَيْر عليهما السلام لله تعالى وتتره – له ملك السموات والأرض، وهو الملك المتصرف التصرف المطلق، وما سواه ومن سواه تحت تصريف قدرته وإرادته وقهره ومشيئته – سبحانه أن يكون له ولد يُدْلِى إليه بنسب أبوة وبنوة، أو حبيب مجانس له وهو العلى العظيم، وحب الله سبحانه للعبد هو إرادة الخير له والسعادة والتوفيق، ورحمة الله بالعبد هى الإحسان إليه والشفقة والعطف عليه، ومنحه نعم الدنيا والآخرة، والرحمة بالعبد من الله سبحانه مترتبة على حبه له.

علمت أنّ محبة الله تعالى هى إرادة الله تعالى أن يتفضل على العبد بنعمة الأرواح من علم اليقين وحق اليقين، والشهود العيَانى لمعانى الصفات فى الكائنات. وملكه سبحانه وتعالى مطلق يملك السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما، تتره وتعالى عن مجانسة المخلوقات، أو يكون بينه وبين شيء منها نسب أو قرابة إلا نسب العبد للرب وهو الفقر إلى الله تعالى، والذل له، والتضرع إليه، والإنابة لحضرته، والإقبال على جنابه، والمسارعة فى مرضاته، والفرار من الشغل بغيره، والتوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا عنه جل جلاله، وموالاة أوليائه، ومحاربة

١- سورة الكهف آية ١٧.

أعدائه، وهذا هو نسب العبد لربه، ليس فيه أى معنى من نسب البنوة والأبوة التى يدعيها الجاهلون من أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، أو قرابة التقوى وهذه القرابة ليست قرابة عصب أو نسب، وإنما هى قرابة القرب من رضوان الله عز وجل، لأن الله يقرُبُ من المتقين قربا يجعلهم فى معيته سبحانه، لأنهم يراقبون جلاله، ويخافون مقامه، ويخشون سلطانه، ويرغبون فضله ورضوانه، ويرجون إحسانه وإكرامه، فالقرابة معنوية لا حسية، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(1) وقال الله تعالى فى الحديث القدسى: ((وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبَّهُ)) فأصبحت القرابة هى التقرب إليه سبحانه بما يحبه من الأعمال والأحوال والأقوال والعقائد والأخلاق والمعاملات. فالآية برهان على أن الأرض والسماء وما فيهما حادثان أحدثهما الله تعالى على غير مثال سبق.

﴿ وَإِلَيهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى: أن الله تعالى هو الذى افتتح وجود الكائنات بقدرته وإرادته، وقدر لها ما به حفظ بقائها حتى تتم دورها، وبعد فنائها ينشئها النشأة الآخرة وتعود إليه سبحانه كما بدأها أولا فيكون مصيرها إليه جل جلاله، بذلك تبطل مزاعم أهل الكفر بالله، وتخرصات أهل الأهواء والغواية.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٩﴾

سبب نزول هذه الآية أن معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب قالوا لليهود – بعد أن دعاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الإسلام، فقالوا: ما

١- سورة النحل آية ١٢٨.

بعث الله من نبى بعد موسى، ولا أنزل بعد التوراة كتبا – فقالوا لليهود: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال نافع بن حرمله ووهب بن يهوذا: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده، فأنزل الله عز وجل تكذيبا لهم: ﴿ يأهلَ الكِتبِ قَد جآءَكُم رَسُولُنَا ﴾ الآية .. وأهل الكتاب هنا هم اليهود فقط، لأن الآية نزلت فيهم كما بينت لك سببها، والآية وإن كانت نزلت بسبب اليهود إلا أنها جرَّت بذيلها النصارى لأنهم أهل الكتاب أيضا؛ وأنكروا بل جحدوا الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ وكفروا به، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. و (قَد) هنا للتحقيق، و﴿ رَسُولُنَا ﴾ نسبه سبحانه إليه بنون العظمة فى (نا) التى تدل على العظمة نباهة لعلوا قدره ﴿ ﷺ وآله﴾ وأنه خاتم الرسل الجامع لكل ما جاء به الرسل وزيادة، فإن إضافة رسول الله إلى الضمير المفيد للعظمة دليل على كمال خصوصيته كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنزلنَاهُ فِى لَيلَهِ القَدرِ ﴾[1] فعظَّم القرآن بثلاث تعظيمات بأن افتتح الآية بـ (إِنَّا) الدالة على التوكيد وأتى بنون العظمة فى مقام الفاعل، ونوَّه عن القرآن بالهاء تعظيما للقرآن وأنه معلوم جدا، وكذلك هنا ﴿ قَد جَآءَكُم رَسُولُنَا ﴾.

﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُل ﴾ أى: يظهر لكم ما أخفيتموه من التوراة بسبب حسدكم له ﴿ ﷺ وآله﴾ وأطماعكم، ويظهر ما به كمال دين الله تعالى مما لم ينزله الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الأسفار السابقة، و﴿ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُل ﴾ أى: على انقطاع من بعثة الرسل. فإن الزمان الذى بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام مختلَف فيه، فمنهم من قال: هو ستمائة سنة، وبعضهم يقول: خمسمائة وخمسون، وبعضهم يقول غير ذلك، وهذه هى الفترة

١- سورة القدر آية ١.

وهو الانقطاع، كما يقولون: فَتَرَ الرجل، أى: انقطع عنه ما كان يقوم به فى شئونه، وتلك الفترة كما هو مقرر نسخ فيها الدين السابق، وأهل الفترة ليسوا أهل دين، فإن كل نبى يموت تنسخ شريعته لأن الله قدر أن يبعث بعد كل رسول رسولا حتى يأتى بخاتم الأنبياء ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾ هذه الآية حجة على اليهود والنصارى والذين يعلمون من كتابهم بعثة الله للنبى العربى الذى هو من ولد إسماعيل، كما بَشَّرِ بذلك إبراهيم فَمَن بَعْدَهُ من الرسل إلى عيسى عليه السلام.

وقد صرحت الأناجيل التى هى بأيديهم — مع ما فيها من التغيير والتبديل — بذكر الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أول كلمة من إنجيلهم، كما تقرر قبل عند سؤال يحيى المعمدان، وفى صريح التوراة نعت رسول الله ومكان مولده وهجرته، وكان اليهود — قاتلهم الله — يهددون أهل الجاهلية بظهوره فيقولون: سيظهر نبى آخر الزمان ونحاربكم معه. فلما أظهره الله حسده معاصروه ﴿ ﷺ وآله﴾ من اليهود، فجحدوا ما فى التوراة وحرفوا الكلم عن مواضعه، وكأن لقائل أن يقول: إن الله إذا أقام الناس يوم القيامة وكانوا أهل فترة وحاسبهم يقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فأقام الله الحجة عليهم فى الدنيا بقوله: ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾ وبشير ونذير أى: مبشر ومنذر جاءت على صيغة فعيل التى تحتمل الدلالة على ما هو معقول من البشارة والإنذار وهى هنا بمعنى فاعل أكثر.

﴿ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ تقدم معنى بشير ونذير فى الآيات السابقة. هذه الآية حجة أخرى دالة على أنه صاحب القدرة القاصمة والقوة المطلقة، والحكم العدل الخبير الحكيم قادر على أن يبعث من شاء إلى من شاء من ولد يعقوب ومن ولد إسماعيل، لأنه جل جلاله قادر لا يعجزه

شيء، وكل من سواه وما سواه عبيد مقهورون كما قدمت، وعباد مربو بون، بل وعالون وأعلى عليين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهم الأرواح النورانية والجواهر الروحانية، فكيف بمن خلقهم من طين أو من ماء مهين وفطرهم على فطر مهملة وأخلق مبتذلة ؟ فهم أولى وأحرى بأن يرحمهم بإقامة رسول من عنده يبين لهم ما اختلف عليهم فى مصالحهم الكونية، وآخرتهم المستقبلية يوم لقائه.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ﴿٢٠﴾

يبين الله تعالى لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ سرا من أسرار التوراة لا يعلمه إلا الله وعلماء اليهود، لتقوم الحجة عليهم فتقصم ظهورهم. ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ ومعنى الآية: واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لقومه بعد عبادة العجل ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: تذكَّروا ما تفضل الله به عليكم، ونعمة الله تعالى كما بينت قبلا هى كل الحقائق المتعلقة بالأرواح من إثبات حقائق التوحيد علما، أو إظهار معجزة تدل عليها، وكل ما تقوى به أنوار الروح من علم أو إكرام إلهى؛ أو إظهار ما هو فوق العقول من خوارق العادات لخفاء سببه يكون من نعم الله تعالى.

﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء ﴾ قبل ظهور موسى وفى زمانه، أما قبل ظهوره ففيما أخبرنا الله به عن الأسباط ومن ذكرهم فى الآيات القرآنية قبل موسى، وأما فى زمانه فمنهم السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا شفعاء عند الله لعبدة العجل، وقد طلبوا من موسى بعد أن كلمه الله تعالى أن يسمعوا كلام الله من الله مباشرة، فغشيتهم غمامة النور وسمعوا كلام الله من الله وصاروا أنبياء، وكان معه هارون أخوه وغيره من الأنبياء، وهذا الْجَعْلُ برهان على حب الله لبنى إسرائيل،

ودليل على اختصاصهم بالعناية فى عصرهم ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ جعل كل واحد منكم ملكا، لأن الملك شرعا هو من له بيت يؤويه وزوجة، ومن منحه الله بيتا يؤويه وقوتا وأمناً فهو غنى، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إذا أصبحتَ معافىً فى بدنك، آمنا فى سربِك ، عندك قوتُ يومك فعلى الدنيا العفاء).

﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أعطاكم المن والسلوى والحجَر والعصا، وظلل عليكم الغمام، ومنحكم الحرية بعد أن كنتم أرقاء تحت أيدى فرعون، وملَّككم أنفسكم، وغير ذلك مما لم تفز به أمه من الأمم قبلكم أو فى زمنكم.

والمراد بقوله: ﴿ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ فى عصرهم، وإلا فإنه سبحانه آتانا ما لم يؤت بنى إسرائيل فى الدنيا وفى الآخرة وما لا يحصى ولا يعد.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴿٢١﴾

هذه الآية الشريفة من كليم الله تعالى دلت على أنه وقف معهم موقف بشير ونذير، ففيها بشرى بأن الله كتب لهم الأرض المقدسة، وإغراء على جهاد الجبابرة، وتخويف من غضب الله عليهم إذا هم أدبروا وتقاعسوا عن القيام بما أمر الله به، فقوله تعالى: (يَقَومِ) بالإضافة إلى ياء المتكلم تشريف لبنى إسرائيل ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ﴾ أى: خذوا الأُهبةَ واستعدوا للقاء عدوكم، لأن الأرض المقدسة التى يعنيها الأمر هى الأرض التى كان يسكنها الجبابرة من العمالقة، ولا يمكن الحلول بها إلا بقهر العمالقة وإخراجهم منها، وتلك الأرض المقدسة كما قال بعض العلماء إن الخليل وقف على جبل لبنان، فأوحى الله إليه: انظر بعينيك، فما وصل إليه طرفك فهى الأرض المقدسة التى كتبها لبنيك.

وقال آخرون: هى الطور وما حواليه . وقال بعضهم: هى أريحا. وقال غيرهم: هى فلسطين والأردن ودمشق. وقال آخرون هى ما بين العريش من أعمال مصر وبين نهر الفرات، وتشمل فلسطين والأردن وسوريا والطور.

وفى قوله تعالى: ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ هذا الخطاب عام والمراد به خاص بدليل قوله: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾[1] والظاهر أن المخاطبين لم يدخلوا الأرض المقدسة، والجمع بينهما أن الخطاب عام والمراد به خاص، ولك أن تقول: إن القوم دخلوا الأرض المقدسة وعاشوا فيها بعد الأربعين سنة وقد ورد أن الأربعين سنة قضيت فمات أكثر بنى إسرائيل، حتى ورد أن موسى وهارون عليهما السلام ماتا، ودخل بعدهما شباب بنى إسرائيل يقودهم إلى الأرض المقدسة أشعياء، وورد أن موسى عليه السلام عاش وقاد بنى إسرائيل وقاتل الجبابرة وأجلاهم عن الأرض المقدسة، فكان الأمر كما أخبر الله تعالى كليمه.

﴿ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ هذه الآية الشريفة بينت أن الآثنى عشر نقيبا الذين أرسلهم موسى عليه السلام إلى أرض الجبابرة — بعد أن رجعوا إلى قومهم — أخبروا موسى عليه السلام بحقيقة الأمر، فأمرهم أن لا يخبروا القوم بذلك، فأبى عشرة منهم وأخبروا بنى إسرائيل بالحقيقة، فملئت قلوبهم جبنا، فأنذرهم سيدنا موسى بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا ﴾ أى: ولا ترجعوا بظهوركم (فَتَنقَلِبُوا) أى: ترجعوا القهقرى (خَاسِرِينَ) إما أن ترجعوا إلى مصر فتكونوا أرقاء تحت يد فرعون، وإما أن تقيموا فى الطور فى شظف العيش، وفى ذل معصية الله تعالى ومعصية رسوله عليه السلام، ويزيد على ذلك الخسران يوم القيامة، وقد تقدم الكلام على معنى الخسران.

١- سورة المائدة آية ٢٦.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴿٢٢﴾

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ بعد أن بيّن الكليم عليه السلام لقومه ما بيّنه من أن الله تعالى كتب فى لوحه المحفوظ أن الأرض المقدسة لبنى إسرائيل، أو أنه تعالى قدرها لهم، وبعد أن بشرهم بهذا الخبر وأنذرهم عاقبة المخالفة بقوله: ﴿ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أبى القوم دخول الأرض المقدسة بعد أن أخبرهم النقباء بما عليه الجبارون من ضخامة الأجسام وقوة الأبدان، حتى وضع رجل منهم الإثنى عشر رجلا فى كمه مع فاكهة فيه – هذا الخبر من النقباء – وذلك جعل بنى إسرائيل الذى عاشوا فى ذل ومهانة تحت سيطرة فرعون فى هلع ، فهلعت قلوبهم هلعاً جعلهم لا يصغون لأمر الكليم عليه السلام ولا لنهيه، والخوف الشديد والحب المفرط يخرجان الإنسان عن التوسط بل يسلبان العقل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[1] أما الحب المفرط فمثاله ما حصل لامرأة العزيز التى بلغت من التفضح أمام النسوة أن قالت: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾[2].

والجبار هو القوى الجرىء الطويل القامة الكبير الهامة، وهو مأخوذ من قولهم: نخلة جبارة، يعنى طويلة جدا.

﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ نفوا عنهم دخولها نفيا مؤبدا، لأن لن تفيد التأبيد إلا إذا قامت قرينة على غيرة ﴿ حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾ أى: أنهم لا يطيعون أمر الله تعالى بدخولهم الأرض المقدسة إلا بعد خروج الجبارين منها.

١- سورة المعارج آية ١٩.

٢- سورة يوسف آية ٣٢.

هذه الآية تطمئن قلوب المؤمنين، لأن الله تعالى يبين لنا ما كان عليه اليهود من المخالفة والعناد مع كليم الله الذى يحتجون علينا به، فإذا كان هذا حالهم مع موسى عليه السلام – وهو الذى يدّعون أن الله لم يرسل بعده نبيا و لم يترل بعد كتابه كتابا – فكيف يكون حالهم مع النبى ﴿ﷺ وآله﴾ ؟ والقوم أهل فرية وبهتان.

﴿ فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ الفاء هنا للفصيحة، وإن شرطية، ويخرجوا فعل الشرط، ﴿ فإنا داخلون ﴾ الفاء رابطة للجواب، واسمها وخبرها جواب الشرط، وصدّر الجواب بإنَّ التوكيدية تقوية للخبر أهم لا يدخلون أبدا. وفى هذه الآية دليل على ضعف إيمانهم، وامتحانهم لربهم فى أنهم لا يؤمنون إلا إذا أدخلهم الله الجنة فى تلك الدار الدنيا، و لم يكلفهم جهادا فى سبيله ليفوزوا بالخلافة عنه سبحانه، لأنه فى زعمهم أن الخلافة عن الله لا تكون إلا بعد دخول الجنة، وهذا زعم باطل، وقد اعتقدوا أن الجنة فى أرض فلسطين وهى أرض البقاء أو ملك يهودى، و لم يعتقدوا أن الدنيا دار بلاء وفتن ومحن، وأن الجنة هى النعيم بعد انتهاء الحياة الدنيا قياما بالحكمة التى لأجلها خَلَقَنَا، فإنه جهل الدنيا دار بلاء ومحن وفتن، وجعل الآخرة دار نعيم وجزاء وعقوبة وانتقام، وكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له، والله هو الغنى الحميد.

قوله تعالى: قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾

بعد أن جلل اليهود أنفسهم بالخزى والتروع إلى ما يغضب الله تعالى بقولهم ما قالوا لموسى عليه السلام؛ ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ ظاهر اللفظ يفيد أن الرجلين من بنى إسرائيل، لأن قوله: ﴿ يَخَافُونَ ﴾

أى: يخافون من العمالقة مما يخاف منه قومهم ﴿ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أى: من عليهما باليقين والتثبيت والمسارعة إلى الجهاد فى سبيل الله تعالى، وعلى رواية: يُخافون، بالضم أن الرجلين من العمالقة ﴿ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان بدليل قولهم: ﴿ ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ لأن هذه الآية تدل على أنهما يعلمان ضَعْف قلوب العمالقة مع ضخامة أجسامهم ولا يبعد أن يكون تأويل هذه الآية أن القائلين من العمالقة.

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ الفاء للفصيحة أى: إذا كمل إيمانكم وقوى تصديقكم بالله تعالى؛ وسارعتم إلى إطاعة أمره؛ ودخلتم عليهم الباب - حصرتموهم فى مكان ضيق قبل أن يخرجوا لكم فى الصحراء حيث المتسع - أزعجتم قلوبهم بدخولكم، وأفزعتموهم فزعا يجعلهم يتخبطون فى أعمالهم فيعجزون عن الالتحام بكم، وبذلك تكون لكم الغلبة عليهم. والحرب حكمة وسياسة، وفوق هذه الحكمة نصر الله الذى بشركم به، وكل جيش يجاهد فى سبيل الله مؤيدا بنصر الله تكون له العاقبة، وعلى عدوه الذل والهوان.

﴿ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ ﴾ أى: فوضوا جميع الأمور لله واتخذوه وكيلا لكم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(1) والجملة جواب الشرط مقدم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم صدقتم الله ورسوله فتوكلوا على الله، وقد تقدم الكلام على التوكّل وعلى صفات المتوكلين.

قوله تعالى: قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴿٢٤﴾

١- سورة الطلاق آية ٣.

﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾ هذه الآية الشريفة بينت ما جبل عليه اليهود فى زمان موسى عليه السلام، فلا غرابة من سوء أعمالهم مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه. ومعنى هذه الآية الشريفة أنهم قرروا عدم دخول الأرض المقدسة ما دام الجبارون فيها، وتجاوزوا الأدب المناسب للمؤمنين مع رب العالمين، حتى أثبتوا لأنفسهم الكفر بقولهم: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾ فجعلوا الله جسما يذهب فيقاتل، أو أنهم بالغوا فى عدم دخول الأرض المقدسة مبالغة حتى جعلوه مستحيلا. وجائز أن يكون مرادهم ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ يعينك، ومهما كان التأويل فإن سوء الأدب مخرج عن الإيمان.

﴿ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ أى: أنهم لا يرجعون إلى مصر خوفا من الفراعنة، ولا يدخلون الأرض المقدسة خوفا من الجبارين، ويقعدون فى الطور مخالفين لأمر الله تعالى، ظنا منهم أن الله يديم لهم ما أنعم به عليهم من تظليلهم بالغمام، ومن إنزال المن والسلوى، ومن الماء الذى تفجر عن الحجر. والظاهر أن القوم مسخوا، فانحطوا عن مرتبة الإنسانية إلى دركات الحيوانات الداجنة جبنا وبلادة وظلما لأنفسهم، ولذلك فإن الله تعالى عاقبهم بالتيه أربعين سنة فى الطور كما سيأتى، لينقرض من استعبدهم فرعون فشبوا على الذل وشابوا عليه، ويقوم بعدهم شباب ناهض لم يعتد الذل والهوان، فيدخلون الأرض المقدسة جهادا فى سبيل الله لإجلاء الجبارين منها.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٥﴾

بعد أن قال بنو إسرائيل ما قالوه مما أغضب موسى عليه السـلام، وأقـام الحجة على أنهم قوم عناديون، دعا عليهم وأظهر نفسه بين يدى ربه بحقيقته الـتى هى كمال العبودية والعجز، بيانا اقتضاه حال أمر ونهى من الله تعالى، ولا يكـون الأمر والنهى من الله إلا لموجود ثابت الوجود له إرادة ونوايا، وهو مقام الكمـال التمكينى للعبد الذى لا تقهره عوامل مشاهد التوحيد، فلا يقوى على الوقوف عند حدود الشريعة المطهرة، بل مَنَّ الله عليه بالتمكين فشهد الحضرتين (قَالَ) فقـال عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّي﴾ فى مقام التكليف ﴿ لآ أملِكُ إِلاَّ نَفسِي ﴾ التى مكنتنى منها تمكينا يجعلنى أسارع فى تنفيذ أمرك، ونفسى لا تقوى على مجاهدة الجبـارين (وَأَخِي) أى: لا يملك إلا نفسه على سبيل الاكتفاء، وإن قلنا معطـوف علـى الضمير المتصل الذى هو اسم إن فيكون منصوبا، إلا أن كمال الرسـالة يتقضـى رعاية مشاهد التوحيد الكاملة، ويكون جعل: أخى لا يملك إلا نفسه، أقـرب إلى رعاية مقام الرسالة، وهذا الكمال دليل علـى كمـال الالتجـاء إلى الله تعـالى والشكوى إليه سبحانه من قومه ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ دعاء مـن موسى عليه السلام على من واجهوه بما لا يحب من بنى إسرائيل، ومعنى افرق أى: بَاعِدْ وافْصِلْ.

والفاسق هو الذى خرج من الحق إلى الباطل، كما بينتُ لك من أن الفسق هو خلع الحية ثوبَها، فيقال: فسقت الحية والفاسقة، كما يقال: فقست الدجاجـة بيضها. وفى هذه الآية حجة على شيم اليهود وغرائزهم من عهد الكلـيم عليـه السلام، ولا زالت تلك الخبائث تزداد منهم إلى زمان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وإلى زماننا هذا .

قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِـي الأَرْضِ فَـلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ تفضل الله تعالى فاستجاب لموسى دعاءه على قومه، بحكمه عليهم أن الأرض المقدسة محرمة لا يدخلها واحدٌ ممن قالوا: ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ وهذا التحريم قد يكون تحريم عبادة أو تحريم منع، فإن كان تحريم عبادة وجب عليهم شرعا أن لا يخرجوا من أرضهم أربعين سنة – خصوصا من كانوا سببا فى هذا الحكم – وإن كان المراد المنع تقديرا قدّره الله تعالى عليهم انتقاما منهم؛ فإن القدر نافذ ولو هموا للرجوع إلى مصر أو الخروج من الأرض إلى غيرها، وظاهر الآية يدل على أن الأمر كان انتقاما منهم لا تعبداً بدليل قوله تعالى: ﴿ يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ ولما كان الانتقام أو العذاب لا يقع على الرسل عليهم السلام، فإن العذاب أو الانتقام مؤاخذة الله العبد بالآلام لمعصيته أمره سبحانه، وهذا مستحيل على الرسل، لأن الله عصمهم من معصيته، فإن كان التيه حصل لموسى وقومه فيكون هذا بالنسبة لموسى بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على الخليل.

﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ هذه الآية الشريفة أنزلها الله تعالى تعزية لموسى عليه السلام، لأنه بعد أن دعا على بنى إسرائيل واستجاب الله دعاءه ندم على عجلته، لأن المصيبة عمت والحكم شمل فقال له الله: ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أى: لا تحزن لحكمى على هؤلاء القوم الذين خرجوا من حظيرة السمع والطاعة لأمرى، وإنى أعلم بنوايا قومك، فلأنتقمن من الظالمين الفاسقين، أما يوشع بن نون وكالوب وأمثالهما فإنهم أحبابى.

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴿٢٧﴾

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَ قْتُلَنَّكَ ﴾ هذه الآية الشريفة بيان لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، ولما كان عليه اليهود، لأن ذكر ابنى آدم وما وقع من قابيل من قتل هابيل لسبب لا يتقضى القتل، حجة على أن النفوس التى فطرها الله على الشر والخبث لا تنجو منه ولو كانت من صلب الأنبياء . ومعنى الآية: اتل يا محمد على بنى إسرائيل المعاصرين لك نبأ ابنى آدم – وهما هابيل وقابيل – إذ قرَّبا قُرْبَانًا، ولما كان زمنهم ليس فيه فقراء يتصدق عليهم كان الذى يريد أن يتصدق يقرب القربان إلى الله تعالى، فيخرجه من ذمته، فإذا قبله الله تعالى أرسل نارا فأخذته، وإذا لم يقبله بقى، وقد صح أنهما أرادا أن يتقربا إلى الله كُلٌّ بشيء مما لديه من نوع القربات، فقرب هابيل جُمَلاً من أجمل ما لديه من الشياة، وقيل: بقرة، وقرب قابيل قمحا فى سنابله، وكان هابيل مخلصا لله تعالى سمحت نفسه بالقربان، وكان قابيل غير مخلص، فتقبل الله قربان هابيل، فقال له قابيل: أنا لا أطيق أن أمشى فى الناس ويقال: إنك أكرم على الله منى، وتقبل قربانك و لم يتقبل قربانى، وقال: إنى قاتلك. وكان هابيل أقوى جسما وأعز مكانة، وقابيل دونه قوة وجسما، فقال له هابيل ما أخبر الله به عنه: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وكان آدم حيا فقتل قابيلُ هابيلَ بعد أن طوعت له نفسهُ قتله، وكان دمه أول دم سفك على الأرض حراما.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ والتقوى هى الخوف وهى أنواع، منها الخوف من الله الذى يجعل العبد يخلص الأعمال لوجهه الكريم، والخوف الذى يجعل العبد يحفظ جوارحه، والخوف الذى يجعل العبد يراقب ربه بقلبه، والخوف الذى يكشف للعبد قَدْر الدنيا والآخرة، فينأى عن الدنيا احتقاراً لها، ويرغب فى الآخرة حرصا على نعيمها المقيم وملاذها الدائمة، ومعنى ﴿ إنَّما يتقبلُ اللهُ مِنَ المتقينَ ﴾ أن التقى كما بينت لا يعمل إلا ما يحبه الله تعالى، والله أكرم من أن يرد

عملا محبوبا له سبحانه من عبد قام به ابتغاء مرضاته جل جلاله، وكل أعمال غير الأتقياء لا تُقبل، لأن غير الأتقياء تكون أعمالهم عادات اعتادها جوارحهم بحسب التقليد، ومحبتهم لله طمع، وشتان بين مَنْ عَبَدَ الله بوَجْدٍ صادق، ومَنْ عبده معتادا عليها لا يتذوق طعم الخشوع فيها، وبين مَن أحبَّ الله بوجد بعد العلم بجماله وجلاله وبهائه وضيائه ونوره وكماله، وبين من أحب الله طمعا فى نيل مسرات الدنيا من شهرة وسيادة ونفوذ كلمة، أو أحبه لنعيم الآخرة فجعل الله تعالى وسيلة لمقصد دونه، وهذه الآية ميزان أهل القلوب، قال أبو هريرة: يا حبذا نوم الأكياس. وإذن فلا حبذا قيام أهل الطمع.

قوله تعالى: لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ هذه الآية الشريفة هى المثل الأعلى فى الأخلاق الفاضلة، لأن هابيل كان شجاعا جريئا قويا، وكان صاحب ماشية يدفع عنها وحوش البر والبحر، وكان قابيل صاحب حرث أقرب إلى الجبن من غيره.

وقد ظهر هذا المثل الأعلى فى يوسف الصديق عليه السلام، بعد أن رماه إخوته فى الجب وأخرجه المارة، أسرع إليه من رموه فى الجب فقالوا: إنه مملوكنا وكان يمكنه أن يكذبهم ويثبت حريته بأن ينتسب إلى يعقوب، وكان قريبا منه، فدعته نفسه الطاهرة إلى أن يكرم إخوته ويصدقهم فى دعواهم أنه مملوك، حتى رضى الرق وكره أن يفضح إخوته، وهذا هو كمال الإحسان، وهو أن يحسن المسلم إلى من أساء إليه، وهذا هو ميزان النفس وبقدره تكون مكانة العبد من ربه

﴿ وَ قليلٌ مَّا هُم ﴾[1] وأعجب من هذا أن الله تعالى لم يؤاخذ أبناء يعقـــوب فى كل إساءهم إلى أخيهم وهذا هو الفضل العظيم. نسأل الله أن يجملنا بأخلاقه.

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ يعنى من أن أبسط يدى إليك بالبطش متحققا من مراقبة الله تعالى، مراقبة تجعلنى أراه معى فى شدتى ورخائى، وغضـــبى ورضائى، وإن نازعتنى نفسى أن أدفع عنها بقدر ما لا يخرجنى عن حدود المدافعة إلى القتل، ولكن مشهدى الذى جملنى الله به يمنعنى أن أريد ذلك فضـــلا عـــن أن أفعله، فإن الإرادة التردد بين أمرين، والشريعة لا تؤاخذ من أراد السوء و لم يعمله، ولكنها تؤاخذ مَنْ تلبس به، وأما من يمتنع عن إرادة الشر فكيف يلابسه ؟.

وهذه الآية حجة قائمة لهابيل على صفاء نفسه، لأنه يمتنع عن إرادة السوء فضلا عن أن يختاره، والإرادة دون الاختيار، والإرادة فوق الخاطر وفوقها الاختيار، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (من هم بسيئةٍ و لم يعملها كُتِبَتْ له حسنةٌ) وهذا الصـــدِّيق الأكبر فى عصره كره أن يريد سيئة.

والخوف معلوم وهو توقع حصول الضرر أو توقع الحرمان من خير، ففـــى الأولى يدافع وفى الثانية يسارع. ومعنى ﴿ أخـــافُ اللهَ ربَّ العـــالمينَ ﴾ أى: إنى أخاف عظمة الله التى يسارع أحبابه إلى نيل رضاه بإجلالها وإعظامها، والهيبة ممـــا يؤدى إلى سخطها. وفى قوله ﴿ ربَّ العالمينَ ﴾ إشارة إلى الخوف مـــن وقـــوع القصور فى الدنيا والآخرة، أو فى الدنيا فقط، أو فى الآخرة فقط، ولذلك امتنع عن أن يدافع عن نفسه لا لأن المدافعة محرمة شرعا، بل لأنه لا يمكن أن يدفع أخاه عنه إلا بقتله، فاستسلم راضيا لأن يطهر نفسه من الإثم. .

١- سورة ص آية ٢٤.

قوله تعالى: إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ هذه الآية الشريفة دلت على أنها خبر من الله لنا عن قابيل وهابيل؛ هابيل يريد مَنْعَ أَخيهِ عن وقوعه فيما يوجب عذابه يوم القيامة، لأن كُلَّ كلام هابيل يتضمن استعطاف وتخويف قابيل من الوقوع فى قتله. وفيها تأويل آخر، وهو أنه كما لا يريد أن يبسط يديه إليه بالبطش خوفا من الله رب العالمين، يريد – بعد أن صمم قابيل على قتله والبطش به – إيغار صدره بما لا تتحمله قوة إنسانية، وأن يستسلم له بعد هذا الاستعطاف حتى يظلم نفسه بقتله فينتقم الله منه على قتل أخيه، وعلى ارتكاب مخالفة حكم أبيه فى زواج توأمة قابيل لهابيل وتوأمة هابيل لقابيل، بعد أن أراه الله تعالى فى قبول قربان هابيل أنه على الحق، وفى قربان قابيل أنه على باطل، وفى قوله: (بِإِثْمِي) أى: قتلى وجائز أن يكون (بِإِثْمِي) أى: بتسليمى لك واستسلامى وتركى مدافعتك حتى أقتلك، حفظنى الله من هذا الإثم، وردّه عليك.

وهنا نبين أن الواجب شرعا أن يدافع الإنسان عن نفسه وماله ما لم يعلم أنه إذا صمم على المدافعة لزم قتل من يدافعه، فإنه يمسك عن قتله ولو قتله الآخر، وهذه شيمة كبار الصديقين رضى الله عنهم، وأحكام الشريعة تبيح للمسلم أن يدافع عن نفسه، وعرضه، وماله، ولو بقتل خصمه، إلا من رغب فى رضوان الله الأكبر، فإنه لا يُنال إلا بإيثار ما عند الله على ما عند نفسه ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[1].

﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى: من المخلدين فى النار، لأن صاحب الدار هو الذى يدوم فيها، والمعنى أن قابيل إذا قتل أخاه هابيل باء بغضب من الله

١- سورة ص آية ٢٤.

تعالى وقد قال فى كتابه العزيز: ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1].

﴿ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴾ الإشارة عائدة إلى قوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى: والخلود فى النار جزاء الظالمين، أى: الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب ما حرمه الله عليهم ووقوعهم فيما نهى عنه.

قوله تعالى: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

معلوم أن النفوس العنادية لا يكبح جماحها وعدٌ ولا وعيد، بل كلما قامت الحجج ووضحت الدلائل تزداد عنادا وتحسما وغيرة للباطل على الحق، وهذه كانت حال قابيل بعد أن قامت الحجة ووضحت المحجة أن أخاه محق، وأنه مبطل لم يرعوا عن الانتقام من أخيه من غير ذنب جناه إلا ما أسعره الشيطان فى قلبه من نار الشهوة وحب الأثرة، فهم بقتله فمهدت له نفسه وشجعته ويسرت له القتل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ وطوع من طاوعنى الأمر، أى سهل علىَّ، فيكون طوعت له نفسه أى: سهلت ويسرت عليه ﴿ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ أى: أوقع القتل به ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: الذين خسروا الدنيا والآخرة، لأنه بقتل أخيه صار من حزب الخاسرين. أما خسران الدنيا فعدم فوزه برغبته، وبما ناله من غضب والده وإخواته، وبسلب إيمانه لأنه بعد قتل أخيه وسوس إليه الشيطان بقوله: إن النار ما أكلت قربان هابيل إلا لأنه كان يعبدُها، فاعبدْها أنت. فبنى بيتا للنار وعبدها، فخسر الإيمان بالله والاستقامة على شريعته التى كان عليها

١- سورة الفرقان آية ٦٨ – ٦٩.

أبوه. أما خسران الآخرة فحرمانه من النعيم المقيم فى روضات الجنات، وخلوده فى نار جهنم.

قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴿٣١﴾

لما قتل قابيلُ هابيلَ – و لم يبين الله لنا تعالى كيف قتله، وكان أول من مات على وجه الأرض من الأناس – اسودَّ وجهُ قابيل، فلما رآه أبوه آدم قال له: أين أخوك ؟ وأخبره كذبا، فقال له: لعلك قتلته، فقال: لِمَ ؟ قال ؟ لأن وجهك اسود ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ ورجع ينظر إليه فرآه ملقى قد تغير جسمه، فبعث الله كما أخبرنا غرابا حيًّا وآخر ميتا، يبحث فى الأرض ليُعَلّم قابيلَ كيف يوارى سوأة أخيه أى جيفته ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَى ﴾ كلمة تقال عند الحسرة والندامة ﴿ أَعَجَزْتُ ﴾ استفهام توبيخى ﴿ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ﴾ أى: عن أن أكون مثل هذا الغراب ﴿ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﴾ أى: أخفى جيفته فى التراب ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ أى: بعد أن قتله ونار الحقد والغيظ تلهب فى جوفه سقط فى يده وندم، ولكن لا على أنه قتل أخاه، بل حرمانه من زواج توأمته، لأن أباه آدم وإخوته حزنوا على هابيل حزنا جعلهم يقهرون قابيل على ترك توأمته، وأصابه الله فشلَّ رجلا من رجليه، ولو أنه ندم على قتل أخيه لكان الندم توبة منه قد يقبلها الله أو لا يقبلها، وفى الحديث: (الندم توبة).

قوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ هذه الآية الشريفة متشابهة أكثر منها محكمة، لأن سياق الآية يتكلم عن قتل قابيل وهابيل، و تخصيص بنى إسرائيل بهذه الآية فيه غرابة، اللهم إلا أن نقول إن القتل كان شائعا فى بنى إسرائيل، وأن الآية نزلت لمناسبة قتل قابيل وهابيل وهما ابنا آدم، ومعلوم أن اليهود ــ قتلهم الله – قتلوا أنبياء وصديقين كثيرين، ويظهر لنا أن أكثر بنى إسرائيل هم من ذرية قابيل وأبنائه، إلا الخليل عليه السلام وسبط الأنبياء منه، لذلك فإنا نرى الكتب المقدسة تحللهم بالغدر والعدوان، ونرى التاريخ فى كل عصر من العصور يخبرنا عن مظاهر اليهود فى كل عصر وفى كل مصر، ولو لم يكن من خبث نفوسهم وسوء أعمالهم إلا ما هو ماثل بين أعيننا فى فلسطين لكان ذلك كافيا فى أنهم من أولاد قابيل، ومعنى (كتبنا) أى: قدرنا، فكتبنا فى اللوح المحفوظ، الذى كتب الله فيه الأقدار التى قدرها.

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن المكتوب هو ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ أى: أفقدها الحياة ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى: بغير ، تكون قتلت نفسا، فاستحق القتل شرعا قصاصا، أو فسادا فى الأرض أن يكون أفسد فى الأرض بسلب الأموال، أو بقطع طريق العامة، أو إثارة الضغائن بين المسلمين لخروج بعضهم على بعض، أو بابتداع بدعة مُضِلّة فى الدين . وقتل مَنْ لم يفعل شيئا من ذلك كان كمن قتل الناس جميعا، لأن من قتل نفسا واحدة أو أفسد ولو فى بلد صغير يخلد فى النار كما يخلد من قتل الناس جميعا، وأفسد فى الأرض جميعها. هذا قول بعض العلماء.

والأولى أن يكون ذلك الحكم لمن قتل نبيا أو وليا من أولياء الله تعالى، لأنه بقتل النبى يكون كأنه قتل الناس بحرمانهم من الحياة الإيمانية، لأن الحياة الجسمانية دون الحياة الإيمانية، والحياة الجسمانية المجردة عن الإيمان أضل من الحياة البهائم السائمة، ولا تعتبر الحياة حياة إلا بالإيمان، فمن قتل نبيا أفقد العالم أجمع حياة الإيمان بالله ورسوله، فصاروا أضل بذلك من الأنعام. وتأويل الإفساد فى الأرض، وإفساد أهل الأهواء المضلة والآراء والمذاهب الباطلة، وإفساد هؤلاء فى الأرض ولو فى بلد صغير إفساد للأرض كلها، وقد عظّم الله تعالى خطيئة قابيل تعظيما جعل العقول تحتار فيها، لأنا نرى ملوكا ظلمه — وخصوصا فى عصرنا هذا — قد اخترعوا مخترعات جهنمية لحصد النفوس الإنسانية. فترى الظالم منهم يقود قومه ومعه المقذوفات النارية، والغازات السامة، والصواريخ الماحقة، والآلات الجهنمية التى تحملها أيدى الأبالسة الذين نزعت من قلوبهم الرحمة فنسوا يوم الحساب، ومع ذلك نرى الله تعالى يمهلهم مع فظاعة العمل، حتى غر كثيراً من المسلمين هذا الإمهالُ فسارعوا فيهم.

والجواب: أن قتل قابيل لهابيل أول بدعة حدثت على وجه الأرض، وقابيل وهابيل ابنا آدم، ولم يمت إنسان قبل قابيل لهابيل، وكان سببا لا يستوجب العتاب فضلا عن القتل، وما قابل به هابيلُ قابيلَ مما يوجب العطف والرحمة شيء كثير، ومما يوجب الخوف من الله والانزعاج منه سبحانه أكثر، فدل ذلك على أن قابيل كانت نفسه خبيثة عنادية، وأنه فتح باب الشر على مصراعيه لبنى آدم إلى يوم القيامة، فكان تشديد الله تعالى عليه فى هذا عبرة للمعتبرين بعده.

وفى قوله: ﴿ مِن أجلِ ذَلكَ ﴾ أى : من أجل قتل قابيل هابيل ، أو من أجل قتل بنى إسرائيل أنبياءهم (كتبنا) هذه الآية يدل ظاهرها أن أحكام الله تعالى معللة بمصالح الخلق، وهذا التأويل يستحيل شرعا وعقلا، لأن أحكام الله تعالى لا

تعلل ، ولكنه جل جلاله يخاطب عباده على قدر عقولهم، وما علينا إلا أن نسلم لأحكامه تسليما من غير أن نفتح أبواب الفتن علينا، بعد أن ثبت أن رسول الله وأصحابه الكرام وتابعيه أمسكوا عن الخوض فيما خاض فيه أهل الكلام وغيرهم من أهل المذاهب ، ومن اطلع على ما قالوه وصغى إليه أفسد على القلب خشوعه، وعلى العقل نوره، وعلى النفس سكوها إلى منفسها، وعلى الجسم نشاطه لعبادة الله ، قال تعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ... ﴾[1] الخ وتقدم الكلام على معنى هذه الآية الشريف .

﴿ وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ﴾ اللام للقسم، وقد للتحقيق، و ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ أى: لبنى إسرائيل، و﴿ بالبينات ﴾ أى: بالآيات المبينات لسبل الله تعالى، ولما حرم الله من قتل الأنبياء.

﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ معنى هذه الآية أن كثيرا من بنى إسرائيل بعد بعثة الرسل بالبيِّنات؛وبعد المواثيق التى أخذت عليهم؛ وبعد ما أظهره الله تعالى على أيدى الرسل من المعجزات فإهم بعد ذلك كله فى الأرض لمسرفون فى قتل الأنبياء، والمسارعة إلى مغاضب الله تعالى. وفى هذه الآية الشريفة دلاله واضحه على أن القوم ممن أضلهم الله على علم، فلا تزيدهم الآيات ولا انتقام الله تعالى منهم إلا طغيانا مبينا.

قوله تعالى: إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٣٢﴾

١- سورة النساء آية ٦٥.

لما أن قال الله تعالى: ﴿ مِن أجلِ ذلك كتبناَ علَى بنى إسرائيل أنه منَ قَتَلَ نَفَساً بغَير نَفس أو فسادِ فِى الأرضِ﴾ أجمل سبحانه الفساد فى الأرض، ثم فصله جل جلاله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ﴾ والمعنى: ما جزاء الذين يحاربون الله إلا أن يصلبوا أو يقتلوا أو ٠٠الخ، والله سبحانه وتعالى عليٌّ عظيم عن أن يحاربه مخلوق مقهور، والمراد يحاربون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فإن محاربة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ محاربة لله تعالى، ومن خالف أوامر الله سبحانه فهو يحاربه من حيث لا يعلم.

ولكن قوله: ﴿ أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ﴾ (أو) هنا ليست للتخيير وإنما هى لبيان الحكم، والذى يقتل هو من قتل النفس بغير حق، والذى يصلب هو من قطع الطريق وقتل النفس وسلب المال فى القرى أو فى الأمطار، والذين تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف هم الذين يسرقون و لم يقتلوا، و لم يقطعوا الطريق على المسلمين، وقوله تعالى: ﴿مِن خِلاَفٍ﴾ أن تقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى أو بالعكس، والذى ينفى من الأرض هو من قطع الطريق و لم يقتل نفسا و لم يسرق، والنفى من الأرض هنا لا يكون بإخراجه من بلد إلى آخر من بلاد المسلمين لأنه يخشى منه على المسلمين، ولا إلى أرض الكفار لأنه يخشى عليه منهم أن يفسدوا عليه عقيدته، والنفى هو السجن الذى تدوم له فيه المراقبة، وللإمام العدل أن يرى فيه رأيه بحسب هذه الآية الشريفة، فقد يقتل أو يصلب أو يقطع أو ينفى بحسب اجتهاده، وليس له ولا لولى الدم أن يعفو عن القاتل عمدا.

﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هذه الآية الشريفة لم تنسخ حكم السنة الذى حكم به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على وفد عكل وقرابته الذين قتلوا رعاته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، واستا قوا أزوادهم، فأمر بموهم

صبرا ، أى: جوعا ، فبين الله حكمه على أمثالهم ، فكان حكم الله محكما للمستقبل بعد حكم السنة.

الإشارة عائدة إلى ما حكم الله به عليهم من القتل أو الصلب أو النفى (لَهُم) أى: لمن حكم الله عليهم فنفذ فيه الحكم (خِزىٌ) أى: هوان وذل فى الحياة الدنيا مع أنه شر فى الدنيا فكيف يكون عذاب يوم القيامة الذى أخبر الله عنه بقوله ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ اللهم إنا نعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم. والعذاب العظيم لا تفى ببيانه العبارة لهوله وشدته، وما تصوره ذو عقل إلا أقلع عن صغائر الهفوات فضلا عن كبائر السيئات.

قوله تعالى: إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٣٤﴾

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ العامل فى الاستثناء أن يقتلوا أو يصلبوا٠٠الخ، والمستثنى منه هم الذين حكم الله عليهم بالصلب والقتل والنفى من الأرض، والتوبة تقدم الكلام عليها، ولا بد أن يكون تأويل هذه الآية أن التائبين هم الذين كانوا كفارا، و فعلوا ما فعلوا مما أخبرنا الله عنه، أو كانوا مسلمين وحاربوا الله ورسوله مرتدين ولهم عصبة قوية، أو رجعوا إلى بلاد الحرب ثم تابوا، والتوبة هنا تسقط ما عليهم من الحدود و الحقوق للناس بشرط أن يكونوا سلموا أنفسهم للإمام أو مندوبه من قبل أن يقدر عليهم، وأما من لم يكن لهم عصبة و لم يرجعوا إلى بلاد الحرب و لم يسلموا أنفسهم فإن الحد يقام عليهم.

وأما أهل الإسلام الذين يقطعون السبيل أو يسلبون المال أو يقتلون النفس، ولو كانت لهم عصبة وسلموا أنفسهم، أو لم يكن لهم عصبة وسلموا أنفسهم قبل القدرة عليهم، فعليهم الحد وعليهم إصلاح ما أفسدوا. قال بعضهم: إن حقوق الله تسقط عنهم ولا تسقط عنهم حقوق العباد إذا سلموا أنفسهم قبل القدرة عليهم وهم مسلمون، لأن أهل الكفر بالله، والمرتدين تَجِبُ التوبة عليهم لأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها لأنها دخول فى الإسلام جديد، وأما أهل الإسلام فلن تَجُبَّ توبتهم ما عليهم من الحقوق، لأن هذا الباب لو اتسع لأفسد أخلاق كثيرين من أهل النفوس الضالة، وأحكام الله تعالى يخفى فيها لطفه إصلاح حال العباد، هذا ما فهم العلماء فى هذه الآية. والله جل جلاله هو الولى الكبير، الملك المطلق التصرف، المطلع على سرائر القلوب و خفياها، يغفر لمن يشاء بتوبة وبغير توبة، لا يُسْأل عما يفعل ولا يتقيد سبحانه. ﴿ مِن قَبلِ أَن تَقدرُوا عَلَيهِم ﴾ أى: من قبل أن تمتد إليهم يد الإمام بالبطش، وقد فصلنا ذلك.

﴿ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الفاء للفصيحة، والتقدير: إذا علمتم حكم الله على من حارب الله ورسوله وأفسد فى الأرض؛ ولطف الله تعالى الذى وفقهم للتوبة؛ فاعلموا أن الله غفور رحيم. وهذه الآية بيان من الله تعالى للأئمة أن يؤَمِّنوا التائبين، وينقذوا أحكام الله فيمن لم يتب قبل أن يقدروا عليه، وفيها محكم حكم الله تعالى بعد أن حكم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بموت من حارب الله ورسوله وأفسد فى الأرض صبرا، والآية لم تنسخ السنة، ولا ينسخ السنة إلا السنة، والمغفرة هى الستر والتغطية، والرحمة هى إرادة الله الخير لعبده، (وغفور) أى: يستر خطايا العبد حتى عن نفسه بل عن الملائكة.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٣٥﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أيّدوا دعواكم الإيمان بتقوى الله تعالى، فإن التقـوى تحفـظ القلوب من نوايا السوء، والجوارح من عمل الشر، ومن ادعى الإيمان بالله ورسوله وترك التقوى أقام الحجة على كذبه فى إيمانه، ويقدم بيان التقوى. وهذا الخطـاب من الله تعالى للمؤمنين دليل على عنايته سبحانه وتعالى بهم، لأنه إذا قال سبحانه يا أيها الذين آمنوا؛ أعقبها بقوله: ﴿ اذكروا اللَّهَ ﴾[1]و﴿ اتقوا الله﴾ بخلاف ما إذا خاطب الناس أو أهل الكفر به سبحانه، فإنه يقول:﴿ يا أيهـا النَّـاسُ اعبُـدُوا ربَّكم﴾[2] أو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْـزَوْنَ مَـا كُنـتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

﴿ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ معلوم أن التقوى هى التجريد مما يخالف الشريعة فى النفس والعقل والحس والجسم، وابتغاء الوسيلة هى المسـارعة إلى محـاب الله ومراضيه قياما بما أمر، والانتهاء عما نهى سبحانه، والوسيلة إلى الله كـل مقصـد بحسبه، فالوسيلة إلى الله تعالى هى الأخذ بالعزائم التى ترضـيه سـبحانه، وخـير الوسائل إلى الله تعالى هو رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، واتخاذه وسيلة أن يعلى كلمته ويحيى سنته فى ثقة وغيرة عند الاستطاعة، ومن الوسائل أيضا الاقتداء بأهل العلـم والتقوى فى سلوكهم وأعمالهم وأخلاقهم مما تحقق فيه صحة الاتباع لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وليس من الشرك أن يتوسل رجل برجل صالح تقى قريـب مـن الله فيسأله الدعاء، ودعاء التقى مجاب، ويتلقى منه الأدعية التى يقبلها الله تعالى، مـع اعتقاد أن الضار النافع هو الله ، وأن أحدا لا يضر ولا ينفع بذاته ولو كـان نبيـا

١- سورة الأحزاب آية ٤١.

٢- سورة البقرة آية ٢١.

٣- سورة التحريم آية ٧.

مرسلا ، ولكنهم عليهم الصلاة والسلام هم وورثتهم رضى الله عنهم كالشمس والقمر والأنجم وكالماء والهواء، ينفع الله بهم من يشاء من عباده، يضر بهم من يشاء، فمن عمل بالنسبة اتباعا لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ نفعه الله برسوله ﴿ﷺ وآله﴾، ومن خالف النبى عليه الصلاة والسلام أضره الله بسبب مخالفته، وكذلك من استعمل الماء والهواء والشمس والقمر والنجوم بالحالة الوسطى نفعه الله بها، ومن تعدى الحالة الوسطى أضره الله سبحانه بها ، وليس هناك مسلم مؤمن كائن من كان إلا هو يعتقد أن الضار النافع هو الله تعالى، وأن الله تعالى جعل أحبابه كالشموس المضيئة يهتدى بها الخلق إلى سبيله سبحانه.

﴿ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ﴾ الجهاد نوعان: جهاد العدو الخارج، وجهاد العدو الداخل. فعدوك الداخل: نفسك التى بين جنبيك، وجهادها هو الجهاد الأكبر لأنها أمارة بالسوء، وهى التى تصد عن سبيل الله بالطمع فى الأموال والأولاد، وإيثار النفس بما ليس لها، ومن جاهدها حق الجهاد آثره الله تعالى فهداه واجتباه، ومن أهمل جهاد نفسه حارب الله ورسوله، وفارق الدنيا والله عليه غضبان، فيدخل نار جهنم ويندم على ما فرط فى جنب الله ولات حين مندم؛ والنفس جهادها صعب شديد، وهو فى موضعين: جهاد الشهوة وجهاد الطمع.

والشهوة فى البطن والفرج، فقد يطمع فى مال اليتامى والجيران وما ائتمن عليه ليسد شهوة بطنه، مع أن رزقه مضمون على الله تعالى، وشر الجوارح جارحة البطن وبها كل الشرور فى الدنيا، وما ملأها ابن آدم ولو من حلال إلا أورثه ذلك الامتلاء الغرور، وأفسدت عليه حاله فغضب وخاصم وفجر، فإذا ملأها من حرام هوت به إلى أسفل السافلين. وكذلك يشتهى المحرمات عليه من النساء شهوة فرجه فينحط إلى مدارج البعد والقطيعة، والفرج يشمل جميع الفروج من العين والسمع واللمس ٠٠٠إلخ.

النوع الثانى من جهاد النفس هو جهاد الطمع، وهذا النوع قد يشاب بما يجعله من القربات إلى الله تعالى وهو أشد القواطع، كما طمع آدم فى الخلود فى الجنة ليدوم له الفرح بربه جل جلاله الذى أنعم عليه بتلك النعم. وكما يطمع أهل المجاهدات فى أن يفوزوا بالتفريد فى عصورهم أو بالمقامات التى علموها فى سيرهم، فيقومون بالأعمال والعبادات والقربات رغبة فى نوال المقام لا لذات الله سبحانه، فيضيعون ما به نيل محاب الله ومراضيه من تأدية الفرائض والواجبات بفعل نوافل البر، وترك المباحات الشرعية من أكل وغيره، وهم يحسبون أنهم يحنون صنعا، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ برواية إمام البخارى فى الحديث الطويل: (وما تقربَ عبدى بشيء أحب إلىَّ من أداء ما افترضُته عليه) فبين لنا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث أن أحب شيء إلى الله من العبد هو تقربه إليه بأداء ما افترضه عليه.

أما نوافل البر فإنها لا تصح إلا بعد القيام بما افترضه الله علينا، فقد يقوم الرجل الليل فى ذكر وفكر وصلاة، ثم ينام عند طلوع الفجر ويظن أنه تقرب إلى الله بما فعله.

ومن ذلك ما روى عن سلمان الفارسى مع أبى الدرداء رضى الله عنهما حين كان معه فى بيته، وصلى سلمان العشاء الأخيرة وختم صلاته فاضطجع فنام، وقام أبو الدرداء يصلى فى جوف الليل فأجلسه سلمان، ثم قام بعد نوم سلمان فأجلسه ثانية، ثم قام بعد نومه فأجلسه ثالثة، فقام حتى طلع الفجر، فقام سلمان فتوضأ وتنفل ثم وجد أبا الدرداء نائما فوكزه برجله وقال له: قم الآن فصل، فغضب أبو الدرداء وشكاه إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلما جاء سلمان وأخبر رسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ بما رآه منه قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأبى الدرداء: (إِن لربِّك عليكَ حقاً ، ولنفسِك عليك حقاً ، ولزوجِك عليك حقاً) .

وهذا الطمع من المعاصى الخفية إذا لم يكن مؤيدا بالكتاب والسنة، وللنفس دسائس إلا على أهل العلم بالله تعالى، فيجب على السالك أن يعرض حاله على من فوقه فى العلم ليسلم من دسائسها الخفية.

أما جهاد أهل المعاصى بعد العلم بظاهر حالهم فما على الواعظ إلا أن يبين لهم ما يحبه الله من الأعمال وما يكرهه، ويفتح لهم أبواب التوبة واسعة ليطهروا ظاهرهم من رجس المخالفات. وأما السالكون فإنهم يخشى عليهم من خفى المكر الإلهى، وسوء عاقبة الرياء وحب الشهرة والجاه فى قلوب الناس، والعمل للمنزلة بين الخلق، الأمور التى لأجلها قد يتساهل فى بيان ما أوجبه الله على العالم أن يبينه، ويفتح باب التأويلات المبطلة على الناس لينال شهوته ويفوز بطلبته، وإنى أعظ السالكين من شرور النساء، فإن رجلا من خيرة الصحابة قال: سددت فى وجه إبليس كل باب من أبوابه فلم يقهرنى إلا باب فتنة النساء، ولا أبيح لسالك أن يخلوا بأجنبية ليست ذات محرم أبدا، إلا إذا دعت ضرورة السفر، أو داعية إغاثة لدفع خطر، اللهم إلا ما أباحه الشرع الشريف بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾[1] فإذا دعت الضرورة للخلوة بمثل هذه فما على المختلى بها حرج، وكذلك الرجل إذا بلغ هذا الحد من السنين حتى صار لا ترغب فيه النساء ولا يرى فى قلبه ميلا إليهن كما قال تعالى: ﴿ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء﴾[2]

١- سورة النور آية ٦٠.

٢- سورة النور آية ٣١.

وطريق الله وعرة مسالكه، يجب أن يكون السالك فيه على بصيرة من أمره، يبدأ أولا وبالذات بتزكيته نفسه حتى يطمئن قلبه من تأثيرها عليه، وما قولك فى حركة لا تتجاوز الأنفاس تؤدى إلى الخلود فى نار جهنم بنص القرآن المجيد ؟ وهى الحركة التى يكون الرجل فيها جالسا بين شعب المرأة الأربع حيث يلتقى الختانان أو أكثر من ذلك . قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . . ﴾[1] الآية.

ومن أحب الله ورسوله وأحب لنفسه النجاة من هول يوم القيامة؛ جعل بينه وبين الآفات سياجا قويا، فإن الشهوة إذا غلبت رفع الإيمان من القلب فصار ظله فوق الرأس، أعاذنا الله من الوقوع فى الكبائر التى حرَّمَها الله علينا. ومعلوم أن الزنا تتعلق به أحكام وحقوق لله تعالى ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وللإنسان، ومن كان الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ والإنسان خصومه يوم القيامة هلك ولا محالة، وإنا لنطمع أن يغفر الله تعالى لنا فى الحقوق التى له سبحانه، وأن يتفضل عز وجل بترضية أصحاب الحقوق من الناس حتى يعمنا الله بفضله ورحمته ويدخلنا جميعا دار كرامته.

أما جهاد العدو الظاهر فلا عدو لك أيها المسلم إلا من كذَّب ربك وكذب نبيك، ولو أنه أعطاك ملك الأرض ومال قلبك إليه ضعف إيمانك، ولا ينبغى للمسلم أن يميل قلبه إلى عدو الله ورسوله وعدوه إلا فى موضوعين فحسب:

فالموضع الأول: أن يطمع فى قبوله الإسلام.

١- سورة الفرقان آية ٦٨.

والموضع الثانى: أن يتقى منه تقاة مع الحرص الشديد على حفظ القلب كما قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُم ﴾[1] ومن رأى له عدوا غير عدو الله ورسوله؛ أو رأى له حبيبا من أعداء الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقد مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، قال تعالى﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[3] ومن قهرته شهوته بطنا أو فرجا فتأول كما قال تعالى ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ . . .﴾الخ الآية[4] فقد حكم على نفسه بالنفاق الأكبر، كيف تعظم الدنيا فى عين مَنْ سمع القرآن – فضلا عن أن يكون فهمه – عظمة تجعله يسارع فى أعداء الله وأعداء رسوله ؟ فضلا عن أن يعظمهم بزيارتهم فى بيوتهم ، فضلا عن أن يشرفهم بتبادل طعامهم وشرابهم ؟ ! ! قال تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم إنه قطع سبحانه الحجة وقطع الأنساب فأتم الآية الشريفة بقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُم . .﴾ الآية[5] ولو تأول هذه الآية الشريفة بعض من يدعون العلم بأن الآية نزلت فى قريش، فإن خصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم، وإن قوله تعالى: ﴿ إلاَّ أن تتقوا مِنهُم تُقَاة ﴾ فى الخوف على دم غيره من المسلمين، لا فى مجرد

١- سورة آل عمران آية ٢٨.

٢- سورة آل عمران آية ٢٨.

٣- سورة المائدة آية ٥١.

٤- سورة المائدة آية ٥٢.

٥- سورة المجادلة آية ٢٢.

طمع أو حظ أو شهوة، فإن قول الله بعدها: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ﴾[1] أى: يخوفكم ألوهيته التى تعلم السر وأخفى، يعنى خفيات القلوب وتصاريف النوايا، ولأن يُقتل المؤمن تعظيما لأمر الله وإيثارا له سبحانه وتعالى؛ خير له من يعيش فى الدنيا ألف عام ملكا على الأرض جميعا.

﴿ لعلكم تُفلِحُونَ ﴾ لعل هنا بمعنى اللام، أى: لتفلحوا، والإفلاح هو بلوغ المقاصد كلها، يقال: أفلح المؤمن، أى: فاز بكل ما يبتغيه من ربه، فمن ابتغى الجنة فاز بها، ومن ابتغى الرضوان الأكبر تفضل الله به عليه، قال تعالى: ﴿ قَدْ أفلَحَ الْمُؤمِنُونَ ﴾[2].

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى: إن الذين جحدوا نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وأشركوا بالله تعالى مع وضوح الحجة وظُهُور المَحَجَّة، وأبوا أن يقبلوا شريعة الإسلام ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ...﴾ الآية والجملة خبر إن .. والمعنى: لو أن لهم ما فى الأرض جميعا من جاه ومنزلة ونفوذ كلمة وكنوز وذخائر؛ وقدموا كل ذلك ﴿ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ﴾ وهذا تمثيل لما يلم بهم يومئذ من شديد العذاب وأليم العقاب، الحالة التى تهون فيها النفوس والنفائس . مع أن هؤلاء الكفار دعاهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة والمعجزة الباهرة لأن يقولوا لا إله إلا الله، فأبوا أن يقولوها، وكان الواجب أن يؤمنوا بالغيب، بمعنى أنهم لا يحوجون الرسل إلى إقامة

١- سورة آل عمران آية ٢٨.

٢- سورة المؤمنون آية ١.

الدلائل والبراهين والمعجزات، فإن حقيقة التوحيد كالشمس فى رابعة النهار، لأن الداعى إذا بينها هشت له القلوب وبشت وقبلتها العقول، فكيف وقد قامت الحجج الناصعة عليها فأنكروا وجحدوا ؟ و لم تطالبهم الرسل عليهم السلام إلا بالإقرار بأنه لا إله إلا الله، كذلك كان العدل أن لا يقبل منهم فدية مهما كانت قيمتها من العدل – والعِدل بكسر العين هو مثل الشيء، والشيء هنا هو الفدية – وأن يخلدوا فى نار جهنم لجحودهم ما لا يخفى على العقول، فتقرر قوله تعالى: ﴿ مَا تُقُبِّلَ مِنهُم ﴾.

﴿ وَلَهُم عَذَابٌ أليمٌ ﴾ الواو هنا للحال، و(لهم) دالة على خلودهم فى العذاب الأليم.

قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ ﴾ معنى هذه الآية أن أهل النار يحبون الخروج منها لما يعانونه من شديد الآلام التى أنضجت جلودهم، وليس كل محبوب يُنال خصوصا عند أهل النار، فإن الله حكم عليهم بالعذاب أبدا ولا معقب لحكمه سبحانه. أما أهل الجنة فإن كل محبوب ينالونه، لأن الله تعالى تفضل عليهم بالخلود فى الجنة فى نعيم مقيم، قال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِم ﴾[1].

﴿ مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ نفى الله عنهم الفوز بما يريدونه من الخروج من النار، والهاء المتصلة بـ(مِن) عائدة إلى النار، وأكد الخبر باسمية الجملة ﴿ وَلَهُم

١– سورة الشورى آية ٢٢.

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ الواو للحال،و(لهم) تهديد وتشديد، لأنه جعل العذاب لهم أى: مصاحبهم (مقيم) أى: دائم.

قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٣٨﴾

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ ال هنا اسم موصول بمعنى الذى، وسارق صلتها، وتكون المعنى: والذين يسرقون. ولذلك صح رفعها، ولو كانت أل بمعنى التعريف أو للجنس لنصبها فقال: السارقَ والسارقةَ بالفتح. قوله: ﴿ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ حكم عام على كل سارق، واليد التى تقطع هى اليمين، وقيمة ما تقطع فيه اليد اختلف العلماء فيه، فقال مالك:ثلاثة دراهم. وقال أبو حنيفة: عشرة دراهم. وقال غيرهما: ربع دينار. وقال بعضهم: تقطع اليد على السرقة ولو فى درهم لأن النفس الخبيثة متى تاقت إلى اغتصاب مال الغير كان القليل والكثير سواء، ولكلّ أدلةٌ من عمل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعمل الأئمة رضوان الله عليهم. وفى المثل العامى: سارق البيضة يسرق الجمل. ﴿ جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ ﴾ أى: لأن قطع اليد عقوبة من الله تعالى تنكيلا بهم بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى، وهذا النَّكال هو من الله تعالى الذى بين لهم الحق والباطل والحلال والحرام فخالفوا أمره سبحانه وتعالى ﴿ واللّهُ عزيزٌ ﴾ أى: ذو قوة وقهر فى بيان حكمه سبحانه وتعالى وفى تنفيذ قدره، (حكيم) أى: ذو حكمة فيما قدره وفيما أمر ونهى.

﴿ فَمَن تَابَ ﴾ والتوبة هى رد المظالم إلى أهلها، والندم على مافات، والعزم على أن لا يعود. وَمِنْ نَدَمِ المسلم على ما فعل أن يسارع إلى الإمام ليقيم عليه الحد راضيا بحكم الله تعالى. وَمِنْ رَدِّ المظالم إلى أهلها أن يرد ما سرقه من

الأموال السر بالسر والعلانية بالعلانية، وأن يعتذر إلى من اغتابه أو سـبه أو آذاه السر بالسر والعلانية بالعلانية، وبرهان قبول توبته من الله تعالى قبوله إقامة الحدود، وعليه فقد ورد أن رجلا قال لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : زنيتُ يـا رسـول الله ، فقال رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾: (بيدك درء الحد ؟ فقال: لا) فقـال رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ : (بعينك ؟ قال: لا. إلى أن قال الرجل: أدخلت كـذا فى كـذا) فقال صلى الله عليه وسلم لمن حوله: (أفى عقل هذا الرجل شيء ؟ فقـالوا: يـا رسول الله، لا نعلم عليه إلا خيراً منذ هداه الله للإسلام) فأمر ﴿ﷺ وآله﴾ برجمِه فُرجمَ حتى الموت، فسُئل ﴿ﷺ وآله﴾ هل قُبلت توبته ؟ فقـال عليـه الصـلاة والسلام: (لقد تابَ توبةً لو فُرِّقَتْ عَلَى مِئِينَ مِنَ النَّاسِ لَوَ سِعَتْهُمْ).

﴿ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ أى: من بعد ظلمه لنفسـه أو بـالوقوع فى السرقة أو غيرها، وأصلح برد المظالم إلى أهلها، واستقام فيما بقى مـن عمـره ﴿ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ أى: يقبل توبته، وقبول توبته عفوه عن خطيئته فلا يعاقبـه عليها، أو يعفو عنها ويبدلها حسنات ﴿ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: يستر ويغطى الذنوب عن العبد وعن الملائكة، و(رحيم) أن يرحمه بتبديل السيئات حسنات.

قوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَـاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٤٠﴾

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ ﴾ الهمزة للاستفهام التقريرى؛ والعرب تكلم المخاطب والمراد غيره، وتأويل الآية هنا: ألم تعلم بنو إسرائيل وغيرهم الذين يدَّعون أهم أبناء الله وأحباؤه، أن الله تتره وتعالى عن أن يكون له ولد أو أخ أو حبيب لعلـة مـن نسب أو عمل، لأنه سبحانه وتعالى كما قال جلت قدريه: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يعنى أن السموات والأرض مملوكان لله تعالى، أبـدعهما بعـد أن لم

يكونا شيئا، ومن المستحيل أن مالكا أبدا ملكه بقدرته وإرادته، أحدثه بعد أن لم يكن شيئا يكون له فى ملكه ولد أو حبيب يدلى إليه بنسب تنزه وتعالى، وإذاً تقرر أنه جل جلاله — وهو المنفرد بملك السموات والأرض وبإيجادهما — ثبت أنه المريد المختار، يبرز ما أراده ويختار ما يشاؤه.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ معنى هذه الآية أنه ليس لموجود كائن من كان حق على الله تعالى، بل الله سبحانه وتعالى هو الملك المطلق المتصرف فى ملكه بما شاء، وكل أفعاله جل جلاله عدل وفضل، فيعذب من شاء بالعدل ويغفر لمن يشاء بالفضل، لأنه جل جلاله هو الموفق لما يحب، المعين على ما يرضى، الهادى من شاء، ثم يتفضل فينسب الأعمال إليه بسابق حسناه جل جلاله، ويرفعه يوم القيامة إلى المقامات العلا. ويضل من يشاء بسابق إرادته، وبعلمه فيهم ثم ينتقم منهم عدلا منه. وفى قوله: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء ﴾ بيان لإطلاق تصريفه وعدله ﴿ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء ﴾ بإحسانه ورحمته وفضله، وقدم العذاب هنا على المغفرة لأنه قدم السارق على التائب فى الآية السابقة ﴿ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والله هو الملك المطلق الذى لا يعجزه شيء، وقدرته جل جلاله صالحة أن تنفذ ما أراده مما سبق فى علمه سبحانه، فما من شيء — قل أو كثر — إلا وهو قادر على أن يؤثر بقدرته العلية فيه حسب مشيئته، فيتوب سبحانه على مرتكبى الكبائر ويغفر لهم من غير أن يُسْأل عما يفعل، ويعذب من شاء بعدله كما تقدم، وهو القادر الحكيم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ

الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِـــرَةِ عَـــذَابٌ عَظِيمٌ﴿٤١﴾

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ) ينادى الله النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بـــ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ و لم يناده بهـــذا الاسم الشريف فى القرآن الكريم إلا مرتين، وفى بقيته يناديه بــــ ﴿ يا أيها النبى﴾.

فالنداء بـــ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ للتشريف والتعظيم، ولمناســـبة إدخـــال السرور على قلبه ﴿ ﷺ وآله﴾ بالنسبة لما ألم به من الحزن علـــى ارتـــداد بعـــض المنافقين، فينهاه الله تعالى عن الحزن على من سارعوا أى: وقعوا ودخلوا فى الكفر، وهؤلاء المسارعون إلى الكفر هم الذين قالوا آمنا بـــأفواههم ليحفظـــوا دمـــاءهم وأموالهم فى هذه الحياة الدنيا ﴿ قالوا ءامنا بأفواهِم ﴾ أى: صدقنا محمـــداً ﴿ ﷺ وآله﴾ والحال أن قلوبهم منعقدة على الكفر، لأنها مُقْفَلَةٌ عن سماع بيـــان الإيمـــان ﴿ وَلَم تُؤمِن قُلوبُهَم ﴾ أى: لم تصدق، وهؤلاء من المشركين الذين بلـــغ بهـــم الخوف على أموالهم وأنفسهم مبلغا جعلهم يُظْهِرون الإسلام ويُخْفُون الكفـــر إذا ثَقُلَتْ ظهورهم من قوة الحجة وباهر المعجزات التى من أجلها وأكملـــها القـــرآن المجيد، وها نحن الآن نراهم بين ظهرانينا – بالنسبة لإهمال المسلمين فيما أوجبه الله عليهم، وبالنسبة لمخالفتهم وصايا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تفرقوا أيدى ســـبأ – فيسارعون فى أعداء الله تعالى، ويعملون فى تنفيذ مخططاتهم الـــتى يهـــدمون بهـــا الإسلام، ويوالونهم بل ينصرونهم على المسلمين، ويقبحون المسلمين فى أعينـــهم، وهؤلاء أَضَرُّ على المسلمين من الكفار المحاربين، كل هذا بسبب فســـاد القلـــوب وخرابها من الإيمان الصحيح- لأن المؤمن لا يخذل أخاه ولا يعين عليـــه كـــافر – فتمكن منهم عدو الله وعدوهم (الإفرنج) فترى أهل الكفر بالله كانوا فى ذمتنـــا انقلبوا فصاروا يجاهدون بالعداوة للإسلام، ويقف بعضهم بين أمثاله فيطعن علـــى

الإسلام، نسأل الله أن يسرع بنصره حتى نفرح بذلك النصر كما قـــال تعـــالى: ﴿وَيومئذٍ يفرحُ المؤمنونُ بنصرِ اللَّهِ﴾[١].

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ بعد أن بين لنا سبحانه نفاق من آمنوا بأفواهم و لم تؤمن قلوبهم، أخبرنا جل جلاله بما كان عليه اليهود من معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ - خصوصا فى المدينة وفى فدك — بقوله تعالى: ﴿ وَمِـــنَ الَّذِينَ هِادُواْ ﴾ قومٌ أهل جُحْدٍ ومحاربة لله ورسوله، كما فى المشركين مِمَّنْ أسلموا نفاقا، والمنافقون من المشركين ومن أهل الكتاب ﴿ سَمَّعونَ للكـــذِبِ ﴾ أى: أن هؤلاء القوم من اليهود ومن منافقى المشركين يسمعون سماع قبول الكـــذب مـــن أحبار اليهود، الذين ما جاء فى التوراة من نعت رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، من اسمه وبلده ومولده وهجرته، ومن أنه خاتم الرسل، وأنكروا كل ذلك كمـــا تقـــرر. ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أى: أن الذين حضروا إلى رسول الله مـــن فدك وخبير وغيرهم من المشركين سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين من أخبار اليهود، الذين قَطَّعَ الحسد نياط قلوبهم، ومحا الكبر الإيمان بالتوراة منها، لم يأتـــك هؤلاء القوم بما هم عليه من خبث الطبع وسوء النية.

وسبب نزول الآية الشريفة أن امرأة ورجلا من أشـــراف اليهـــود زنيـــا، وحكم الزانى المحصن فى التوراة الرجم، فغير الأحبار حكم التوراة وحكموا فى هذه الحادثة بالجلد، حتى زنى رجل وامرأة ضعيفين فحكموا عليهما بـــالرجم، فهـــب الضعفاء فى وجوههم وقالوا: إن زنى الأشراف حكمتم عليهم بالجلـــد، وإن زنى الضعفاء حكمتم عليهم بالرجم، ما هذه بشريعة جاءت من عند الله الـــتى تحـــابى الأشراف وتجافى الضعفاء، إن أردتم رجمنا فارجموا من حكمتم عليهمـــا بالجلـــد.

١- سورة الروم آية ٤ — ٥.

ووقع اليهود فى أمر جلل، فقال اليهود فى بعضهم: نبعث إلى محمد ونسأله، فإن قال حكمهما الجلد قبلنا، وإن قال حكمهما الرجم خالفناه، وغيروا حكم التوراة بالأباطيل وهم القوم الذين أسمعوا اليهود هذا الكذب و لم يأتوا رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ حسدا وكبرا وعلوا. ومن أوَّلَ الآية الشريفة بغير هذا التأويل فإن الآية لا تساعده على فهمه. فلما جاء رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أتاه جبريل فأخبره أن الحكم الرجم، وقال ﴿ﷺ وآله﴾ : (يا معشر اليهود أخرِجُوا إلىَّ أعْلَمَكم) فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا الأعور، وقالوا : هذا أعلم من بقى بالتوراة. فخلا به رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وكان غلاما شابا من أحدثهم سنا وقال له: (يا ابن صوريا، أنشدك الله وأذكرك أياديه عند بنى إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم فى التوراة ؟ فقال: اللهم نعم. أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعلمون أنك نبى مرسل، ولكنهم يحسدونك) فخرج رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فأمر بهما فرجما عند باب مسجده فى بنى عثمان بن غالب بن النجار، ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾.

ومن سبب نزول هذه الآية ما أورده الإمام ابن جرير الطبرى أنها نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر بقوله لبنى قريظة حين حاصرهم النبى ﴿ﷺ وآله﴾ : إنما هو الذبح، فلا تترلوا على حكم سعد. وقال آخرون: بل نزلت فى رجل من اليهود وقد سأل رجلا من المسلمين أن يسأل رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ عن حكمه فى قتيل قتله، فقال: سلوا لى محمداً ﴿ﷺ وآله﴾ فإن بعث بالدية اختصمنا إليه، وإن كان يأمرنا بالقتل لم نأته. ولا مانع من وقوع تلك الأحداث جميعا وتكون هى سبب نزول هذه الآية الشريفة. ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ يعنى أن أحبار اليهود يغيرون أحكام الله بعد أن أحكمها ووضعها فى مواضعها، والتحريف هنا

بمعنى التغيير، فإنه سبحانه حكم أن الزنى المحصن يرجم فى صريح التوراة، فغيروا الحكم فوضعوا الرجم الجلد، ووضع سبحانه سير الأنبياء السابقين فيها، وأنبأ جل جلاله عن محمد ﴿ﷺ وآله﴾ ومولده كما تقدم وسيرته، فحرفوا ذلك وغيَّروه بعد أن وضع كلام الله فى مواضعه الخاصة به.

﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ ﴾ أى: يقول القوم الذين لم يأتوا رسول الله الذين أسمعوا اليهود كلام التوراة محرفا، إن أجابكم محمد بأن حكم الزانى المحصن الجلد فاقبلوا منه، وإن كان جوابه الرجم فاحذروا أن تقبلوا منه أو تشيعوا كلامه بين اليهود، وقد سمع ابن صوريا الحكم من رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ وصدق لأنه كان عالمهم، ولكنه ارتد بعد أن رجع إلى قومه هو وغيره ممن تقدم الكلام عنهم، فأحزن ذلك رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فنهاه الله عن الحزن، وأخبره سبحانه وتعالى بأن الذين يسارعون فى الكفر من المشركين واليهود لم تؤمن قلوبهم، بل آمن بعضهم من المشركين وبعضهم من اليهود بأفواههم، لأن الإيمان إذا باشر القلوب هشت له وبشت وعقدت عليه، وإذا لم يباشر القلوب كان النطق به جُنَّةً لدفع خطر يلحق النفس أو المال أو يلحقهما، وأمثال هؤلاء ليسوا بمؤمنين، ودليل ذلك أنَّا نراهم يسارعون إلى الكفر لأول بارقة تبرق من أمل لهم، وعلى هذا يكون الذين يسارعون إلى معصية الله وإلى الوقوع فيما حرمه سبحانه والتساهل بما أوجبه لم يباشر الإيمان سويداء قلوبهم، وإن تجملوا أمام المؤمنين بأعمال المؤمنين وأحوالهم.

﴿ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ ﴾ أى: من سبق فى قَدَرِ الله تعالى أن يوقعه فى التردد والشك والريب حتى يُحْرَمَ الإيمان ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا ﴾ نفى الله تعالى عن رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ مِلْكَ من ختم الله على قلوبهم بسبب ضلالتهم وشقوتهم، لأن الله تعالى ملَّكه ﴿ﷺ وآله﴾ هداية البيان، فهو يملك أن يبين لمن

سبقت لهم الحسنى سبل الله تعالى، فيهديهم الله هداية الإحسان التى لا يملكها غيره جل جلاله، ويملك أن يبين لغيرهم ممن سبقت لهم من الله السوءى ولكن لا يملك أن يهديهم هداية الإحسان والقبول، قال تعالى: ﴿ وَلَو أَسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعرِضُونَ ﴾[1] وقال تعالى لرسوله ﴿ﷺ وآله﴾: ﴿ إن عَلَيكَ إِلاَّ البَلاَغُ ﴾[2] المراد بالشيء هنا ما قل أو كثر من قبول الهداية، والمسارعة إلى القيام بمحاب الله ومراضيه. وإذا كان خاتم الرسل لا يملك من الله هِدَايةً لأحد لم يُقَدِّر الله لهم فى أزله هداية الإحسان فكيف يملك غيره ﴿ﷺ وآله﴾ أن يهدى أحدا ؟ ! .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ الإشارة عائدة إلى المسارعين فى الكفر بعد إيمانهم بألسنتهم، المرتدين عن الإيمان بحسب ما ظهر لنا، الذين هم فى الحقيقة كفار بل وشر من الكفار، قال الله تعالى: ﴿ إن المنافِقِينَ فى الدَّركِ الأسفلِ مِن النَّار ﴾[3] ﴿ لَم يُرِدِ اللَّهُ ﴾ أى: لم يسبق فى قدره تعالى إرادة طهارة قلوبهم من رجس الكفر، فعاشوا كفارا وشرا من الكفار، لأنهم خدعوا المؤمنين بإظهارهم الإيمان بأفواههم، والله يعلم ما فى قلوبهم﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وهو خزى الجزية وصغار الذمة وضعف الحجة وذل المسكنة ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى: عذاب لا قوى على تحمله جسومهم، قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَت جُلُودُهِم ٠٠٠﴾ الآية[4] وكفى بذلك خزيا وعذابا فى الدنيا والآخرة.

١- سورة الأنفال آية ٢٣.

٢- سورة الشورى آية ٤٨.

٣- سورة النساء آية ١٤٥.

٤- سورة النساء آية ٥٦.

قوله تعالى: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٤٢﴾

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أى: يصغون لأباطيل اليهود والمشركين وأكاذيبهم فى تحريف أحكام التوراة، خصوصا فى زنا المحصن لأن الحكم عليه فى التوراة بالرجم، فكانوا إذا زنى الشريف عندهم بالشريفة بعد الإحصان حكموا عليه بأربعين جلدة وأن يحملوه على حمار، وجهه جهة دبره ويمرون به بين الناس. وإذا زنى الفقير بالفقيرة بعد الإحصان حكموا بالرجم. وأيضا يسمعون تغيير أحبار التوراة التى أنزلها الله تعالى فى بعث محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ أكَّلُونَ لِلسُّحتِ ﴾ السحت أنواع شرها ما يدفعه الزانى للباغية، وما يأخذه الإنسان على لقاح الفحل، وما يأخذه من يتعرض للوساطة بين أصحاب القضايا والحكام أو بين أهل الخصومات، ويلتحق بذلك أن يقرض الرَّجُلُ الرَّجُلَ مالاً ثم يتعرض للإهانة والشر عنده، ويكلفه بقضاء حوائجه لما عليه من الدين، وهذا أشبه بالربا، ومنها أن يمنح الرجل الرجل منحه أرض أو دار يسكن فيها تبرعا ثم يقبل هدية. أما ما يعطى للحكام من الرشا، فليس من السحت فى شيء بل هو كفر، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَم يَحكُم بما أنزَلَ اللّهُ فَأولئك هُمُ الكَافِرونَ ﴾[1] والمرتشى إذا حكم لصالح من رشاه حكم بغير ما أنزل الله، والساعى إلى الكذب آكل السحت وقد أقام الحجة أن قلبه نجس بالكفر أو بالنفاق، فإن القلب إذا باشر الإيمان راقب الله بكل دقة.

﴿ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ يعنى سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم الذين سمعوا الكذب وأكلوا

١- سورة المائدة آية ٤٤.

السحت إذا دعتهم الضرورة إليك لبلاء نزل بهم، يلتمسون عندك تأييـــد حظهـــم وهواهم، أو يجحدون لك وينفرون منك إذا لم يجدوا ما به تنفيذ شهواتهم وتأييدهم على باطلهم، وأمثال هؤلاء لك الخيار معهم: إما أم تحكم بينـــهم بـــالحق الـــذى علمكم الله أو تعرض عنهم.

ولما كان الإعراض عن هؤلاء يثير ضغائن الصدور، وهذا يكرهه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأنه كان يحب تأليف الأعداء فثبت الله جأشه، وطمأن قلبه، وبشره بأن إعراضه عن أعدائه – مع تأييد الله ونصرته سبحانه إياه – لا يضره شيئا قليلا ولا كثيرا. فلم تنف الآية وقوع إثارة الخواطر بين اليهود الذين يعرض عنهم أومن المشركين، ولكنها سكنت النفس إلى منفسها، لأنهم – وإن أثاروا ثائرة العـــداوة والبغضاء – فلا يضر ذلك رسول الله شيئا، وفى هذه الآية بيان للدعاة إلى الله تعالى الذين يسارعون إلى محاب الله ومراضيه جل جلالـــه أن الله يؤيـــدهم وينصـــرهم ويكبت أعداءهم.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى: إذا شـــرح الله صـــدرك للحكم عليهم، فاحكم بينهم بالقسط، وعند القدرة نفذ ما حكمت به علـــيهم، والقسط هو العدل هو حكم الله تعالى الذى أنزل عليك يعنى جل جلاله أن اليهود إذا أتوك يستفتونك فى أمر من أمورهم ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى: بالـــذى أنت أهله ومحله بحسب ما صرح به القرآن ووافق التوراة أو لم يوافق، لأنه عصـــم حبيبه ﴿ ﷺ وآله﴾ من الحكم بغير القسط، ولكنه سبحانه جعله رحمة للعـــالمين، فأمره بالحكم بالقسط بيان لما فطره الله عليه، وتعليم لنا فى ذاتـــه ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى: يحب الذين جملهم سبحانه بالعدالة والرحمة إذا حكموا بين الناس، لأن الحاكم إذا أخذ الرشا كفر، وأثم المعطى لأنـــه أحـــب أن يحكم فيه بغير ما أنزل الله، ولأن الحاكم حكم بغير ما أنزل الله، ﴿ وَ مَـــن لَـــم

يَحكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرونَ ﴾ وأما أهل القسط والعدل فهم الذين جملهم الله بمحابه ومراضيه، وما جَمَّلَ الله عبدا بجماله إلا أحبه، لأنه سبحانه يحب جماله، وهذه الآية سببها الخاص وهو الحكم على الزانية المحصنة، والحكم عام لكل زانية وزان فى حال الإحصان وهو الرجم، ولما كان الزنا – أعاذنا الله منه – قد توعد الله عليه بالخلود فى جهنم لا فرق بين أن يزنى محصن أو غير محصن، وجب على أهل التقوى أن يسارعوا إلى الزواج أو يكثروا الصيام لأنه وجاءٌ من هذا البلاء، أى: وقاية. .

قوله تعالى: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٣﴾

تحكيم اليهود لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى شأن المرأة التى زنت وهى محصنة، دليل على أن القوم لا يؤمنون بالتوراة، بل ينقادون للهوى والطمع، لأن حكم الزانى والزانية مبين فى التوراة ببيان الله تعالى الذى يجب عليهم أن ينفذوه إن كانوا مؤمنين بكتب الله تعالى، ولكنهم – قبحهم الله – أرادوا بتحكيم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الطمع فى فوزهم منه عليه الصلاة والسلام بما حكمت به أهواؤهم من جلد الزانية المحصنة، تحريفا لحكم الله الذى فى التوراة، ولذلك فالله تعالى يقول ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ﴾ أى: اعْجَبُوا من تحكيمهم إياكم، والحال أن التوراة بين أيديهم فيها حكم الله مبينا، أنزله الله على كليمه عليه السلام، وعمل به من أيام موسى إلى ظهور خاتم الأنبياء ﴿ ﷺ وآله﴾ ولكن أهل الكتاب اليهود تقهرهم أهواؤهم فيغيرون أحكام الله، ويحكمون على الزانية المحصنة الغنية بالجلد ، وعلى غيرها الفقيرة بالرجم، فإذا عارضهم الفقراء فى ذلك حكّموا رسول الله فى أمرهم، وأجمعوا على أن يقبلوا منه الحكم إذا وافق أهواءهم، وأن يردوه فى حاله ما إذا وافق التوراة.

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى: أنهم – أخزاهم الله – بعد أن قامت عليهم الحجة أن حكم التوراة على الزانية المحصنة هو الرجم، انقلبوا على أعقابهم منكرين الحق كافرين بالله وبحكمه وبموسى وبمحمد صلوات الله وسلامه عليهم وبالتوراة والقرآن ﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ما: نافية، والإشارة عائدة إلى الذين أتوا رسول الله وطلبوا منه بيان الحكم على الزانية والزانى، وبالمؤمنين أى: انتفى عنهم الإيمان بالله وبرسله عليهم السلام وبكتبه، لأنهم أنكروا حكما معلوما من الدين بالضرورة فى التوراة والقرآن فثبت كفرهم.

قال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴿٤٤﴾

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ يعنى جل جلاله بقوله: (إِنَّا) إنَّ، الدالة على التوكيد، و: نا، الدالة على عظمته جل جلاله تعظيما للتوراة، لأن منزلها عظيم ﴿ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ ﴾ على موسى، جمعنا له فيها بيان الأحكام والعبادات والمعاملات بحسب زمانه، وفيها أيضا بيان العقائد التى يجب أن تعقد عليها قلوب أهل الإيمان بدليل قوله: (وَنُورٌ) لأن النور يكشف الظلمات حتى تستبين الحقائق لمن أدركها، كما تستبين حقائق الكائنات بالشمس إذا أشرقت ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ﴾ أى: بأحكامها التى جمعها الله فيها ﴿ النَّبِيُّونَ ﴾ الذين نَبَّأَهُمُ الله بشرع يعملون به وَيُعْلِمُونَ غيرهم، لأن المراد هنا بالأنبياء الرسل بدليل قوله ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ أى: فوضوا أمورهم لله مسلمين جميع شئونهم له سبحانه، من أنبياء بنى إسرائيل الذين بعثهم الله من بعد موسى إلى خاتم الأنبياء محمد﴿ ﷺ وآله﴾، وهو رسول منهم فهو يحكم بما أنزل الله تعالى فى التوراة من البيان والنور،

وبما أنزله الله عليه فى القرآن إذا لم يكن الحكم فى التوراة أو كان فيها مخالفا لما فى القرآن فإن القرآن نسخ أحكام التوراة وَغَيْرها ، والقرآن كتاب الله المهيمن علـــى سائر الكتب، وهو خاتم كتب الله تعالى، .

وتلك الأحكام التى يحكم بها الأنبياء ﴿ لِلَّذينَ هَادُواْ ﴾ أى: يحكم مـــن أحكام التوراة أنبياء الله الذين اصطفاهم لرسالته ﴿ لِلَّذينَ هَـــادُواْ﴾ وهـــو بنـــو إسرائيل، ومعنى هادوا لغة أى: رجعوا إلى الله تعالى، وهم الذين كـــانوا ينفـــذون أحكام التوراة ابتغاء مرضاة الله ولا يغيروها ولا يحرفوها ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ ﴾ الربانيون هم الذين منحهم الله العلم والحكمة، فربوا تلاميذهم بصغار المسائل حتى يبلغوا أشُدَّهُم فيبيحون لهم غوامض العلم، وهم المنسوبون إلى الرب جل جلالـــه، والأحبار هم الذين حَصَّلُوا العلم و لم يُمْنَحُوا الحكمة وهم أمناء الشريعة وأنصـــار الحكام على بيان الأحكام.

﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء ﴾ الجار والمجـــرور متعلق بحكم، و : ما ، هنا مصدرية، و ﴿ اسْتُحْفِظُواْ ﴾ بمعـــنى اســـتودعوا أى: جعلهم الله جزنا للعلم يقومون بتأدية الأمانة عند مقتضاها. وسبب الآية خـــاص وهو أن ابنى صوريا عاهدهما رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ على أن يصـــدقا معـــه فى الإجابة عما سألهما عنه، وكان أولهما ربانيا والآخر حبرا، فأخبرا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بحقيقة ما فى التوراة فى شأن الزانى والزانية، وبشأن ما أنزله الله فيها من نعته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه من ولد إسماعيل، وأخبرا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما حرفته اليهود طمعا فى الدنيا الفانية. والحكم عام فإن ربانيى المســـلمين وأحبارهم يحكمون كذلك بما أنزل الله تعالى، وبما أودعهم الله من العلـــم النـــافع واستحفظهم عليه جل جلاله، وهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة كالنجوم بـــأيهم اقتدينا اهتدينا.

﴿ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء ﴾ أى: وكانوا على نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وتصديق ما جاء به من الدين وعلى تكذيب اليهود له ﴿ ﷺ وآله﴾، وعلى أممهم بسبب تحريفهم أحكام الله فى التوراة وكلماته سبحانه شهداء بما استودعهم الله تعالى من العلم، ولا يزال هذا الثناء من الله تعالى على كل قائم بمحاب الله ومراضيه فى كل زمان ومكان، حفظا لآيات الله وأحكامه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ومن حفظ الله تعالى للذكر – أى: للقرآن المجيد والسنة المحمدية – قيام أفراد من صفوة عباده يحفظون ثغور الإسلام من العدو الداخل والخارج باللسان والقلب، أو بالقلب فقط عند ظهور أهل الباطل، أعاذ الله المسلمين من ظهور الباطل وأهله إنه مجيب الدعاء.

﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ وينهى الله تعالى بنى إسرائيل عن خشية الناس مهما كانت حالتهم فى الدنيا، فإن أحدا لا يضر ولا ينفع من غير إذن الله، خصوصا الخشية التى تجعلهم يتغالون فى الكفر، فيغيرون كلام الله ويحرفون أحكامه خشية من الناس، فيحكمون بالجلد على الزانى والزانية المحصنين الأشراف وإن حكم الله تعالى فيهما بالرجم، ويحكمون على الزانى والزانية الفقيرين المحصنين بالرجم، وكل من يخشى الناس ولا يخشى الله تعالى – خصوصا فى تغيير أحكام الله تعالى – فهو كافر ﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ أى: ولا تبيعوا أحكامى فتغيروها طمعا فى عرض يزول مهما كان مقداره، وهذا العرض بالنسبة لما ينال المغير لحكم الله من العذاب شيء قليل جدا، وهذه الآية يراد بها الحكام وهم الولاة الذين ولاهم الله أمور المسلمين وإن كانت الآية نزلت فى اليهود فإن خصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ هذه الآيات مرتبطة بالآية المتعلقة بحكم الزانى المحصن والزانية المحصنة

١- سورة الحجر آية ٩.

التى سبق الكلام عنها، وقد كرر الله هذه الآية فى القرآن بمعناها وبغير لفظها فقال: ﴿ وَمَن لَّم يَحكُم بَمآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1] و﴿ فأُولِئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾[2] والظلم والفسق بمعنى الكفر، والمراد بهذه الآية كلها اليهودوقيل:الآية الأولى للمسلمين وهى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّم يَحكُم بَمآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ والثانية وهى قوله تعالى: ﴿ فأُولِئكَ هُمُ الظّالمُونَ ﴾ لليهود، والثالثة وهى قوله تعالى: ﴿ فأُولِئكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ للنصارى.

وتحقيق الأمر فى هذه الآية أن من حكم بغير ما أنزل الله جاحدا حكم الله تعالى فهو كافر، ومن حكم بغير مال أنزل الله مؤمنا بالله ورسوله ولكن هواه وطمعه دعياه لذلك فهو كافر بالحكم فقط، ومن حكم بغير ما أنزل الله تعالى جاهلا بالحكم فهو كافر أو ظالم أو فاسق أو آثم إثما عظيما، وكفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

أما الكفر الذى هو مفارقة الإسلام فلا يُحْكَمُ به إلا على من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإلا فهو ارتكاب كبيرة جعل لها القرآن حدًّا مطهِّرا لا توقع فى الكفر، أما المرتد فقتله ليس مطهرا فإنه يقتل كفرا، ومن هذا قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (آية ما بيننا وبين المنافقين شهود العشاء والصبح) أى: فى الجماعة، وليس كل مسلم لم يشهد العشاء والصبح فى جماعة يكون منافقا فى الدرك الأسفل من النار، بل المراد بالنفاق هنا النفاق العلمى لا العملى، وكذلك المراد بالكفر والظلم والفسوق المحكوم بها على من حكم بغير ما أنزل الله المراد بها من أهل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخركفر بالحكم، والخلاف بين العلماء فى

١- سورة المائدة آية ٤٥.

٢- سورة المائدة آية ٤٧.

هذه الآية لفظى. فإن من أراد بالكفر والظلم والفسق على الجاحد حكم بأنه الكفر الذى يخلد صاحبه فى نار جهنم، ومن أراد بها الكفر بحكم الله تعالى كما هو الواقع من بعض أهل الإيمان الذين يحكمون بغير ما أنزل الله للعاطفة أو للهوى مع كمال الإيمان بالله فهو مرتكب لكبيرة، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1] الحساب يوم القيامة بمثقال الذرة.

قال تعالى: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

بعد ان بين الله تعالى سوء نوايا اليهود وقُبْحَ أعمالهم من أنهم يغيرون أحكام الله بحسب المحكوم عليه، بين لنا سبحانه وتعالى ما حكم به فى الحدود والقصاص مما هو صريح فى التوراة وغيَّروه وحرَّفُره، يقول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ يعنى أنه من قتل نفسا قُتل بها، فغيروا هذا الحكم، فكانوا إذا قتل الغنى الشريف نفسا حكموا عليه بالدية، وإذا قتل الفقير نفسا بغير قتلوه بها، وكذلك كانوا يفعلون فى قوله تعالى: ﴿ وَ العَينَ بِالعَينِ ﴾ من فقأ عين آخر فقئت عينه بها ﴿ وَالأَنفَ بِالأَنفِ ﴾ ومن قطع أنف غيره قطعت أنفه ﴿وَالأُذُن بِالأُذُنِ ﴾ ومن خرق أذن غيره خرقت أذنه،وكذلك قوله ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِ﴾.

﴿ وَ الجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ إن الله تعالى شدد على بنى إسرائيل فى أحكام الجنايات فلم يجعل فيها دية، ولكنه حكم بالقصاص أو العفو، ومعنى: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ أى: قَصَاصَة فيقتض الحاكم من الجانى بقدر جنايته، وهذا التشديد

١- سورة الزلزلة آية ٧ – ٨.

عليهم لِمَا جبلت عليه نفوسهم. وفى هذه رهبة الآية لأهل الإسلام الذين يتولـون الأحكام، وأن حكم الله الذى أُنزل على كل نبى قبل القرآن يجب العمل به إذا لم ينسخه القرآن بصريح آية. وقد حكم رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ بهذا الحكم فـرجم الزانى المحصن كما ورد، وإن لم نجد فى القرآن المقروء بين ظهرانينا آية الرجم، فإن الزانى المحصن لا توبة له إلاّ بالرجم عملا بحكم التوراة الذى أخبرنا الله تعالى به فى القرآن المجيد (١).

﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ أى: فمن تصدق بالقصاص من الجانى فعفا عنه فهو كفارة للمتصدق على الجانى جزاء عفوه. وقال بعض العلماء: الهاء فى (له) عائدة إلى الجانى لأن المحتاج إلى العفو هو الجانى، وأما إذا اقتص من الجـانى فإن القصاص يكون له نوبة، وأما العفو فلا تتحقق به التوبة اللهم إلا أنه ترفع عنه عقوبة الدنيا فقط، فإن الزانى والسارق والذى يسب المؤمن الغافل والمحصنة الغافلة لو عفا المجنى عليه فإن عفوه عنه لا يسقط عقوبة يوم القيامة وإن أسقطها فى الدنيا، وإن تأول البعض فى قوله تعالى: ﴿ فَهو كفارة له ﴾ أى: للجانى، وتأويل الآية بهذا لا يجعل المجنى عليه يعفو مطمئنا قلبه، وقد ورد أن قرشيا دفع رجلا من الأنصـار فاندقت ثَنِيَّتُهُ فرفعه الأنصارى إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال معاوية: شأنك وصَاحِبك. قال: وأبو الدرداء عند معاوية – فقال أبو الدرداء: سمعت رسـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يقول: (ما من مسلم يصابُ بشيء فى جسمه فيهبـه إلا رفعـهُ اللهُ درجةً وحط عنه خطيئةً) فقال الأنصارى: أنت سمعتـه مـن رسـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾؟ قال: سمعته أذناى ووعاه قلبى. فخلى سبيل القرشى، فقال معاوية: مروا له بمال.

١- قوله تعالى: (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله . .) سورة المائدة آية ٤٣.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ هذه الآية الشريفة نزلت فى اليهود الذين حرفوا أحكام الله تعالى كما بينت لك قبلا، وهذا الظلم هو الكفر، لأنهم يعلمون أحكام الله ويغيروها عنادا وطمعا وتهاونا، وهذا الحكم يشمل الحكام من غير اليهود.

قوله تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ أى: أتبعنا موسى بعيسى بن مريم إتباعا على آثار الأنبياء السابقين، حال كونه ﴿ مُصدّقاً لما بين يديهِ ﴾ أى: ماسبقه من كتاب الله الذى أنزله على موسى عليه السلام المسمى بالتوراة، وزدنا عيسى بن مريم عليهما السلام الإنجيل الذى أنزله الله عليه ﴿ فِيهِ هُدىً ﴾ أى: بيان لأهل عصره (وَنُورٌ) أى: كشف للحقائق التى غَيَّرَهَا بنو إسرائيل للأهواء والأطماع ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ وهذا الإنجيل صدق التوراة وأثبت ما بها من الأحكام، وأخبر أنها هى كتابه المعمول به، إلا ما نسخه الإنجيل مما خفف الله به على بنى إسرائيل ﴿ وَهُدىً وَمَوعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وكما أن عيسى عليه السلام صدق من سبقه من الرسل، وكان هدى أى: بيانا، ونورا أى: كشفا للحقائق، فكذلك الإنجيل كان هدى وموعظة للذين يتقون الله تعالى.

قوله تعالى: وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ ﴾ (وَلْيَحْكُمْ) بكسر اللام وفتح الميم الأخيرة، وجعل اللام لام كى، والجار والمجرور فى هذا التأويل متعلق بقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وكى يحكم أهل الإنجيل بما أنزلنا فيه، فتكون اللام لام كى، وقرئت بسكون اللام وسكون الميم الأخيرة بتأويل أن اللام للأمر وهى قراءة للحجازيين وغيرهم، والقراءتان صحيحتان.

هذا الأمر من الله تعالى لأهل الإنجيل أن يحكموا بما فى الإنجيل من البشائر بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾، ويسارعوا إلى الإسلام، وجائز أن يكون المراد أن يحكموا بما وافقه القرآن و لم ينسخه فيكون الحكم للقرآن.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون ﴾هذه الآية الشريفة فى النصارى الذين أنكروا بيان عيسى عليه السلام نَعْتَ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . والظلم والفسق والكفر سيان، وقد بينت ذلك فيما تقدم.

قوله تعالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود من حيث تغير كلام الله وتحريف أحكامه فى التوراة التى أنزلها الله على موسى، كما بين تحريف النصارى فى الإنجيل الذى أنزله على عيسى، تفضل جل جلاله فبين لنا ما خص به حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ من التعظيم بأنواع كثيرة منها

قوله تعالى: (بِالْحَقِّ) أى: بالصدق واليقين الذى لا تشوبه شائبة، وقد تقدم تأويل قوله: ﴿ أنزَلنَا إليكَ الكِتَابَ ﴾[1] و﴿ مُصَدِّقاً ﴾ هنا حال من الكتاب ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى: لما سبق من الكتب المترلة على الرسل قبله، وفى هذا من الشرف للرسل السابقين ما قصم ظهور المنكرين عليهم، خصوصا أهل الإنكار على عيسى عليه السلام الذين رموه بأنه ابن زنا، فتصديق القرآن للإنجيل تأييد من الله تعالى ﴿ وَمُهَيمِناً عَليهِ ﴾ للهيمنة معان كثيرة وسياق الآية يدل عليها جميعها، منها أن القرآن الكريم أمين على الكتب وحفيظ وشهيد، فهو مثبت وناسخ، وهو الذى أكمل الله به دينه وأتم به نعمته على أهل الإسلام، وهو حبل الله المتين الذى جعله الله بينه وبين عباده، فطرفه الأعلى بيد الله تعالى وطرفه الآخر بيد المسلم، من تمسك به وصل إلى الله تعالى.

وجائز أن يكون مُهَيْمَناً عليه بفتح الميم أى: مُؤتَمناً على الكتاب الذى أنزله الله تعالى، و(ألـ) هنا فى قوله تعالى: ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ للاستغراق، أى: جعله الله أمينا عليه بمعنى أنه يُظْهِرُ ما غيرَّه أهل الكتاب من أخبار الله تعالى، وأحكامه المتعلقة برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبأحكام الجنايات، ومن قال: إن مهيمنا حال من الكاف فى قوله: (إليك) فتكون الهيمنة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . ونظم الآية لا يؤيد هذا التأويل؛ لأن التأويل لو كان كما فهمه من تأول ذلك لكان النظم: وأنزلنا إليك الكتاب مصدقا لما بين يديك ومهيمنا عليه أى: أنت. ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ ﴾ بعد أن أخبر الله تعالى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله وأنزلنا إليك الكتاب كما سبق ووصفه بأنه مصدق للكتب السابقة ومهيمن عليها، أمره سبحانه وتعالى بقوله جل جلاله: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم ﴾ والفاء هنا للفصيحة

١- راجع تفسير الآية ١٠٥ من سورة النساء ، والجزء الخامس من (أسرار القرآن).

أى: إذا جاءك أهل الكتابين فى إن تحكم بينهم فى شأن من شئوهم فاحكم بينهُم بما أنزل الله تعالى.

﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ أى: فنفّذ فيهم الحكم بما أنزل إليك، ثم نهاه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ ﴾ والله تعالى يعلم أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ لا يتبع أَهْواءَهُم، وكيف يتبع أهواء أهل الكتاب بعد أن وقف أمام قريش منفردا يقرر حقائق التوحيد، وهم أهل جاهلية عمياء وحمية صماء وتعصب لآلهتهم، وهذا النهى من الله تعالى يظهر ما عليه اليهود من الخبث ومن عبادة الهوى، مع دعواهم أهم أهل كتاب، وأهم أبناء الله وأحباؤه، فيكون لكلامهم تأثير على قلوب السذج الحديثى عهد بالإسلام، فهذه الآية الشريفة بينت أن الله سبحانه يحذر رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ - مع عصمته، ومع أنه لا ينطق عن الهوى – من خبث اليهود. فكيف يكون حال من لم يتذوق حلاوة الإيمان معهم ؟ فيجب وجوبا قطعياً على المسلمين اليقظة والحذر، والانتباه الدائم لفتن اليهود وألاعيبهم التى تجاوزوا فيها كل حد، ويجب علبنا أن نفهم هؤلاء الأشرار على حقيقتهم وطبيعتهم التى كشف القرآن الستار عنها، وفضحهم وبين مساوئهم، والذى نحن فيه اليوم من الحروب والبلاء والمصاعب من عدم فهم المسلمين لقرآهم وسنة نبيهم ﴿ ﷺ وآله﴾ التى عرّفت بشأن اليهود فى جميع أدوارهم مع الرسل والأنبياء، ومع المجتمعات التى يعيشون فيها.

﴿ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى: أن القوم أهل فرية وقد علتهم مهانة الكذب على الله، فتدفعهم الذلة والخزى إلى أن يدفعوا عن أنفسهم بعبارات ظاهرها دين، وباطنها ضلال، يسندوها إلى الكتب السماوية افتراء على الله تعالى لأهم يحرفون الكلم عن مواضعه؛ وفى هذه الآية عبرة لمعتبر، ويقظة القلوب أهل الإيمان، وتحفظ من الإصغاء إليهم والوقوع فى شباك بهتاهم.

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ (جَعَلْنَا) والتنوين فى: كُلٍّ، عوض عن الرسل الذين ذكرهم الله فى الآية السابقة وهم: موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، والشِّرْعَةُ والشريعة والشارع هى محلٌّ ورود الناس لشرب الماء أو الطريق والواسع الذى يمر به الناس، وهى هنا كتاب الله تعالى الذى شرع فيه شرائعه وبين فيه ما به يكون المتمسكون به قد فازوا بالحسنيين فى الدنيا والآخرة، والشريعة والشِّرْعَةُ الطريق العام لكل مسلم، والمنهاج هو الطريق الخاص الذى لا يسلكه إلا الأفراد الذين جملهم الله بالعلم به سبحانه، وبأيامه، وبأحكامه، وبحكمة أحكامه، ووفقهم سبحانه للقيام بمحابه ومراضيه جل جلاله، وبين الشرعة والمنهاج كما بين المتعلم المبتدىء والمحصل المنتهى- وإن جعلهما بعض العلماء مترادفين _ لأن الواو هنا تفيد مغايرة المنهاج للشرعة.

والمعنى أن الله جل جلاله أنزل على كل رسول كتابا جمع له فيه العقيدة التى هى أصل الدين، قال تعالى مخبرا عن عيسى: ﴿ قَد جئتكُم بِالحِكمَةِ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2] وبها – أى: بالشرعة – النجاة من هول يوم القيامة. ثم بين فيها الأحكام والمعاملات التى تناسب كل زمان ومكان، فشريعة موسى عليه السلام أتت بعدها شريعة عيسى فخفف عن بنى إسرائيل ما شدد الله به عليهم، قال عليه السلام: (وما جئتُ لأهدم الناموس ولكنى جئت لأتممه) [3] ، ثم جاء خاتم

١- سورة الزخرف آية ٦٣.

٢- سورة آل عمران آية ٥٠.

٣- النص كما ورد بالفقرة ١٧ من الإصحاح الخامس بإنجيل مَتَّى هو: ((لاَ تَظُنُّوا أَنِّى جِئْت لأِنقُضَ النَّامُوس أو الأنبياء، مَا جِئتُ لأِنقُضَ بَلْ لأِكَمِّلَ)).

الرسل عليه السلام على فترة من الرسل، فجمع الله له فى القرآن العقيدة مُفَصَّلَةً، والعبادة التى جَمَعَتْ شكر الله وحمده للروح والعقل والجسم، وعبادته سبحانه بكل الجوارح، والمعاملات التى سوت بين الإنسان والإنسان، لا فرق بين المسلم وغيره، حتى فاز المجتمع بالسعادة التى لم يفز بها مجتمع قبل الإسلام، وبالأخلاق التى جعلت الملائكة يغبطون المسلمين لما جملهم الله به من الأخلاق الروحانية، والمزايا الملكوتية، حتى صاروا كأنهم ليسوا من بنى الإنسان لاِتِّصَالِهِم بالعالم الأعلى، فقال سبحانه : ﴿ وأنتُمُ الأَعلَونَ ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[2]

إذا تقرر هذا، تبين أن الله سبحانه أنزل أصول الدين واحدة لكل رسول من الرسل، ثم فضل كل رسول بما خصه سبحانه من المزيد فى أنواع العبادات والمعاملات والأخلاق، وإن اتحدوا جميعا فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحسن معاملة عباده كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ . . . ﴾[3] الآية، وهذه الآية بالنسبة لأصول الدين. أما قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ فهى فى الفروع التى بُيِّنَتْ، وبهذا صح الجمع بين هذه الآية والآيات الأخرى، ولو كان المنهاج هو الشرعة لما رفع الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات

١- سورة آل عمران آية ١٣٩.

٢- سورة الأعراف آية ١٥٦ – ١٥٧.

٣- سورة النساء آية ١٦٣.

والذين أوتوا العلم درجات ولكانت الجنة بابا واحدا، وإنما يتفاضل المسلمون بما تفضل الله عليهم من اليقين الحق، والمحبة له جل جلاله، والاستقامة على صراط مستقيم. (مِنكُمْ) أى: الرسل الذين خاطبهم الله فى هذه الآية، وهم من بَيَّنهم الله فى أول هذه الآيات.

﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لو هنا حرف امتناع لامتناع، تنفى المثبت وتثبيت المنفى، وعلى هذا يكون المعنى: لم يشأ الله جعلكم أمة واحدة فلم يجعلكم، والمشيئة لمدعى الإرادة، والأمة هى الجماعة المتحدون على دين واحد وشريعة واحدة ومشيئة الله هى مقتضى ظهور معانى صفاته، ولكل اسم من أسمائه صفة، لأن الله خلق أنواعا كثيرة متحدة شكلا وعملا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وخلق الإنسان مظهرا لجميع معانى صفاته جل جلاله، فهو – وإن تناسب من حيث الهيئة والشكل – إلا أنه مختلف كمال الاختلاف من حيث الهمة والتروع والقابل، فمن الإنسان من يبلغ أن يكون من الأعلين وهم الرسل والصديقون، ومنهم من يكون فى الدرك الأسفل من النار وهم الكفار والمنافقون، فكان الإنسان أكمل مظهر لمعانى الصفات، وهذا هو السر فى أن الله خلقه بيديه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا، وأقامه خليفة عنه سبحانه وتعالى.

﴿ وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم ﴾ أى: ولكنه جعلكم أمما متفرقة، لكل أمة شريعة ومنهاج بحسب الرسل المرسلين إليها، للابتلاء من الله تعالى بما أنزل على الأمم من الأحكام أمرا ونهيا، أو بما بينه رسله صلوات الله وسلامه عليهم من نوافل البر التى هى سننهم،إبرازا لما قدّره أزلا بحسب ما تقتضيه صفاته العلية. وهذه الآية دلت دلالة صريحة على أن ما عليه الإنسان هو تقدير الله وإرادته التى خصص بها ما شاء من حضرة علمه. ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ أى: سارعوا إلى القيام بمحاب الله

ومراضيه التى بَيَّنها فيما أنزله على خاتم أنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وهـــذا الأمر لا يقتضى مخالفة لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فإنـــه تعالى أخفى القدر عنا وأظهر لنا ما كلفنا به أمرا ونهيا من عقيدة وعبادة ومعاملـــة وأخلاق، وهذا الأمر مرتب على ظاهر الأمر والنهى، ويؤخذ منه أنه إذا أمر مـــن منحوا القابل منه وسبقت لهم منه الحسنى سمعوا فوعوا فقبلـــوا وأقبلـــوا بتوفيقـــه وعنايته، فكان هو سبحانه المقدِّر، وهو الآمر والمعين الموفق للعمل، وهو المتفضـــل على من أسمعهم وأقبل بهم وأعانهم بنسبة العمل إليهم ليفوزوا بالحسنى، وهـــو ذو الفضل العظيم، ومن لم يفز بقسط وافر من مشاهد التوحيد العالية لم يتذوق مـــن أسرار القرآن شيئا.

﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ إذا تأولنا قوله ســـبحانه: ﴿ فَاسْـــتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ أمرا لأمَّةِ محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ فتكون المعنى: إلى الله مصيركم يـــا أمـــة محمد. وإن كان الخبر مرادا به جميع المختلفين من الأمم فتكـــون المعـــنى: إلى الله مصيركم أيها المختلفون المحقين والمبطلين بعد الموت، وبعد أن بين لكم سبل نجاتكم على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم بإقامة الحجج ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ وتنبيء الله إياهم يوم القيامة مؤيد بوجود ما نبأهم به فى الدنيا وجود عيان، بعد أن كان بيانا فى الدنيا؛ فإن بيان الله لتلك الحقائق فى الدنيا كان اختباراً وابتلاءً منه لهم، لتقوم الحجة على إيمانهم بالغيب أو الكفر به، وكونه نَبَّأَهُمْ يـــوم القيامة بما كانوا يختلفون فيه على الرسل، إنما كان ذلك البيان بكشف الحقائق التى توعدهم بها على اختلافهم فى الدنيا، فثبت أن الله تعالى بين لهم فى الـــدنيا ســـبيل النجاة وطريق الهلاك، فآمن من آمن، وكفر من كفر، ثم كشف الحجاب لينبـــئهم بما كذبوا به فى الدنيا، لديها يصح إيمانهم حيث لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنـــت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا.

قوله تعالى: وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ ﴾ الواو هنا للعطف، وأن ما دخلت عليه فى تأويل مصدر معطوف على الكتاب فى قوله: ﴿ وَأنزلنَا إليكَ الكتَابَ ﴾ ﴿ وأن آحكُم ﴾ وقد تقدم أمر الله تعالى له ﴿ ﷺ وآله﴾ بالحكم فى قوله تعالى: ﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ ﴾ فيكون الأمر بالحكم هنا فى قوله: ﴿ وأن آحكُم﴾ توكيدا لقوله تعالى: (فاحْكُم) أو يكون: ﴿ وَأَن احكُم. ﴾ الثانية لحادثة القتل، والأولى لحادثة الزنا، لأن اليهود رفعوا أمر الزنا وأمر القتل لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ليحكم بينهم.﴿ بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ ﴾ إعلام لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بخبث نوايا اليهود وسوء مقاصدهم فى رفع الأمر إليه، وهم أهل فرية وكيد، فكانت الآية كمعجزة عندهم خصوصا عند قوله تعالى: ﴿ ولا تتبع أهواءَهُم ﴾ فَإن اليهود أرادوا بذلك خدع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيحكم بما حكموا به لأن ابن صوريا ومن كان معه من الأحبار قالوا: يا أبا القاسم، أنت تعلم أنَّا أحبار اليهود، وإذا نحن آمَنَّا بك اتبعنا أكثر اليهود، وقد آمنا، ثم طلبوا منه البيان فى حكم الزانى المُحصَنِ وفى حكم القاتل، وأخفوا عنه صلى الله عليه وسلم صريح التوراة، وبينوا أنهم حكموا فى الزانى المحصن بالجلد، وفى قاتل النفس بالدية، فجاء جبريل لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما فى التوراة، فحكم بما أنزل الله فى التوراة وفى القرآن فارتد الأحبار.

وفى هذه الآية نهاه الله عن اتباع أهوائهم التى دعتهم إلى تحريف كلام الله تعالى، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وكفروا بالله تعالى لأنهم حكموا بغير ما حكم الله به.

﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ ﴾ هذه الآية الشريفة نزلت بعد أن وفد على رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كعب بن أسد وابن صوريا وشاس ابن قيس من أحبار اليهود، وَهَمُّوا أن يخدعوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما تقدم الكلام عنه فى هذا الشأن، فحكم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما أنزل الله وردهم بخزيهم، فأنزل الله عليه ﴿ ﷺ وآله﴾: ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ بزخرف كلامهم، وبضلالهم وافترائهم على الله تعالى عن ما رفعوه إليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ليحكم لهم فيه من الزنا والقتل، بعد أن غيروا حكم الله فيها ، وهذا هو البعض الذى يحذر الله رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يفتتن بخدعهم له فيها. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أى: إن أبى الأحبار أن يقبلوا حكم الله الذى أنزله فى التوراة وغيروه، وحكم الله الذى أنوله فى القرآن وحكم به ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فاعلم علم يقين أن الله لم يُقدِّر هدايتهم، ولكنه سبحانه قدر إضلالهم، وأن يُعجِّلَ العقوبة لهم فى الدنيا، وتلك العقوبة هى إجلاء قريظة والنضير قينقاع إلى الشام من ضواحى المدينة المنورة، وضرب الجزية عليهم، ووقوعهم فى الخزى والمهانة بسبب كفرهم، وعذابهم الأليم يوم القيامة.

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ المراد بالناس هنا هم اليهود، فـ (أل) فى (النَّاسِ) للعهد، وهذا خبر الله تعالى مؤكد بإن، يدل على أن اليهود جميعا من أولهم إلى آخرهم فاسقون إلا قليلا منهم. من ذلك ما حصل من الأسباط مع يوسف الصديق عليه السلام، وما حصل منهم مع موسى عليه السلام، ومع داوود، وسليمان وزكريا ويحى وعيسى بل ومع أكثر النبيين عليهم السلام. والفسق هو الخروج من الدين كما تقدم، وإنهم – قَبَّحهم الله تعالى – جمَّلُوا ظاهرهم بالدين، لكن قلوبهم منطوية على الظلم والفتنة والتحايل على الخلق، ليسلبوا مرافق الحياة من أيدى الناس.

قوله تعالى: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّـــهِ حُكْمًـــا لِّقَـــوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

هذا الاستفهام توبيخ لليهود وتهديد لهم، وإقامة الحجة علـــى كـــذبهم فى دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأهل كتابه، فإن الله سبحانه سوَّى فى التوراة بـــين الناس فى القَوَد وأرْش الجراح، ولم يجعل لأحد على أحد فضلا إلا بالتقوى، والتقى لا يقع فيما يوجب القود منه ولا القصاص، فلم يبق ثَمَّ من يُقَاد أو يُقْضَى منه إلا الجاهلون بالله تعالى، وليس بين هؤلاء تفاضل، والكل سواء فى أحكام الله تعـــالى. فينكر الله عليهم ابتغاءهم حكم الجاهلية فيما وقع بينهم مما يجب عليهم أن ينفذوا فيه حكم الله، وسبب ذلك أنه كان بين قريظة والنضير خلاف قبل الإسلام، وكان النضير يرفعون أنفسهم عن قريظة فيأخذون منهم دية القتيل ضعف ما يعطونه فيها، حتى أظهر الله دينه، وشرف المدينة بمقدم خاتم الأنبياء عليـــه الصـــلاة والســـلام، فتحاكم إليه قريظة والنضير، وأخبروه عليه السلام عن ظلم بنى النضير لهم، فقال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى حكمه عليهم: (إنى أحكم أن دم القريظى وفاء من دم النضـــيرى، ودم النضيرى وفاء من دم القريظى ليس لأحدهما فضل على الآخر فى دم ولا عقل ولا جراحة). فغضب بنو النضير وقالوا: لا نرضى بحكمك فإنك عدو لنا، فأنزل الله هذه الآية. .

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ يعنى حكمهم الأول. وقيل: سبب الآية أنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه، وإذا وجب على أقويـــائهم لم يأخذوا هم به كما كان يعمل أهل الجاهلية الأولى الذين كانوا يأخذون بـــالنفس أنفسا علوا بغير الحق، وكان القوى يأخذ لنفسه ما يشاء من الضـــعيف، فتشـــبه اليهود بالجاهلية الأولى مع ادعائهم العلم والدين والخشية والتمسك بالتوراة، خدعة منهم وافتراء على الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُـــونَ﴾ ومـــن

أحسن من الله الذى أنزل التوراة على كليمه موسى مبينا فيها محابه ومراضيه، وهذا الأحسن إنما أنزله الله تعالى بيانا لقوم يوقنون، أى: لأهل الإيقان الذين منحهم الله القابل للحق، والعقل فى دينه، والفهم عنه سبحانه، فاللام فى قوله: (لِّقَوْمٍ) للبيان، وتقدم على اليقين. .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء ﴾ معلوم أن خصوص لسبب لا يقتضى خصوص الحكم، لاسيما وقد أنزل الله الآيات عامة، ولهذه الآية أسباب لا تخرجها عن العموم منها: أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه جاء إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فتبرأ عنده من موالاة اليهود، فقال عبد الله ابن أُبَىّ: لكنى لا أتبرأ من موالاهم لأنى أخاف الدوائر. وذلك بعد أن بارزوا الله ورسوله بالعداوة، فنزلت هذه الآية بيانا منه سبحانه أنه إذا تولاهم وتمسك بحلفهم فإنه منهم فى براءته من الله ورسوله كبراءهم منها.

وقد روى الإمام ابن جرير الطبرى غفر الله لنا وله أن بنى قينقاع لما حاربوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ تَشَبَّث بأمرهم عبد لله بن أُبى وقام دونهم، فمشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ – وكان أحد بنى عويمرة ابن الخزرج له من حلفهم مثل الذى لهم من عبد الله بن أُبىّ – فجعلهم إلى رسول الله وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم.

ومنها أنَّ رجلين من الصحابة أهلع قلوبهم ما حصل فى غزوة أحد مما تقدم ذكره، فقال أحدهم: إنى أتوجه إلى دهلك اليهودى فأهود معه، وقال الآخر: إنى أتوجه إلى الشام فألحق بفلان النصرانى فأتنصر معه، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى أى: فلا تتولوا اليهود والنصارى ولاية تخرجكم عن ولاية الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، فإن الشرك الخفى إذا اعتور القلوب أنساها ذكر الله وأيام الله ونعم الله على العبد ، فينتج من ذلك نسيان يوم القيامة، والمؤمن إذا نسى يوم القيامة وقع فيما يغضب الله تعالى وهو سُلَّم الكفر بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ ...﴾[1] ولم يكن الله نسيا، ولكن نسيانه لهم حرمانهم من المغفرة والرحمة ومن النعيم المقيم، أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين. ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ يعنى أن النصارى واليهود أنصار لبعضهم عليكم، فهم يحاربونكم كى يردوكم عن دينكم، ويسلبوا أموالكم وأعراضكم، وهم شر أعدائكم، وكيف لا يكونون كذلك وهم قد كذبوا رسول الله وجحدوا الله ؟ وكل مسلم يجب من كذب رسول الله وجحد الله فهو كافر مثله. وإذا كان بعضهم أنصارا لبعض وأعوانا عليكم، فكيف توالونهم وهم أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء ديننا ؟ وولايتكم لهم نصرة للباطل، وهى فى الجملة خذلان للإسلام ولأهل الإسلام، ورجل يدعى أنه مسلم ويخذل الإسلام وأهل الإسلام كاذب فى دعواه، وإن أعداء الله – أذلّهم الله لنا – يخدعوننا عن ديننا ومجدنا وشرفنا، بل وعن قوتنا الضرورى.

وأنواع خُدَعِهم مختلفة، شرها إرسال دعاة النصرانية بيننا فيذمون رسول الله، ويُكَذّبون كتاب الله، وينادون فى أسواقنا ومجتمعاتنا، ونحن لا هون عنهم، بل وبعضنا قد يصغى لقولهم، مع أن الرجل المسلم إذا اغتصب منه درهم قام يدافع عنه حتى يَقْتُلَ أو يُقْتَل، وإذا رأى الله ورسوله يهينه دعاة النصرانية لا يرى فى نفسه غضاضة، وبذلك يكون المسلم غير مسلم، وكيف يرضى رجل مسلم أن يقوم خطيب أو مجادل يَذُمُّ الله ورسوله وكتاب الله العزيز ولا تأخذه الغيرة لله ولرسوله؟! . هذه حجة على كفره بالله ورسوله. وشَر من ذلك أن ترى المسلم

١- سورة الجاثية آية ٣٤.

يسعى إلى الكفار فيقف على بابه لغرض دنيوى ذليلا مهانا، فيعز الكـافر ويـذل نفسه وهم مسلم. ولقد عم البلاء لضعف الإيمان فى القلوب حتى أصبح العلمـاء يزورون الكافر فى بيوتهم من أجل الوظائف والرياسـات، ويـأكلون طعـامهم وشرابهم، وينشر عنهم ذلك فى الجرائد وغيرها ولا يبالون، ويدَّعون أنهم علمـاء، والإسلام منهم براء.

ولو أن المسلم أحب الله ورسوله ورضى أن يجوع يوما ويشبع يوما حـتى يفوز برضوان الله الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سـليم، لفاز بالحسنيين، ولحفظ لنفسه شرف دينه ونفسه ومجد أمتـه، ولكـن قاتـل الله النفاق، ينسى الإنسان لقاء الله تعالى وعذابه ونعيمه سبحانه، فيفرح بالحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ ورَضُوا بالحَياةِ الدُّنيا ﴾[1] ﴿ وَمَا الحَياةُ الدنيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾[2] ومن قال: إن عالما يزور الكفار هو عالم، سلب إيمانه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخشَـى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾[3] ورجل لا يخشى الله من الذى يحكم له بالعلم ؟! .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أى: ومن يتولهم بالنصرة والتأييد فإنـه كافر مثلهم، وذلك لأن أهل الملل الواحدة وأهل المذاهب الواحـدة وأهـل الآراء الواحدة قد تقوى العصبة بينهم أكثر من عصبة أبناء الأمم الواحدة، وسر ذلك أن الله سبحانه قدر فى أزله أن يُضِلَّ من يشاء ويهدى من يشاء، وقال صلى الله عليـه وسلم: (كل ميسر لما خلق) فإذا قدر الله أزلا السوءى على عبد سارع إلى أهلها فتشبه بهم أو أحبهم، ومن أحب قوما فهو معهم، والحجة على ذلك ولاية أهـل

١- سورة يونس آية ٧.

٢- سورة الحديد آية ٢٠.

٣- سورة فاطر آية ٢٨.

المعاصى، فكيف بمن يتولون أهل الكفر بالله تعالى ؟ ولو أن رجلا عالما عاملا بالكتاب والسنة سارع فى أهل الكفر بالله من غير أن يتقى منهم تقاة بل لينال الواسعة فى دنياه أو يستعين بهم فى الانتقام من أعدائه المسلمين فهو كافر بالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبكتابه، ومن قال: إنه مسلم أو عالم أو صالح، فقد كذب على الله ورسوله، نعوذ بالله من ولاية أهل الكفر بالله ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى: لا يبين لهم الحقائق الإسلامية بيانا مؤيدا بالقبول منهم، لأنه لم يقدِّر لهم فى الأزل هداية، والظلم هو التصرف فى ملك الغير، والقوم الظالمون هم الذين خالفوا الله ورسوله، واستعملوا نعم الله فى معاصيه ونسوا يوم الحساب، وقد تقدم الكلام على الظلم وعلى الهداية.

قوله تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ لما أن حكم الله على أهل النفاق الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون المؤمنين بأنه سبحانه لا يهديهم، رتّب على عدم هدايتهم رؤيتهم يسارعون فيهم – أى فى الكفار – والفاء فى قوله: (فَتَرَى) للترتيب. والمعنى أن الله يخاطب رسوله وكل من تصح منه الرؤيا من المؤمنين، أن كل من لم يهدِهم الله تعالى نراهم بالبصر يسارعون إلى الذين كفروا، فقوله تعالى: ﴿ يُسارِعُونَ ﴾ حال على تأويل الرؤيا بصرية ومفعول ثان على تأويلها علمية. والمسارعة هى بذل ما فى الوسع لموالاة الكفار نصرة لهم وتأييدا ومحاربة لله ورسوله، و(فيهم) بيان لأن هؤلاء المنافقين استقروا قلبا وقالبا فى مودة أهل الكفر ونصرهم فى محاربة الله ورسوله وأهم لم ينتقلوا من حال إلى حال، بل هم مستقرون فى أسوأ الأحوال، وأهم أظهروا الإيمان كذبا، والحقيقة أهم

لم يؤمنوا، بل هم مع الكفار، وهم كفار وإن اعتقدنا أنهم آمنوا. وكـــان ســـبب المسارعة فيهم أن اليهود والنصارى كانوا أهل ثراء يقرضونهم الأمـــوال بالربـــا، ويواسونهم عند الحاجة إليهم، فأشربت قلوبهم حبهم لأن القضاء ســـجل علـــيهم السوءى، حفظنا الله وإخواننا المؤمنين.

﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ وهذا خبر الله تعالى عن قيلهم لأهل الإيمان إذا عتبوا عليهم؛ ومعنى الآية أنهم يخافون أن تصيبهم دائرة، ومعنى الـــدائرة هى القضاء، فهم يخشون نصرة اليهود على رسول الله، فيتوددون إلى الكفار خوفا من أن يقوى اليهود فينتقمون منهم، وكذبوا فى تعليلهم، لأن أهل الإيمان ينتظرون الفرج من الله بعد وعده لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصراً عَزِيزا ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصـــرُ الْمُـــؤْمِنِينَ ﴾[2] فقـــولهم: ﴿ نَخشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ دليل على كفرهم. والدائرة هى ما يعتور الإنسان من غنى وفقر، وعز وذل، ومرض وعافية، وهى التى تزول فلا تثبت كالدولة لا تثبت لأحد.

﴿ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ عســـى هنـــا لتحقيـــق الوقوع، لأنها من الله تعالى تفيد تحقيق الخبر، والمراد بالفتح هنا مكة، والفتح هـــو قضاء الله الخير لمن أحبهم، والأمر من عنده أن يذل اليهود والنصـــارى بالجزيـــة ﴿ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ أى: أن الله ســـبحانه إذا أيـــد رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وفتح له مكة وأذل اليهود والنصارى وضربت عليهم الذلـــة، فإنهم بعد ذلك يجللهم الذل والهوان، ويصبحون على ما أخفوه فى أنفســـهم عـــن

١- سورة الفتح آية ٣.

٢- سورة الروم آية ٤٧.

المؤمنين نادمين، حيث لا ينفعهم الندم، والذى أسروه فى أنفسهم هو طمعهم فى أن يظهر اليهود النصارى على المؤمنين بدليل موالاتهم لهم، فلما أخزاهم الله وأذل اليهود والنصارى والمجوس والجاهلية، ندم أهل النفاق وهم عبد الله بن أُبى بن سلول، ومن معه ممن كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم.

قوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ بدئت الآية الشريفة بالواو على قراءة البصريين بالرفع، وتأويل الكلام هنا هكذا: فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده بأن يؤيد خاتم الأنبياء ﴿ ﷺ وآله﴾ ويهلك الكافرين، فيندم الكافرون الذين والوا النصارى واليهود، ويقول الذين ءامنوا ... الخ.

تأويلها على حذف الواو هكذا: فعسى الله ، يأتى بالفتح أو أمر من عنده مما ينصر به المؤمنين، ويذل به الكافرين فيصبح المنافقون على ما أخفوه فى الغش نادمين، وعسى أن يقول الذين آمنوا. وعلى تأويل الآية عند حذف الواو مع وقع يقول هكذا: فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبح المنافقون نادمين، لديها يقول الذين ءامنوا ..الخ

وهذه الآية يشنع الله بها على المنافقين الذين يوالون اليهود والنصارى من دون المؤمنين، ويتوددون إليهم خوفا من الدائرة تدور عليهم، وهى من أشد الآيات تخويفا لأهل الإيمان، لأن الله تعالى يتوعد المؤمنين الذين يتولون اليهود والنصارى بأنهم منهم أى: كفار مثلهم، وكيف يعلم المؤمن أن يكون من اليهود والنصارى إذا تولاهما أو أحدهما ويفارق الإسلام لغرض زائل ؟ اللهم إلا إذا دعت الضرورة الفادحة بأن خاف على دمه أو عرضه أو ماله، فداراهم مداراة وقلبه مطمئن

بالإيمان، ومن دعاه الطمع فى الدنيا فتودد إلى اليهود والنصارى لينال مجدا فى الدنيا أو جاها أو مالا، فإنه كافر بنص القرآن الشريف. و لم يحصل للمسلمين هذا الذل إلا بمخالفتهم أوامر دينهم، وخصوصا فيما يتعلق بموالاة أهل الكفر بـــالله تعـــالى، أعاذنا الله منه.

ومعنى هذه الآية أن المؤمنين يعجبون كل العجب من أهل النفاق الـــذين يصلون معنا ويصومون معنا وهم يوالون أهل الكفر بالله من اليهود والنصـــارى، وموالاتهم لأهل الكفر بالله تنافى كل المنافاة دعوة الإسلام، فهم شر مـــن الكفـــار علينا لأننا نثق بهم فنخبرهم عن عوراتنا وهم يخبرون الكفار، وما أُتِىَ الإســـلام إلا من هؤلاء المنافقين – قاتلهم الله – فنراهم يعزون أهل الكفر من اليهود والنصارى ويزوروهم فى بيوقم، ويظهرون لهم المحبة والمودة وهم يحاربون الله ورسوله، لأنهم يعلمون بصريح القرآن أن موالاة اليهود والنصارى كفر، ولا عذر لمن والى اليهود والنصارى أبداً، لأن الله تعالى يقول فى مدح المسلمين: ﴿ أذلةٍ عَلَى المؤُمِنِينَ أَعِـــزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾[1] فمن كان عزيزا على المؤمنين ذليلا على الكافرين فليس بمؤمن، وما عذر رجل معافى فى بدنه، آمنا فى سِربِهِ، عنده قوت يومه وهو يوالى أعداء الله تعالى من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك ؟ اللهم إلا أن يكون الإيمان قد سلب مـــن قلبه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضِلِل فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّر شِداً ﴾[2]

(أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُـــمْ) لأن المـــؤمنين رضوان الله عليهم يعجبون كل العَجَب مما كانوا يرون من المنافقين، من التظـــاهر

١- سورة المائدة آية ٥٤.

٢- سورة الكهف آية ١٧.

بالصلاة والصيام والأيمان المغلظة إنهم مع المؤمنين، ثم إذا نصر الله نبيه وعز حزبه وفتح الله مكة وضرب الله الجزية على اليهود والنصارى يئس المنافقون وندموا على

ما نالهم من الخسران، وتقاعدهم عن نصرة رسول الله، وظهر أنهم أعداء الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فعجب المؤمنون كل العجب مما أظهره هؤلاء، وتحققوا أن خبر الله عنهم بآيات القرآن من معجزاته ﴿ ﷺ وآله﴾ .

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ هذا خبر من الله تعالى، والأعمال تحبط بمعنى تنعدم، ولكن حبوطها حرمان أجرها يوم القيامة، والمراد بإحباط الأعمال الحرمان من نوال ثوبها من صلاة وصيام وغير ذلك.

من هذه الآية نعلم أن أعمال الجوارح مبنية دائما حياتها بحسن الإخلاص فيها، فقد يقتل القاتل وهو مثاب، وقد يصلى الرجل ويزكى ويجاهد ويحج وهو معاقب، وإنما الأعمال بالنيات، ولو أن الرجل قتل دفاعاً عن نفسه وعرضه وماله أفيكون قاتلا ؟ ولو تقرب إلى الله بكل القربات وهو سيء النية أفيكون متقربا ؟ الجواب : لا .

﴿ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴾ المراد بالإصباح هو كشف الحقائق عند رفع الحجاب، وذلك لا يكون إلا عند الموت والبعث، عندما يظهر غيب ما كان كامناً منظوراً محسوسا، ويتحقق كفرانه به فى الدنيا، ويومئذ لا ينفع مال ولا بنون. قال تعالى: ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾[١] والخسران هو فقد ما كان يطمع فيه من نجاة وسعادة ونعيم، أعاذنا الله تعالى وإخواننا المؤمنين من الخسران فى الدنيا والآخرة.

١- سورة الأنعام آية ١٥٨.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ بعد أن قامت الحجة وظهرت المحجة.

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ هذه الآية الشريفة من أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام، لأن أهل الردة لم يرتدوا إلا بعد رفعه إلى الرفيق الأعلى، وعلى تأويل الآية أنهم هم أبو بكر وأصحابه الذين قهر الله بهم أهل الردة، أى: فسوف يأتى إلى المرتدين قوم يُحبهم الله ويحبونه، يقهرونهم على الإسلام بالسياف أو الحجة. وعلى تأويل الآية بأن القوم هم أهل اليمن بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (هم من قومك يا أبا موسى) وقوله عليه الصلاة والسلام – وقد أشار إلى أبي موسى بيده – : (هم من قوم هذا) ويكون التأويل : فسوف يأتى الله بقوم بدلا من المرتدين ينصرون الله ورسوله، وينشرون الإسلام حتى يظهر على الدين كله.

وفى الآية إشارة إلى أن الله غنى عن العالمين، وأن الإسلام هو دينه الحق، وأنه تعالى خلق قوما لمحبته وجملهم بحفظه سبحانه، وخلق قوما للعذاب وأقامهم فيما يكره، ولا علة لفضله كما لا لعلة لإضلاله من شاء، وقد سبق القدر أزلا بهداية من شاء وإضلال من شاء، وقد يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها قيد شبر فيسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل النار فيموت كافرا، وقد يعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها قيد شبر فيسبق عليه القضاء فيعمل

بعمل أهل الجنة فيموت مؤمنا، والعارف لا يعبد ربا تغضبه معاصيه وترضيه طاعاته، لأن الغضب للمعصية والرضا للطاعة من شأن العبد المقهور العاجز، لا من شأن الرب العلىِّ القادر.

وفى قوله: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ قدم محبته سبحانه على محبة خلقه، لتقوم الحجة أنه هو الفاعل المختار، وليس لعبد – وإن كمل – أن يسبقه جل جلاله، وهو الأول والأخر والظاهر والباطن.

وقد بينت لنا تلك الآية أن كل محب لله محبوب لله، لأنه أخبرنا أن محبته للعبد سابقة، لأن محبته اقتضت أن يجمِّل العبد بما يحبه الله من العلم والكشف والشهود والحال والعمل. ولكن أهل المحبة يتفاوتون، فمن منحه الله العقل فشهد الآيات فأحبها، أو أحب الجنات فله مقام فى المحبة. ومن ضاع الله نفسه من أصفى الجواهر منحها الإطلاق، فساحت فى عليين أو أعلى عليين، فأحبت الله بقدر ما علمت من اليقين أو حق اليقين، وتكون تلك المحبة مما تفضل الله به على العبد من العناية والجذب والكشف الذى محا الحجب، فيكون مقامه على قدر محبته، ومحبته على قدر ما علم وشهد، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ معلُومٌ ﴾[1] وشتان بين المُحِبِّ والمحبوب، وبرهان ذلك ما تفضل الله به على حبيبه الأكبر ومصطفاه الأعظم محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ – مما بينه القرآن – وبين رسله الكرام صلوات الله عليهم، فإنا لو نظرنا بعيون الإيمان إلى ما تفضل به على حبيبه ومصطفاه وإلى ما تفضل به على كل رسله وأنبيائه، يظهر لنا مقام محبوب بجماله من مقام محب. .

وقد عَرَّفْتُ المحبة، وبينت تفاضل أهلها، وأقمت الحجة على أن الله يحب من شاء من عبيده، وأن إنكار محبة الله للعبد دليل على جهل من حكم بعد قوله

١- سورة الصافات آية ١٦٤.

تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ومن تأول هذه الآية فإنما تأولها لضيقه، والمقام يقتضى الوسعة، ومن سلم أن الله رحمٰن رحيم كيف لا يسلم أن الله يحب ؟ لأن الرحمة عطف فى القلب تقتضى الميل إلى المرحوم، وليس فوق مقام المحبة مقام، وأهل المحبة هم أهل الذكر الأكبر وأهل الرضوان الأكبر، ومتى أحب الله العبد لا يضره ذنب. وفى قوله تعالى: ﴿ فَسَوفَ ﴾ دليل على أن هؤلاء القوم باقون بعد رفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الرفيق الأعلى، وأن الله تعالى يتفضل على الأمة فيوالى إظهارهم فى كل زمان ومكان ليكونوا أنجم هدى للأمة، وإن كان المفسرون تأولوا هؤلاء القوم أنهم أبو بكر رضى الله عنه ومن معه، أو أنهم أهل اليمن، وبعضهم يروا أنهم قريش الذين حاربوا رسول الله أولا ثم هداهم الله تعالى. والذى يقول به من منحهم الله العلم: إن الآية خبر من الله أنه لا يخلى الأرض من قائم له سبحانه وتعالى بحجة من بعد رفع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى أن تقوم الساعة.

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أما كونهم أذلة على المؤمنين فلأنهم ينظرون إلى أهل الإيمان بعيون الإيمان، فيشهدون فيهم جمال الله الذى جملهم به، ولو لم تكن إلا أن قلوبهم عقدت على تصديق رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ والإقرار بوحدانية الله والسمع والطاعة لرسوله لكفى ذلك للناظر إليه موجبا للرفق

والرحمة، والمسارعة فى نصرتهم وتأييدهم ومساعدتهم، ومعنى الذل هنا: الرفق والعطف، و﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ لأن أهل الإيمان ينظر عامتهم وخاصتهم أول نظرة بعيون الإيمان، فينظرون ظلمات تكذيب رسول الله قد انبعثت عن أسارير وجوههم، فنفرت قلوبهم، وانفعلت أجسامهم ببعض تلك الظواهر، فتحصل منهم الأنفة عليهم وتمنى محوهم من على وجه الأرض، فتعز نفوسهم عليهم أن يوالوهم أو يوادوهم أو يدانوهم. ومعنى العزة كرامة النفس من أن تميل إليهم بقلب أو بقالب مهما تألفوهم بالمال أو الجاه أو الوظائف، فإن متاع الدنيا

قليل. ومن أحب من كذب محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ أو يجحد ربه، أو يتخذ لله ولـــدا، أو يعتقد أن الله ثالث ثلاثة فهو معهم، بل هو منهم، وكفى بتلك الآية تهديـــدا أو توبيخا وتشنيعا لقوم يجهلون روح الإسلام.

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ﴾ معلوم أن الجهـــاد فى سبيل الله كما بينتُ قبلا هو الجهاد العدو الداخل والعدو الخارج، ولا يقف المجاهد فى وجه العدو الخارج إلا بعد أن يقف فى وجه العدو الداخل جهادا يقهـــره بـــه، حتى يكون أطوع لله ولرسوله مما سواهما، بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (رجعنا من الجهاد الأصغرِ إلى الجهادِ الأكبرِ جهادِ النفس).

هذا بعد أن أقام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين ظهرانيهم يزكى نفوســـهم، ويثقف عقولهم، ويهذب أخلاقهم، ومع ذلك يقول: (الجهاد الأصغر) الذى فيه أُهْرقت دماؤهم، ومُزِّقت جلودهم، ورُمِّلَتْ نساؤهم، ويُتِّمَتْ أبناؤهم، وكل ذلك فى نظر الشريعة جهاد أصغر. فكيف يكون الجهاد الأكبر الذى هو جهاد النفس ؟ إذا منح العبد هذا الجهاد وقام منفردا أمام جيوش الكفر بعددهم وعُددهم نصـــره الله، كما أيد الله رسوله فى وقعة أحد عندما انهزم الجيش من حواليه، فرمى الجيش بقبضة تراب فأذلهم الله وهزمهم. والجهاد هو بـــذل مـــا فى الوســـع نصـــرة لله ولرسوله﴿ ﷺ وآله﴾.

والجهاد قد يكون واجبا وقد يكون سنة، فيتعين على من عَيَّنَهُ عليه الإمام العدل، وعلى قوم حل محلتهم العدو فإنه يتعين عليهم – ولو لم يعينـــه الإمـــام – فيجب على الرجال والنساء، ويتعين على كل جماعة أصلحت بين طائفتين فأبـــت طائفة منهم الصلح، فيجب على جماعة المسلمين أن يقاتلوا الطائفة التى أبت الصلح حتى تفيء إلى أمر الله. ويكون الجهاد سنة فى الدعوة إلى الله إذا قدر المسلمون على

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودفع البدع بأيديهم، وقد قيد الله الجهاد بكونه فى سبيل الله، والمعنى فى إعلاء كلمته، وتجديد سنة نبيه ﴿ﷺ وآله﴾ ودفع الظلم والتظالم عن المسلمين. ﴿ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ﴾ أى: لا يرهبون لوم اللائمين مهما كان مقتضى اللوم، ولو اقتضته العواطف النَّسَبِيَّة أو الوطنية أو غير ذلك، فإن الحق فوق الخلق.

وما ترك المسلمين الجهاد إلا ابتلوا بالصغار والهوان، وقد ذكر الله صفات من يحبهم ويحبونه فجعل أعظمها أنهم أذلاء على المؤمنين، أعزاء على الكافرين، وأنهم يجاهدون فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وأنهم فى جهادهم لا يخافون لومة لائم، وتلك الصفات العالية هى الحجة القائمة على أنهم يحبون الله تعالى. وما من عبد يحب الله تعالى إلا وأقام الحجة على أن الله تعالى يحبه، ومعلوم أن رحمة الله تعالى هى إرادته سبحانه الخير الدنيوى والأخروى لعبده، ومحبته هى إرادته الخير الروحانى لعبده، والمحبة أعلى مقامات القرب من الله، ومن أنس بنفسه حتى سارع إلى محاب الله ومراضيه فى القيام لما أمره والبعد عما نهاه عنه، كان محبا محبوبا. واللومة فَعْلَةٌ من لامه، وأقلها العَتب وأعلاها التعنيف.

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ الإشارة عائدة إلى خبر الله تعالى الذى أخبرنا به عن إتيانه بقوم يحبهم ويحبونه وإلى ما جملهم به من الصفات المحمودة، وفضل الله أى: إحسانه سبحانه الذى لا يعلل بعلة عمل ولا نسب ولا علم، بل ذلك بتقديره أزلا وإبرازه أبدا، وهذا دليل قاطع على أن الله تعالى هو الفاعل المختار، وأن الإنسان ليس له حول ولا قوة ينال بهما محاب الله ومراضيه، ولا حول ولا قوة يدفع بهما معاصى الله تعالى ومغاضبه، وقد قدمنا أن الله تعالى إذا سبق فى عمله الرضا على عبد لا يغضب عليه ولو مضى أكثر عمره فى الكفر، وإذا قدر فى

أزله الغضب على عبد لا يرضى عنه ولو أمضى أكثر عمره فى القربـــات إلى الله؛ ورَبٌّ تغضبه السيئات وترضيه الحسنات ليس برب كامل.

وفى قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء ﴾ برهان حق على جهل من قال: إن الإنسان يخلق أعماله باختياره، فإنَّ: ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ برهان على أن حالة الإنسان التى هو بها من صلاح أو فساد مُقَدَّرَة أزلا، ودليل ذلك تحـــول الأحوال، فإنك ترى الإنسان مجذوبا إلى الله بعامل قوى ولا تمضى فترة إلا وهـــو منقلب على وجهه ولا حول له ولا قوة فى الأولى ولا فى الثانية، وإنما هى أســـرار القدر نعوذ بالله من سوء السابقة والخاتمة. ﴿ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾ الوسعة الإلهيـــة أنحاؤها كثيرة، ولما كان المقام إسباغ الوسعة من ناحية الجود والكرم، وفى معـــنى الوسعة دليل على أن خزائنه جل جلاله لا تنفد، ولو أنه أعطى لكل إنسان مقدار ما فى الدنيا مشيئا ذلك لما نفدت خزائنه، ولكن فى قوله: (عَلِيم) دليل على أن الله تعالى حكيم قادر، يعطى العطايا على قدر مصالح الخلق، فيمنح واســـعُ الخـــيرات عباده بقدر لا يخرجهم إلى منافسة الربوبية، لأنه جل جلاله أوقفهم عند الأسباب ليحفظهم من منافسة الربوبية. فإن الإنسان إذا منحه الله ما يشاؤه الإنسان، نسى الله ونسى اليوم الآخر، ومع أن الإنسان تحيط به الأسباب من كل جانـــب فتـــراه يحتاج إلى الهواء لنفسه، وإلى الماء لريه، وإلى الغذاء ليستعيض ما فقـــد منـــه، وإلى الشمس وإلى جميع الحقائق المحيطة به، وهو فى كل يوم يرى نفسه محتاجا للأكـــل والبراز واللباس، ومع ذلك فإنه ينسى اليوم الآخر، وتغمره الدنيا جهلا بحقيقة نفسه وبما حوله، مسكين الإنسان إذا أغناه الله طغى، وإذا عافاه بغى، وإذا مكنـــه الله فى الأرض أفسد، ولولا ما يعتوره من دواعى الضـــرورات لقـــال:﴿ أَنَـــا رَبُّكُـــمُ الأعلَى﴾[1] كما قالها فرعون أعاذنا الله وإخوتنا المؤمنين. .

١- سورة النازعات آية ٢٤.

والوسعة الإلهية هنا فى قوله: ﴿ واسعٌ عليمٌ ﴾ أى: أن عطاياه جل جلاله لا تنفد ما فى خزائنه، وأنه مع عطاياه سبحانه يعلم مصالح خلقه وما لابد لهم منه، فيقدر لهم ما به حفظ حياتهم إلى آجالهم من نسيم عليل بليل، ومن غذاء، ومن نور تستبين به الحقائق، ومن عقول تخترع مل يحتاجون إليه، من الملبس والمفرش والمسكن، وما لابد لهم من الآلات والأدوات المسهلة لهم الوصول إلى نيل الغايات، وكل ذلك فضل من الله وإحسان منه جل جلاله للإنسان، فالعقول خلقها الله، والجوارح المجترحة هو الذى خلقها، والمادة التى اخترعتها تلك العقول وعملتها تلك الجوارح مخلوقة له جل جلاله، وصدق الله العظيم: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

قوله تعالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

معلوم أن الولي مواليه بالنصرة والتأييد وإسداء الخير بالمسارعة إلي نجدهم، والتأييد عبارة عن تأييد العبد بروح القدس حتى ينعقد قلبه على كمال التوحيد، ويعقل عقله آيات الله المنبلجة فى الكائنات، وينشط جسمه لعبادة الله المفروضة عليه وللقيام بنوافل البر، وهذا كله هو التأييد من الله تعالى فى الولاية. .

فالولىّ حقا هو من يتولاك حسا وعقلا وروحا وجسما، ولا يكون الولى وليا حقا إلا إذا كان غنيا عن مواليه الذين يتولاهم، وإنما يتولاهم فضلا منه وكرما، وهؤلاء هم المؤمنون. أو يكون هو الذى أوجدهم وأمدهم وخلق لهم كل شيء يحتاجون إليه وأكمل؛ من سموات وأرض وهواء وماء ونباتات وحيوانات وهذه ولاية عامة، أما ولايته للمؤمنين فخاصة بهم.

١- سورة الصافات آية ٩٦.

وأما الولى الذى يتولاه العبد طمعا فى أن يغنيه بماله فى هذه الدار الدنيا على ظلم أو على فحش أو على انتقام؛ فهذا ولى الشيطان. ومن تولى وليا تقليدا لوالديه من غير بصيرة ولا تعقل فهذا ليس من بنى الإنسان، وهو أضل من البهائم، وكيف يقلد الإنسان والديه وقد خلق الله له عقلا يعقل ؟! وقد يكون والده فى صنعة فتأبى عليه نفسه أن يقلده فيها، ويُرَقّى نفسه إلى أن يسود أباه، فكيف يرضى بتقليده فيما به نجاته يوم القيامة ؟! والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ فولاية الله تعالى أنه جل جلاله هو الذى أوجدنا وأمدنا وسخر لنا ملكه وملكوته، وولاية الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أنه هو الذى دلنا على الله وبين لنا سبيله بقوله وحاله وعمله، وولاية الذين آمنوا أنهم رحماء كرماء يحبون عباد الله ويؤثرونهم بالخير. وأما ولاية أهل الجهالة من اليهود والنصارى فإنهم – أعاذنا الله من ولايتهم – لا يتولاهم إلا من كان مثلهم ومنهم وهم مردة الشياطين من الإنس، وذلك لأنهم ارتكبوا أكبر الفظائع مع الرسل والأنبياء ومع عباد الله.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ يقيمون الصلاة بحسن نواياها، وكمال شروطها من طهر وطهارة ثياب ومكان ويقين باستقبال القبلة، لأن العرب يقولون: قامت السوق أى: راجت، فإقامة الصلاة رواجها حتى تكون مقبولة عند من يصلى له، وعند أهل المعرفة لا تصح الصلاة إلا إذا علم لمن يصلى وبمن يصلى وعلى منهج مَن يصلى، حتى يكون عبدا موحدا متبعا للشريعة المطهرة ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ إيتاء الزكاة إخراجها من القلب ومن اليد، معتقدا فرضيتها، فرحا بأن الله أعطاه، وجعل يده عليا بالعطية للفقراء، شاكرا الله على ذلك. والزكاة نوعان: زكاة المال وزكاة والنفس. أما زكاة المال فهى فى خمسة أنواع: العين، والحرث، والماشية، والركاز، والثمار. أما العين فهى الذهب والفضة والمصنوع منهما. والحرث هو الحبوب التى يتغذى منها الإنسان كالقمح والشعير والذرة والفول

والسلق والدخن والأرز وغيرها مما يأكله الناس، وأما ما لا يأكله الناس فلا زكـــاة عليه كالقطن والقصب وما أشبههما من الفواكه. والماشية هـــى البقـــر ويتبعهـــا الجواميس، والإبل ويتبعها الإبل ذات السنامين، والغنم و يتبعها المعز، ولا زكاة فى الحيوانات الزاحفة جميعها. والركاز هى الكنوز التى يعثر عليها الإنسان، فإن نالهـــا بمجهود ففيها ربع العشر، وإن نالها بسهولة ففيها الخمس. والثمار وهـــو التمـــر والزبيب والزيتون، ولا زكاة فيما يؤكل قبل نضجه كالعنب والتين والرطب ومـــا أشبهه. وقوله: ﴿ ويُؤتُون الزكاة ﴾ يراد بها زكاة المال.

أما زكاة النفس ودليلها قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾[1] فهى تطهير النفس من مقتضيات عناصرها بحبسها فى حصون الشـــريعة، حـــتى لا تتعدى آدابها إلى ما يخالفها. والمجاهد نفسه هذه المجاهدة يكون من الأعلين، والإيمان بضع وسبعون شعبة، والنطق بالشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج خمـــس شعب، فمن لم يعمل من الإسلام إلا بهذه الخمس فليس بمسلم كامل الإسلام حتى يتم شعب الإيمان، وإنما يزكى المسلم نفسه فيسارع إلى القيام بمحاب الله ومراضيه عملا بما أمر وتركا لما نهى. وقد بينت زكاة النفس مفصلة فى كتبنا: (النور المبين، معا رج المقربين، تذكرة المرشدين) وغيرها.

﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ الواو هنا للحال ﴿ وَهُمْ رَاكِعُـــونَ ﴾ أى: أن مـــن صفات المؤمنين الذين هم أحق بأن نتولاهم هى أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، وهذه الصفات التى بينها الله للمؤمنين - الذين هم أولى بالولاية من غيرهم — هى البرهان على كمال إيمانهم عند الله، الذى يستحقون به أن يكونـــوا

١- سورة المؤمنون آية ٤.

أولياء للمسلمين. قال بعض العلماء: إن سائلا سأل عليًّا بن أبى طالب وهو فى الركوع فأعطاه خاتمه، والحقيقة أنها لكل مؤمن، لأمير المؤمنين علىّ ولغيره.

قوله تعالى: وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ معنى هذه الآية أن من يتبرأ من ولاية اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر، ويفرد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالولاية عليه، فهو الغالب فى الدنيا والآخرة، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لأن الآية دلت على حذف الموصوف ﴿ أنصاره ﴾ والحزب فى اللغة هو الصاحب المعين المؤيد لرأيه، والناصر له، وحزب الله هم أنصاره من الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنين، وهؤلاء هم الذين ينصرهم الله ويؤيدهم، وهم حجة الله فى أرضه على خلقه لا تخلو الأرض من قائم بها لله، وفى قوله: ﴿ حزب الله ﴾ أقام الاسم الظاهر مقام المضمر تشريفا وتعظيما لأنصار الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث أضافهم إلى ذاته العلية.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء﴾ ينهانا سبحانه وتعالى عن اتخاذ أهل الكتابين وغيرهما من الكفار أولياء بعد أن نافقوا وهزءوا بصلاتنا واتخذوها لعبا، وسبب هذه الآية أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث كانا قد أظهرا الإيمان ثم ارتدا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما

فأنزل الله فيهم هذه الآية. وقرئت الآية بجر الراء من ﴿ الْكُفَّارَ ﴾ وبفتحها، فبجرها معطوفة على قوله ﴿ من الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ وبنصبها معطوفة على قوله ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ ﴾ وهما قراءتان صحيحتان، و﴿ أَوْلِيَاء ﴾ يعنى أولياء لكم ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى: خافوا الله من الوقوع فى معاصيه بولاية أهل الكتابين وغيرهم من الكفار؛ فإنَّ من تولى غير الله ورسوله والمؤمنين سَجَّلَ على نفسه الكفرَ بالله تعالى.

قوله تعالى: وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ هذه الآية الشريفة دلت على أن الأذان كان مشروعاً بخبر الله تعالى عنه، وقد يكون نزول هذه الآية بعد الرؤيا المنامية التى رآها بلال بن حمامة، وبينت هذه الآية أيضا أن نفوس أهل الكفر بالله من أخس العناصر، لأنها لم يخلق الله لها قابلا يقبل عنه سبحانه أسراره، ولذلك فإن أنوار الرسل وأسرارهم العلية وآياتهم المعجزة لم تؤثر عليهم، بل كانوا – لخبث طبعهم وسوء نفوسهم الأمارة بالسوء – يرون أنبياء الله فيهزءون بهم، ويرون قيام المؤمنين بطاعة الله فيلعبون بها، ومن ذلك أن نصرانيا كان فى المدينة المنورة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدا رسول الله، يهزأ ويقول: إحرقْ الكاذب، فدخل خادمه يوما فى حجرة له وأشعل نارا لضرورة، فالتهبت النار وأحرقت الرجل وبيته.

وكان اليهود إذا رأوا الصحابة قاموا للصلاة يقولون: قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، لعبا بهم. وكان المنافقون إذا قام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ للصلاة تمايلوا على بعضهم ضاحكين استهزاء لينفروا المسلمين عن صلاتهم حياء من

المنافقين، وأنكر المنافقون على رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فقالوا: ما هذه البدعة التى ابتدعتها، وإن كنت نبيا فقد خالفت الأنبياء؛ استهزاء به ﴿ﷺ وآلـه﴾ ولعبـا، وتنفيراً للناس عنه، وجهلوا – قاتلهم الله – أن الله أكمل به الدين لنا، وأتم علينـا نعمته به ﴿ﷺ وآله﴾، وكل ذلك من خبث طبعهم ورداءة جواهر نفوسهم، ولو أن الله جعل لهم آذانا تسمع عن الله ، وأعينا تبصر آيات الله؛ وقلوبا تعقل كلام الله تعالى لفازوا بالحسنيين، ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ الإشارة هنا عائدة إلى ما وصف الله بـه الكفار من سوء فعلهم مع رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ من اتخاذ النداء إلى الصلاة هزوا ولعبا، واتخاذ الصلاة أيضا أى: ذلك العمل الذى يعملونه بالاستهزاء واللعب دليل على أنهم لم يتعقلوا آيات الله، ولم يفهموا أسراره، لأنهم لو كانوا يعقلون لسارعوا إلى الإيمان بالله، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﴿ﷺ وآله﴾ ، لقيـام الحجـة ووضوح المحجة؛ وأى عقل من العقول يسمع كلام الله أو يرى معجزات رسـول الله ﴿ﷺ وآله﴾ ولا يقبل بكليته على الله سميعا مطيعـا ؟! فـدل اسـتهزاؤهم بالإسلام على فقد العقل منهم. ومن ظن أن الإفرنج أو العرب أو العجـم غـير المسلمين لهم عقل فقد جهل الحقائق، حيث لم يقم دليل على ثبوت العقل لهم، وإن الصناعات والمخترعات التى اخترعوها والسياسات التى وضعوها إنما هى ضرورية للإنسان بحسب هيئته واستقامته، فإن كل نوع من أنواع الحيوانات لـه سياسـة خاصة ومجتمعات خاصة، وتعاون على جلب المنافع خاص.

ولما كان الإنسان أكمل تلك الأنواع، لزم – بحسب ما أودعه الله فيـه، وخلقه لأجله – أن يتميز عن الأنواع الحيوانية بفكر على قدر نوعه، وعمل علـى قدر جوارحه، واختراع على قدر عقله، فإن أنواع الحيوانات لكل نـوع منـها خصوصية؛ فمنها ما يبنى البيوت على أعالى الشجر، ومنها ما يبنيهـا فى جـوف

الأرض كالنمل والجرذان (الفيران)، ومنها ما يبنيها فى الجدران وفى السقف كالنحل والزنابير، ومنها أنواع برية وبحرية، وهى الحيوانات التى تعيش فى البحر والبر فتبنى لها خندقا بين البر والبحر من فروع الأشجار التى تقطعها بعضو فيها كالمنشار، ثم تبنيها كالنجار الذى يصنع الخندق، فإذا جاءها الصياد من البحر خرجت إلى البر، وإذا جاءها من البر خرجت إلى البحر، وهذا العقل موهوب لها لسلامتها. وهناك حيوانات تقف موقف الحرب مع بعضها ولها قواد ورؤساء فتقاتل بعضها، أو نوعا آخر من الحيوانات الأخرى فى جزائر البحر الهندى، وهناك نوع ينظم مجتمعه وله ملك ووزراء وقواد وجيوش وهو النحل. وهناك نوع آخر له مملكة منتظمة ولها ملك يحركها كيف يشاء وهو الطير الذى يسمونه فى مصر: الأوز العراقى.

فالذى خلق لتلك الأنواع كلها هذا العقل المدبر – وهى لا تعقل عنه شيئا من دينه ولا كماله ولا بهائه ولا ضيائه – هو الذى خلق للإنسان هذا العقل الحيوانى الذى يخترع به ما اخترعه من آلات وأدوات طار بها فى الجو، وغاص بها فى البحر، وجرى بها على قضبان من حديد، واختراع سياسات كسياسات الثعالب أعد لها أسلحة وطيارات ودبابات مسلحة بما اخترعه من آلات جهنمية. كما خلق الله للحيوانات أنيابا ومخالب وجرأة وشدة، وكذلك خلق للإنسان هذا العقل وأغناه به عن الناب والمخلب والشدة والقوة والضخامة، فاخترع به ما به يحصل قوته وأمنه ويحفظ عافيته، كما يفعل الإنسان. وقَبَّح الله الإنسان فإنه بما خلقه الله له بالنسبة لحالته لا يكفيه قوت اليوم، بل ولا قوت السنة، فهو يجمع المال معتقدا أنه مخلد إلى الأبد، لا يقنعه قوت سنة، لا، ولا قوت ألف سنة جهلا منه بحقيقته، أما ما عدا الإنسان من الحيوانات فإنها تكتفى بقوت الوقت إلا أنواعا سافلة جدا كالنمل والجرذان فإنها تخزن قوتها مدة الشتاء، فالإنسان الذى لا يعقل

عن الله أسراره أضل من البهائم، وأشر من الشيطان، وصدق الله العظيم فى قولـــه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله تعالى، فنفى سبحانه عنهم العقل الـــذى يعقل عنه جل جلاله، وإن لم ينف عنهم العقل الذى يعقل عن الكـــون بعقـــول البهائم السائمة، والوحوش الكاسرة، والثعالب الخادعة.

ومن تأمل فى النحل وفى تدبيره وحكمته، وفى دقة صـــنعته وهندســـته فى مساكنه، وفى تعاونه على النفع العام؛ وكان مهندسا سياسيا حكيما؛ علم أن النمل خير من الإنسان فى كل أدوار معيشته، وأن الإنسان لم يمنع عقلا يكســـبه رحمـــة ورفقا كما خلق الله للنمل، فإن النملة إذا رأت نملة أخرى فى شدةٍ حَمَلَتْهَا، فإن لم تطق فرت إلى بيت النمل فأحضرت لها نملا يحملها. أما فى رعَايتـــها مصـــلحتها الصحية؛ وبقاء حفظ ذخائرها – وهذا أمرٌ فوق العقول – بل وفى احتياطها لحفظ مساكنها من الغرق والشرق؛ بل ومن الهدم بسبب مرور الناس عليها فذلك عجب فى عجب، وقد توسع فى ذلك العلماء. انظر إلى هندسة النحل ولمـــا أتقنـــه مـــن الأشكال المسدسة، حتى يعجز أكبر مهندس أن يرسمها، وفيما خلقه الله فيها مـــن المعمل الكيماوى الذى به تخرج فتلتقط رطوبة على أزهار النباتات، ثم تعـــود بـــه فتطبخه عسلا مصفى قائما بمادة شمعية، فى بيت على شكل مسدس يحيط بنحلـــة مولودة فيه ليغذوها بدل اللبن حتى يتم نموها، فسبحان الحكيم القادر الذى أظهـــر عجائب قدرته وغرائب حكمته فى أنواع الحيوانات،و فيما أعده لها للحفظ والغذاء وللنمو، وما أودعه فيها من العقل والسياسة والحكمة مما أعجز الإنسان. وليســـت المخترعات ولا أنواع الصناعات ولا القوة فى تنفيذ السياسات بدليل على العقـــل الذى يعقل عن الله، ولا يدل على العقل الذى يعقل عـــن الله إلا الإيمـــان بـــالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، والمسارعة إلى العمل بمحاب الله ومراضيه، لأن الله نفـــى العقل الذى يعقل عن أهل الكفر به، فمن قال إن أهل أوربا – الذين اخترعوا محو

بنى الإنسان بالحديد والنار، وطاروا فى الجو لاستعباد خلق الله، وغاصوا فى البحار لسلب مرافق العباد – عقلاء، فقد أثبت لنفسه الجهل بالله وبحقيقة نفسه.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ يأمر الله تعالى رسوله محمدا ﴿ ﷺ وآلــه﴾ أن يقــول لليهــود والنصارى: هل ما تجدون فى صدوركم من غضاضة وشدة علينا وكراهة لنا إلا من أجل إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله المنزل على خاتم رسله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وإيماننا بما أنزل على الرسل صلوات الله عليهم من قَبْلِ القرآن ، فنحن والحمــد لله آمنا بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله جميعا، ولو أنكم آمنتم بالله وبرســله وبمــا أنزل عليكم من الكتاب لما وجدتم علينا ما به تنقمون منا، بل لوجــدتم مــا بــه تسارعون إلى الأخذ بما نحن عليه مما هو الحق الذى أنزله الله على رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وإنَّ وَجْدَكم علينا الكراهية والعتب والغضاضة سببه كفركم بالله وبرسله وبكتبه المنزلة عليكم، لأنكم حرفتم كلام الله بالهوى والحظ والطمع. وهل دعاكم إلى هذا الذى لا يعلمه إلا أهل الكفر بالله مع من بعثهم الله بالحق، وأيدهم بالمعجزات الباهرات إلا كفركم بالله تعالى ؟ لما جلبتم عليه من خبــث الطبــع، والمسارعة إلى هوى النفس الأمارة بالسوء، والنزاعة إلى العناد.

وبرهان ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ والفاسق هو الكافر الذى خالف الدين وخرج عنه، فإن الفسق هو خروج الحية من ثوبهــا، كمــا أن الفقس هو إخراج الدجاجة فراخها من بيضها، والحية تسمى فاسقة، وعلى هــذا: الفاسق هو الذى خرج مما كان فيه من الحــق. ومعــنى قولــه:﴿ وَأَنَّ أَكْثَــرَكُمْ

فَاسِقُونَ﴾ أن أهل اليهودية وأهل النصرانية قَوْمُ بَهَتٍ، لا يقبلون — مع تظاهرهم بالحق — إلا الباطل، وقبولهم الباطل إنما هو لحرصهم على الحياة الدنيا ومسارعتهم إلى الكفر بالله فى سبيل نيل المال، غير هيابين من إنذار الله، ولا خائفين من عقوبة الله، فدل ذلك على أن إلههم المعبود هو حطام تلك الدار الفانية، وهى خصلة موجودة نبتت فى قلوب اليهود من أيام الفراعنة فالعمالقة، ونبتت فى قلوب النصارى من أيام فتنة المسيح ابن مريم عليه السلام، لأن اليهود والرومان اضطهدوا أهل النصرانية حتى مزقوهم أيدى سبأ فنبتت النصرانية من مهدها فى هوة الذل والخزى والاختفاء، هذا ولأن النصرانية دخلت بلاد مصر انتقاما من المصريين لقهرهم عندما منعوا الخراج الذى كانوا يرسلونه إلى ملك الرومان، فطلب من وزرائه أن يدلوه على أشد نقمة ينتقم بها من المصريين فطلبوا منه أن يقهرهم على التنصر، فوقعت بين الروم وبين المصريين حروب المراد بها قهرهم رغم أنوفهم على التنصر، وقد بينا التاريخ تحت عنوان: (حرب الشهداء).

ولا يزال فى بلاد مصر بلاد وقعت فيها تلك الحروب فعاملوها بالشدة، ولولا أن الإسلام وسع بسماحته وعطفه أهل اليهودية والنصرانية وحماهم بالعدالة والمساواة — عملا بسماح الإسلام — لكانوا أذل من هؤلاء الزنوج فى مجاهل أفريقيا، وهاهم الآن بفضل الإسلام عليهم قد سادوا وشادوا، وقاموا فى وجه المسلمين يناوئوهم بعد أن كانوا فى فقر وذل، بل لولا سماحة الإسلام لما بقى من اليهود والنصارى إنسان يتنفس على وجه الأرض، ومع هذا الفضل والإحسان والرحمة الذى قام به المسلمون لليهود والنصارى — عملا بشرائع الإسلام — حتى أبقاهم إلى الآن فى رخاء وأمن وعافية، لما تحقق قوله: ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وإن هذا الإحسان والفضل قلبوه سلاحا يضربون به الإسلام والمسلمين فى أكبادهم جزاء بالنقيض، لأن أكثرهم فاسقون، فانظر فى فلسطين وغيرها من بلدان

المسلمين، كيف استعانوا بدول الاستعباد والظلم على المسلمين بمجازاهم بالســـوء على إحسانهم إليهم.

فصدق الله العظيم ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ما اقترنوا بأمة إلا أفســـدوا عليها دينها ودنياها، دخلوا فى زمن الفراعنة فكان ما كان، ثم خرجوا من مصر إلى الشام فدخلوا بلاد العمالقة فكان ما كان، عاشوا فى بلاد الشام، فكان ما كـــان منهم مع الرسل والأنبياء، وهاهم الآن يقفون فى وجوه من حفظوا لهم وجـــودهم إلى الآن بنار الإنكليز وحديدهم فى فلسطين، ويبذلون الأمـــوال الطائلـــة بـــدول الاستعمار لتحارب بها المسلمين، وصدق الله العظيم، قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخرجُ إلاّ نَكِداً ﴾[1].

وهذه الآية الشريفة بيان فى سبب نقمة اليهود والنصارى من المســـلمين؛ فيكون التأويل: هل لنقمتكم منا سبب إلا إيماننا بالله وبكتبه ورســـله ؟ ووإلاَّ أن أكثركم فاسقون ؟

قوله تعالى: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَـــن لَّعَنَـــهُ اللّـــهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَـــرٌّ مَّكَانـــاً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْـــهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: هل أنبئكم بغيب من الحوادث التى وقعت فى سلفكم مما لا يعلم علمه إلا الله، ومَن أعلمهـــم

١- سورة الأعراف آية ٥٨.

الله من الأخبار والرهبان مما أنبأهم على ألسنة الرسل، وقد علمتهم أنت، فكان علمك به حجة قاصمة لظهور من أنكروا عليك رسالتك.

والمعنى: قل هل أنبئكم بشر مما تنقمون فيه علينا ؟ والمثوبة أصلها مَثْوُوبَة، نقلت الحركة التى على حرف العلة إلى الساكن قبلها فجعلت ضمة لتدل على أن المحذوف واو، والمثوبة قد تكون للشر والخير، وهى الجزاء كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] والبشرى فى الحقيقة الخبر بخير لم تكن يعلمه السامع فكذلك هنا. ويجوز أن تطلق المثوبة فى اللغة فتكون بشر وبخير كما قررنا. أى: هل أنبئكم بجزاء شر وقع على اليهود والنصارى فى الدنيا شرا مما كانوا ينقمون علينا فيه ؟ وتلك المثوبة التى هى شر هى قلب الله حقائقهم قردة وخنازير، فكانوا قردة كمن اعتدوا فى السبت، وقد ورد أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل حكم فى أمة فخنق اليهود، حتى قامت فيها شعشعان من الإيمان فأثرت على طائفة وقادهم لقتال هذا الظالم فمحقهم عن آخرهم، وفرت المرآة إلى ناحية أخرى وجمعت الناس على قتاله فمحقهم، ففرت ثالثة وجمعت جماعة وقاتلته فمحقهم أيضا، فلما خلت لنفسها قالت: إن هذا الكون ليس له إله ولو كان موجودا لنصر دينه وأعزه، ونامت.. فلما أصبحت وجدت أهل هذه القرية قد مسخوا كلهم قردة وخنازير فكمل يقينها، وقد بينت هذا الموضوع فى تفسير قوله: ﴿ فَقُلنا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[2] فى سورة البقرة.

وأما قوله: ﴿ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ فاللعنة هى الطرد من الرحمة، والحرمان من خير الدنيا الروحانى وخير الآخرة

١- سورة آل عمران آية ٢١.

٢- سورة البقرة آية ٦٥.

الجسمانى والروحانى، ذلك لأن أكمل خير فى الدنيا هو الإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله، الإيمان الذى تطمئن به القلوب، وتنشرح به الصدور. ومن لم يفز فى تلك الدار الدنيا بهذا الإيمان فهو فى عذاب روحانى إلى أن يموت – وإن كان نعيم جسمانى – فإذا مات جمع الله عليه عذاب الجسم وعذاب الروح، وهى اللعنة أعاذنا الله تعالى منها. أما الرضا من حيث هو والغضب من حيث هو فقد شرحنا حقيقتهما فى كتبنا علما وبيانا، قال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[1].

ومعلوم أن النبأ هو الخبر عن أمر عظيم الشأن، وقوله: ﴿ بِشَرٍ مِّن ذَلِكَ ﴾ أى: بشر مما ينقمون علينا فيه وهو ديننا بحسب اعتقادهم فيه. وإن لم يكن شرا فى الحقيقة بل هو خير، فإن الإشارة عائدة إلى ديننا الذى كانوا يعتقدون فيه جهلا أنه شر، فإذا كان بحسب افترائهم شرا فإن ما هم عليه فى الحقيقة شر منه على فرض ذلك، فكيف ودين الإسلام خَيْر ودينهم شر الشرور ؟.

﴿ مَن لَّعَنَه اللَّهُ وغَضِبَ عَلَيهِ ﴾ مَن هنا فى محل جواب بالإضافة إلى محذوف ملحوظ، والتأويل: هل أنبئكم بشر مما تَدَّعون أنه شر دين ؟ من لعنه الله. والمضاف للمحذوف هى لفظ دين. وجائز أن تكون من فى موضع رفع والتأويل: هل أنبئكم بشر من الذى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على زعمكم ؟ هو من لعنه الله.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ وفى قوله: ﴿ وجَعَلَ ﴾ إشارة إلى أن المضل والهادى هو الله. فإن قوله: (وَجَعَلَ) تفيد أنهم لم يجعلوا أنفسهم كذلك، ولا أن جعلهم قردة وخنازير محبوب أو مراد لهم، قال تعالى:

١- سورة النحل آية ٧٨.

﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ ﴾[1] وفى جعل معنى هو تنويع الحقيقة وصفا وهيئـــة. فالإنسان حيوان إلا أنه طويل القامة عريض الأطفال ضاحك، والقرد حيوان يفارق الإنسان فى الهيئة وبعض الصفات، وهذا هو التنويع. وقول بعضهم: إن الحقيقة لا تنقلب، كلام لا نسلمه، والحقيقة قد تنقلب كما يتنوع الخل إلى الخمر أو الخمـــر إلى الخل وإن خالفنا فى ذلك من يقول: إن الإنسان يخلق أفعاله باختياره، والخلاف لفظى، فإن الله سبحانه وتعالى قدّر الأقدار، وقدر أوقاتا لإبرازها فيبرزها ســبحانه بأسبابها المرتبطة بها التى قدرها سبحانه، فما لا يليق لا ينسب إلى الله ولكن يـــبرزه الإنسان إبرازا وينسب إلى الله تقديرا وإرادة وإعانة، كما ورد فى ذلك فى القـــرآن قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَـــالِقُونَ ﴾[2] فينســـب الإمناء لنا، وينسب الخلق والتصوير والتقدير له جل جلاله. اللهم آمِنَّا من الهـــوى الذى هو أخو العمى، وامنحنا التسليم وتفويض ما لا نعلمه من أسرار الشريعة إلى جهلنا الأول حتى يعلمنا الله من لدنه علما.

﴿ وَعَبَدَ الطَّغُوتِ ﴾ إما أن تكون فعلا ماضيا، والتأويل: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وإما أن يكون جمعا لعُبّاد التى هى جمع عابد جمعا للجمع، كمـــا رويت عبد الطاغوت، وقد رويت هذه الكلمة بروايات لا تخرج عن كونها فعـــلا ماضيا أو جمعا للجمع واسم فاعل، أو جمع عبُد بضم الباء. الطاغوت كل محبوب من دون الله ﴿ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ الإشارة عائدة إلى من شنع الله علـــيهم ممـــن نقموا علينا بسبب إيماننا بالله وملائكته ورسله، (شر مكانا) أى: مكانهم شـــر، وشر المكان هو سقر، ولك أن تقول: أولئك أهل شرٍّ مكانا بتنوين الـــراء علـــى حذفِ مضاف، أو أنها كناية عن خلودهم فى سقر باللازم كما تقـــول: طويـــل

١- سورة الأنعام آية ١٨.

٢- سورة الواقعة آية ٥٨ – ٥٩.

النجاد: كناية عن طول جسمه، وكثير الرماد: كناية عن كرمه ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ أى: وأبعد عن طريق الله الوسط الذى نهج عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء خيرة عباد الله الصالحين. .

قوله تعالى: وَإِذَا جَآؤُكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

﴿ وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا ﴾ الخطاب لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه رضى الله عنهم، وتأويل هذه الآية أن الذين كانوا يستهزئون بصلاةِ رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه وبديننا؛ والذين ينقمون من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن أصحابه؛ بعد أن وصفهم الله تعالى بتلك الصفات الذميمة؛ بين سبحانه أنهم على خصلة من الشر ومن النفاق فوق ما وصفهم الله به، وهى أنهم – أخزاهم الله فى الدنيا والآخرة – يجيئون إلى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيقولون للمؤمنين: آمنا بالله وبمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وبما جاء به، وهذا القول بألسنتهم مع عقد قلوبهم على الكفر بالله وبرسوله، وهم شر المنافقين لأنهم أهل كتاب يعلمون أن محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ رسول الله سبحانه وخاتم الأنبياء، ومن ولد إسماعيل الذى بشر به إبراهيم وموسى وعيسى بصريح التوراة فى أسفارهم عليهم السلام. وهذا هو النفاق العلمى العنادى – أعاذنا الله منه – وشرهم فوق شر منافقى الجاهلية ممن لا أثارة لهم من العلم.

والله تعالى يكشف الستر عنهم فيخبرنا بما انطوت عليه قلوبهم فيقول سبحانه: ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ والتأويل أى: دخلوا وقلوبهم معقودة على الجحود، وجلسوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فلم ينتفعوا بما أفاضه الله على أهل الإيمان من العلم والحكمة والمعرفة، لأن الله تعالى لم يقدّر لهم سماع

القبول، وبعد تلك الأنوار التى تهش لها قلوب المؤمنين وتبش، خرجوا بالكفر أى: خرجوا كما دخلوا كفارا، وفى قوله: ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ ﴾ للتحقيق ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ إشارة إلى توكيد الخبر وتشديد فى التشنيع عليهم ﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ والمعنى: والله أعلم منهم بما كانوا يكتمون من الكفر، وغيره من سوء النوايا وشر المقاصد.

وفى هذه الآية تهديد وبيان أنهم – مع دراستهم التوراة – كفروا بتكذيبهم وجهلهم بما يحيط به علم الله تعالى من السر وأخفى.

قوله تعالى: وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ تأويل هذه الآية أن الله يقول لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ترى يا محمد كثيرا من اليهود والنصارى يعجلون إلى عمل ما يأثم عليه العامل من أعمال القلوب، كالكفر بالله والنفاق وإفشاء السوء عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وعن أصحابه، بقصد ردة المؤمنين عن الدين حسدا من عند أنفسهم، وسعيا لإطفاء نور الله بأفواههم. والعدوان هو تعدى حدود الله تعالى بعمل الجوارح والقلوب أيضا، والمسارعة إلى الحظ والهوى والوقوع فى كبائر الجوارح.

﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أى: والله لبئس ما كانوا يعملونه من تلك الآثام والكبائر، وما شنع الله على قوم بـ(بئس) إلا أوجب عليهم الخلود فى النار؛ ولما كانت تلك الأعمال ممن لم يتظاهروا بأنهم لا أحبار ولا رهبان أتى بقوله: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ لأن عقوبة من يعلمون ويقعون فى العدوان أشد وأنكى من ترك ما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن الجهاد فى سبيل الله بدليل قوله

قوله تعالى: لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

(لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) ولولا هنا ليست على بابها الذى هو امتناع لوجود، لأنه لم يوجد نهى من الأحبار والرهبان حتى يمتنع ما يكرهه الله. ولكنها هنا بمعنى هلا، وهى حث للعلماء أن يقوموا بما أمرهم الله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا تركوا المسارعة إلى هذا طمعا فى إرضاء الخلق لينالوا منهم متاع الدنيا القليل؛ أو خوفا على شهرتهم وسمعتهم بين قومهم؛ أو دفعا لما يتوهم أن ينالهم من السوء ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ ويعملون ويصنعون وإن كان معناها واحدا؛ إلا أن يصنعون أشد وأنكى من يعملون، لأن ترك قيام العلماء بتذكير الناس بالله وبآياته وبأحكامه وبحكمة أحكامه ضياع للدين، وخصوصا عند المسلمين الذين لم ينتظروا نبيا يرسل ولا رسولا يبعث بعد خاتم الرسل ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وإن كان ترك الأحبار والرهبان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنكى من وقوع العامة فى الإثم والعدوان، إلا أنه بهذا القياس يكون ترك علماء المسلمين القيام بالأمر والنهى شرا من ترك علماء اليهود والنصارى قبل بعثة رسول الله وبعد بعثته، لأن اليهود والنصارى قبل البعثة كانوا ينتظرون نبيا مبينا فى كتبهم، أما نحن جماعة المسلمين فعلى يقين حق أنه لا نبى يرسل بعد محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومن اعتقد أنه سيبعث رسول بعد محمد فقد كفر.

فتعين وجوبا على العلماء أن يضحوا بدمائهم وأموالهم وأولادهم وشهرتهم فى سبيل تذكير عباد الله تعالى، ومن علم المطلوب هان عليه بذل النفس والنفائس. والربانيون هم الذين تجردوا من مقتضيات نفوسهم الأمارة بالسوء، ومن لوازم طبعهم الخبيث، وعناصرهم المتضادة حتى نُسبوا إلى الرب، وهم أهل المعرفة بالله،

الذين يعلمون الناس دقائق المسائل. والأحبار جميع حبار أو حبر بفتح الحاء أو كسرها، وهم أهل العلم الظاهر الذين حصلوا أحكام دين الله، وحفظوا ما ورد عنها . والربانى فوق الحبر فى العلم والمعرفة، فإن هذا يتكلم بلسانه عن قلبه عن ربه، وهذا يتكلم لسانه عن خزانة الحافظة عمن فوقه من العلم، وشتان بين صاحب السند الأعلى وصاحب السند الأدنى، ومقام الربانية عزيز إلا على من سهله الله عليهم، قال سبحانه: ﴿ كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[1]

قوله تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

إن الله تعالى إذا أحب عبدا أقامه فيما يرضيه وفيما يحبه بتوفيقه وعنايه، ثم نسب إليه ما وفقه إليه من الأعمال، غير مانٍّ عليه بما أحسن به إليه، حتى ولو أن من أحبه وقع فيما يكرهه الله من الكبائر كتبها له حسنات وسترها عنه حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بها، ثم تفضل فلم يذكرها له ولا لغيره وإذا كره عبدا قدّر له طاعته وقربه، وسلب منه الرعاية والمراقبة فوقعت منه أعمال البر لأغراض وعلل تحجب الأعمال عن أن تصل إلى الله تعالى، ثم منَّ عليه بما أنعم به عليه، وبين خفايا قلبه وجوارحه للخلق فى الدنيا وفضحه يوم القيامة، دليل ذلك ما أخبرنا الله به فى كتابه من مننه على بنى إسرائيل بالمَنِّ والسلوى، وتفجير عيون الماء من الحجر،

١- سورة آل عمران آية ٧٩.

وبنجاهم من الغرق، وبما ذكره سبحانه، وأنه جل جلاله فضحهم فأخبرنا بسوء نواياهم وقبيح أفعالهم وذميم أقوالهم.

وهذه الآية برهان على ذلك، ومعجزة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، لأن الله أخبره بما لا يعلمه إلا فحول أحبارهم وربانييهم وهو قوله: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ ..﴾ الآية ، وقد تأول اليدَ هنا بعض العلماء فحكم على الله تعالى بأنها القدرة، وأثابنا الله وإياهم بقدر نواياهم ومقاصدهم، ولكن أقول لهم: إن القدرة واحدة وقد ثنى الله اليد وجمعها فقال: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِمَا خَلَقتُ بيدَيَّ﴾[1] وقال : ﴿ مما عَمِلَت أَيدينا ﴾[2] والقدرة لا تثنى ولا تجمع، والواجب علينا أن نسلم تسليما كما سلم سلفنا الصالح، فنقول: له يد لا كالأيدى، واليد معلومة والكيف مجهول. وتأويل هذه الآية أنَّ اليهود يحكمون على الله تعالى بالبخل، ويد الله مغلولة كناية عن البخل، فإن العرب تخبر عن الرجل الكريم بأن يده مبسوطة، وعن البخيل بأن يده مغلولة أو ممسوكة، وإن كان اليهود – قاتلهم الله – أكثروا الكذب على الله فادعوا أنهم لم يقولوا إن يد الله مغلولة، ولكننا نكذبهم ونصدق الله ورسوله، وإذا جاريناهم فى هذا نقول: إنهم قالوا: إن الله بخيل، ومعنى يد الله مغلولة عندهم أى: تمنع العطايا، نسيانا لنعم الله المحيطة بهم. فإن الله سخر للإنسان ما حواه العرش من جميع الأنواع فى ملكه وملوكته بدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[3] وتلك الشر ذمة الجاهلية بنعم الله لا ترى لله نعمة عليها إلا المال الوفير، والمطعم الشهى،

١- سورة ص آية ٧٥.

٢- سورة يس آية ٧١.

٣- سورة الجاثية آية ١٣.

واللباس البهى، والفراش الوطى، والمرأة الجميلة المطيعة ، وهذه النعم التى سميناها ؛ أنواع الحيوانات تجاهد لنيلها. .

أما الإنسان فإنه بما منحه الله من العقل يدرك نعم الله عليه، فيزهد فى كل تلك الطيبات التى مآلها إن كانت طعاما إلى المراحيض، وإن كانت لباسا إلى المزابل، فلا يشغلون قلوبهم بشيء من ذلك بعد أن عرفوا الله وعرفوا ما عنده، وعملوا بما أفاضه عليهم من نعم روحانية بتلك المعجزة بعد ظهورها، وقد أنكرها اليهود – حسدا وافتراء على الله ورسوله – مع يقينهم بها، وهكذا حال اليهود لأنهم قوم بهت، وقد قصم الله ظهورهم بما أقامه من الحجة بقوله: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ لُعنوا أى: بعدوا عن رحمة الله وفضله، وتلك اللعنة بسبب ما لقوا، وهذا دليل على أن اليهود صيغت أنفسهم من طينة الخبال، ولا نزال فى عصرنا هذا نطلع على خائنة منهم وعلى سوء فعال مجتمعهم وخبث نواياهم، وهم مظهر الغضب واللعنة والقطيعة والحجاب، وقد ظهرت آثار تلك المعانى فيهم واضحة لمن له عقل يعقل به عن الله، وعين يبصر بها حكمة إيجاد الله وإقامته لعباده، وقوله: ﴿ غُلت أَيديهم ﴾ هو خبر فى صورة دعاء عليهم، وهى فى حكم: ليكن هذا. ومعنى ذلك أن الله سجَّل عليهم بهذا الخبر أنهم أبخل من البخل لأن أيديهم غُلّت إلى أعناقهم فلا يستطيعون فعل الخير بما كثر أو قل فإنا نرى أيديهم غلت عن فعل الخير، وعن البذل فى البر والتقوى، فلا تمتد إلا للسوء والضرر، ولا تبذل إلا لمحاربة الله ورسوله والمؤمنين، وهذا معنى أنها غُلَّتْ.

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء ﴾ لما كان الملك والملكوت مخلوقان باليدين، يد خلق بها الشهوات ويد خلق بها العقول، وقد جمع اليدين فخلق بهما آدم وأبناءه، فجمع للإنسان قوة الشهوة وقوة العقل، وخلق العالم الأعلى بيد العقل، وخلق العالم الأدنى الذى هو دون الإنسان بيد الشهوة، وكل العالم الأعلى

عقل، وكل العالم الأدنى شهوة، والإنسان جمع الله فيه الشهوة والعقل، فإذا قهرته الشهوة انحط إلى أسفل سافلين فكان أضل من الأنعام، وإذا أمده الله ومنحه المزيد من فضله رفعه إلى الأعلى فوق عالين وعليين، لما أودع فيه من قوة الشهوة فجاهدها فوق جهاد الحديد والنار. فيداه سبحانه مسبوطتان، يمد أهل محبته بما يجعلهم يسارعون به إلى محابه ومراضيه، ويمد أهل العبد عنه بما يجعلهم يخلدون إلى الأرض ويستعينون بنعم الله على معاصيه، فيعطيهم الله العافية فيقتلون بها ويسرقون، ويعطيهم اللسان فيسبون به ويعصون به، ويعطيهم المال فينفقونه فى مغاضبه تعالى. وتلك النعم نفسها مع أحباب الله يستعينون بها على مراضيه ومحابه، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ فى دعائه: (اللهم ما أعطيتنى مما أحبُّ اجعله مُعِيناً لى على ما تُحبُّ، وما زويتَ عنى مما أُحبُّ اجعله فراغاً لقلبى فيما تُحِبُّ).

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ اللام هنا للقسم، والتأويل هنا: ليزيدن اليهود والنصارى ما أنزله الله إليك من النور والهدى؛ وبيان أسرار الكتب المنزلة من عند الله سبحانه على الرسل من قبلك مما لا يفهمه إلا الأحبار والرهبان والربانيون. وأنت يا محمد بين جاهلية عمياء صماء ليس منها من يكتب ولا يقرأ، فإنزال تلك الأسرار التى يجهلها كثير من أهل الكتاب إلا أهلها؛ دليل على أنك رسول مرسل من قِبل الله تعالى.

وفى قوله تعالى: ﴿ كثيراً مِّنهُم ﴾ دليل على أن القليل جدا من اليهود والنصارى هم الذين أهّلهم الله لأن يعلموا ما أنزل إليك من النور والهدى والإيمان. وفى قوله: ﴿ من ربِّك ﴾ إشارة إلى أن المنزل من الرب جل جلاله – وهو الأحكام والمعاملات وأخبار الأنبياء والملوك فقط – هذا القدر يزيد أكثر اليهود والنصارى طغيانا وكفرا، فكيف لو أنه ﴿ ﷺ وآله﴾ كاشفهم بما أنزل إليه من الله تعالى من غيب توحيده وسر أيامه وحكمة أحكامه ؟ لَصُمَّتْ آذانهم وعميت

أعينهم. والطغيان هنا هو تعدى حدود الله تعالى بما حرفوه من كلامه سبحانه من الخبر عن بعثة نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ومن الأحكام فى الجنايات التى كانوا يغيروها إذا وقعت من غنى ثرى ويقروها إذا وقعت الجناية من فقير ضعيف اتباعا للـــهوى، وهذا هو الطغيان الذى هو كفر فى الحقيقة، وفى قوله تعالى: (وكفـــراً) علـــى إنكارهم بعثة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وبإنكارهم بعثته عليه الصلاة والســـلام ثبـــت كفرهم عند الله تعالى.

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ هذه الآية الشريفة تدل على أن اليهود والنصارى يعبدون أهواءهم وحظوظهم، فهم يتعصبون لأطماعهم لا للحق فإن أهل الحق لا يختلفون، وعلام يختلفون وكلهم يطلبون الله تعـــالى ؟ لا مطمع لهم فى مال ولا جاه ولا مترلة ولا يحبون نفـــوذ الكلمـــة. وأمـــا اليهـــود والنصارى — قاتلهم الله — فإلهم على باطل، يسعى أحبارهم ورهباهم إلى الفـــوز بالسيادة المطلقة، لا يهمهم الحق كما همهم أنفسهم، فترى كل واحد منهم يسعى لينقض غيره ويسيء إليه وينفر منه الناس ليختص بالسودد، ولهذا فـــالله يقـــول: ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء ﴾ أى: وضعنا فى قلوهم ما دعاهم إلى الانقيـــاد لجمع حظ الدنيا، وإلى العمل للرئاسة والكبرياء على الناس، فيكره الأحبارُ الرهبانَ والرهبانُ الأحبارَ، بل تجد النصارى واليهود اختلفوا إلى مذاهب شتى، وكل مذهب يحارب الآخر، ولا أبعد بك، فإنا فى زماننا هذا نرى طوائف النصرانية تقع بينـــهم الحروب الدامية، وها نحن الآن نرى بين أعيننا ما بين البابا والهيئـــة الحاكمـــة فى إيطاليا وأسبانيا وغيرها، من العداوة والبغضاء والعناد لا للحـــق ولكـــن للطمـــع والشهرة. أما العداوة فمعناها العدوان على بعضهم بعضـــا بـــالتجريح بقـــوارص الكلام، أو بالنار والحديد. وأما البغضاء فنفور القلب، وضيق الصـــدر، والسـعى لإيقاع بعضهم بعضا فى المضار الهائلة أعاذنا الله منهم. ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: أن

أهل الباطل لا تصفو قلوبهم من السخائم، ولا من المسارعة إلى عمل السوء إلى يوم القيامة، ولا تصفو القلوب إلا إذا اجتمعت على علام الغيوب، والهاء والميم فى قوله: ﴿ بينهم ﴾ بيان عن اليهود والنصارى الذين تقدم ذكرهم فى قوله: ﴿ لاَ تتخذُوا اليهودَ والنصارَى أولياءَ ﴾ حتى يعود الضمير إلى مرجعه وإن كان بعيدا، ولا تكلف فى ذلك.

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ ﴾ وهذه بشرى لنا جماعة المؤمنين من الله تعالى، وبيان لما كان عليه أعداء الله اليهود مضافا إلى ما بينه سبحانه عنهم من سوء أعمالهم وفساد نواياهم، وهى بشرى بأنهم أعداء رسول الله وحرب عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ وكم هموا بقتله فأمكن الله منهم، وكم نشروا بين المسلمين ما به ينفرونهم من الإسلام فى عصره وبعده، ولكن الله أخزاهم.

ومعنى هذه الآية: كلما قامت ريحهم وجمعوا كلمتهم وهموا بحرب المسلمين؛ أو بحرب غيرهم من الأوربيين والكلدانيين والبابليين، أو من الروم الذين احتلوا بلاد الشام وفلسطين؛ أو أهل الجاهلية الأولى الذين أذلوا بنى النضير وقينقاع؛ شتت الله جمعهم، وفرق كلمتهم، ومكن منهم عدوهم، وهذا خبر من الله تعالى يدل صراحة على أنه حكم لازم عليهم. وها نحن نرى ما هو ماثل بين أعيننا، فإنهم – قاتلهم الله – لاذوا بالإنجليز وبذلوا الأموال لينالوا منهم التأييد لهم فى أن تكون فلسطين وطنا قوميا لهم، وقد كان استفتانى بعض علماء فلسطين من بضع سنين عن الحكم على من يسارع فى اليهود أو يبيع لهم دارا أو أرضا زراعية فأفتيت بما حكم الله به عليهم فى قوله: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَه .. ﴾[1] الآية، وكانت نزلت فى اليهود، وأفتيت

١- سورة المجادلة آية ٢٢.

بمعاهدة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه التى حكم فيها بإجلاء اليهود من فلسطين وقد طبعت ونشرت[1].

ومعنى هذه الآية الشريفة أن اليهود كلما اجتمعوا لإثارة الحرب على عدو لهم فرق الله بين قلوبهم، وخالف ألسنتهم، وفرق جمعهم وأطفأ نار حميتهم وعصبيتهم.

﴿ وَ يَسعَونَ فِى الأرضِ فَساداً ﴾ هذه الآية بيان لنوع من أنواع شرورهم، ومعنى ﴿ وَ يَسعَونَ فِى الأرضِ فَساداً ﴾ أى: يعصون الله، ويخالفون وصايا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ويفتحون أبواب الفتن العمياء والصماء، حتى يوقعوا الناس فى حروب تحجب القلوب عن علام الغيوب، وتخزى الناس يوم القيامة، فتسلب منهم الرحمة والآداب الشرعية ﴿ وَاللَّهُ لاَ يحبُّ المفسدِينَ ﴾ أى: والله لا يحب العصاة المخالفين لشريعة، الغافلين بأهوائهم وحظوظهم.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ تأويل هذه الآية: ولو أن اليهود والنصارى ﴿ آمَنُواْ ﴾ أى: صدَّقوا الله ورسوله ﴿ وَاتَّقَوْاْ ﴾ تقدم معنى التقوى، وذكر التقوى هنا ليخرج المنافقون الذين أظهروا الإيمان، وإلا فالإيمان أَصْلٌ وَعَدَ الله عليه بخير الدنيا والآخرة، ولكنه يعلم جل جلاله أن أهل النفاق يظهرون الإيمان وقلوبهم منعقدة على الكفر، فأتى بلفظ ﴿ واتقوا ﴾ والتقوى هى خوف الله تعالى خوفا

١- راجع كتاب: (تحذير الدين مع بيع أراضى فلسطين) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم.

يجعل المؤمن يراقب الله تعالى ويخشاه خشية يكمل بها الإيمان ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ اللام هنا للقسم، وكفرنا: غطينا، أى: سترنا عنهم وعن غيرهم خطاياهم ومعاصيهم حتى يلقى الواحد منهم الله وليس عليه شاهد بذنب، لأن معنى كفر: ستر وغطى ﴿ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أى: يُدخِلهم اللَّهُ تعالى يوم القيامة بساتين النعيم المقيم فى مسرة وحبور.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءِ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ .

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا أن اليهود قوم مخادعون إلى الباطل، ميالون إلى الشر، لا يهمهم إلا سلب أموال الناس بالباطل حرصا على البقاء فى تلك الدار الدنيا، وخوفا على أنفسهم أن يهلكوا من الفقر بدليل هذه الآية الشريفة. لأن حرصهم هذا دليل على ترك عمل اليهود بالتوراة وترك عمل النصارى بالإنجيل.

لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ ﴾ أى: عملوا بالتوراة ﴿ وَالإِنجِيلَ ﴾ أى: عملوا بما فى التوراة وبما فى الإنجيل ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وهو محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ الذى أنزل الله عليه القرآن المجيد ﴿ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ﴾ من فوق رؤوسهم، أى: الأمطار، والذى يترلها الله عليهم من السماء لتحيى الأرض بعد موتها بالنباتات التى يرزقهم الله منها بالتجارة والحبوب وغيرها ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ مما تنبته الأرض من البقول وما تخزنه لهم من الركاز والمعادن.

وفى هذه الآية إشارة إلى غذاء العقول والأرواح والنفوس، وأما من فوق الرؤوس فبالواردات الإلهية والإلهامات الربانية، والخواطر النورانية التى يتفضل الله بها على من اجتباهم. وأما من تحت أرجلهم فبالعبرة والتدبر فى ملكوت الأرض وما جملها الله من البحار والجبال والأنهار والنباتات والحيوانات، مما إذا نظر فيه أهل البصيرة يشهدون من أسرار الملكوت ما تنجذب به الأرواح إلى حظيرة الفتاح.

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ﴾ والأمة المقتصدة هم الذين أسلموا من أهل الكتاب، والاقتصاد هو الوسط الذى هو بين الإفراط والتفريط، أما الإفراط والغلو فقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وأما التفريط فقول اليهود: المسيح ابن زنا، ويد الله مغلولة . وتفريطها: الكفر بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وأهل الإفراط والتفريط الكثيرون منهم ساءت أعمالهم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

أنزل الله تعالى على رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بيان ما كان عليه اليهود والنصارى وأهل الجاهلية من الضلال والإضلال، والزور والبهتان، وتحريف كلام الله، وتغيير أحكام الله، ومل فعلوه من القبيح مع رسل الله وأنبيائه، وما ابتلاهم الله به من النقم، وما عجل لهم من العذاب فى الدنيا قبل الآخرة مما لا يعلم علمه إلا الربانيون منهم، مع ظهور رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بين أمة أمية فى الجاهلية العمياء والضلالة الصماء، فكان ما أتى به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أشد على اليهود والنصارى وأهل الجاهلية من عذاب النار، فأحرق الحسد قلوبهم، وملأ ما جللهم به من الخزى أجوافهم نارا عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، مع ما جمّله الله به من الرحمة

الواسعة حتى جعله الله - ﴿ ﷺ وآله﴾ - رحمة للعالمين . فكان يحب من وجهة رحمته بالناس أن يترل الله ما يؤلفهم به، ومن جهة أنه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يسارع إلى تنفيذ أوامر الله. وهذان العاملان لا يقوى عليهما إلا معصوم بعصمة الله تعالى. وقد قام أهل الجاهلية عليه ﴿ ﷺ وآله﴾ حتى بلغ من أذيتهم له أن يَدَعُوه حتى يسجد ويطأون عنقه الشريف بنعالهم، ويسلطون عليه السفهاء والأرقاء فيرمونه بالحجارة حتى يسيل الدم من رجليه صلوات الله وسلامه عليه، فتدعوه الرحمة التى فطره اله عليها أن يقول: رب اهد قومى فإنهم لا يعلمون. وهذه الكلمة الشريفة دالّة على تلك العوامل القوية.

فقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ نداء تشريف وتعظيم لمقامه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، و﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أمر من الله الذى جمله بالرحمة، يعنى يبلغ كل ما أنزله الله إليه من الأحكام ومن الأحبار عن أهل الكتاب وعن مجوس العرب والعجم، التى أظهر الله تعالى فيها ما كانوا عليه مما يخزى ويذل فاعليه، ويثير الضغائن فى الصدور ويوقع فى الانتقام ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ أى: وإن تركت أن تبلغ بعض ما أنزل إليك رعاية للرحمة التى جملتك بها فى قلبك ورغبة فى نجاة العالم ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ أى: فإنك تُعاقَبُ على ما تترك بلاغه للناس مهما كان قليلا كما تعاقب على ترك بلاغ الناس كل ما أنزل إليك.

ولما كان هذا الإجراء يتقصى إكرام الله لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ بما يطمئن به قلبه قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى: يمنعك من الناس أن يضروك فى نفسك بشيء، والعصمة مأخوذة من العصام وهى رباط القربة الذى تحزم به، كذلك الله يعصمه ﴿ ﷺ وآله﴾ أى: يحفظه ويقيه من جميع شرور الكفار، وكان الصحابة قبل أن يترل الله تلك الآية يقومون بحراسته ﴿ ﷺ وآله﴾ ، فلما نزلت أمرهم بترك حراسته لأن الله تعالى تولى حفظه بنفسه. وقد بينت ذلك بأن الله جمَّل

حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن جعله رءوفا رحيما، حتى لا يكون فى النار إنسان، ولكن القادر الحكيم قدر أن يعمَر النار بالأناسى، فكان ﴿ ﷺ وآله﴾ يحزن جـدا إذا رأى معاندا، وتكاد نفسه تذهب حسرات بما جمله الله به من معانى الـرءوف الرحيم، وهذا هو الذى أنزل الله تعالى لأجله تلك الآية الشريفة، ليكون رسول الله رءوفا رحيما مأمورا بتبليغ كل ما أوحى إليه مهما كانت مقتضيات ما أنزلـه الله إليه وتأثيره على الخلق. ولما أراد ا، يكمل دينه لعباده، ويتم نعمته عليهم؛ عصـمه من الناس ليبلغ ما أنزله الله إليه بحسب الأحداث التى تقتضى الأحكـام، فوقـف ﴿ﷺوآله﴾ فى وجوه ألد أعداء الله من المجوسية وأهل الكتاب ، لا يخـاف فى الله لومة لائم ، حتى أظهر الله دينه وعصمته من الناس، ورفعه الله إليه محفوظا من كل ما ألم بغيره من الأنبياء السابقين.

﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ نفى الهداية مؤكدة عن من غطـى عنهم الحقائق التى طولبوا بالإيمان بها بحسب جواهر النفوس، فإن جـوهر الـنفس الأمارة بالسوء يقتضى وجوده مع خبث الطبع، فلم يقدّر الله تعالى لهم الهداية التى بها لهم حقيقتك، وما تفضل به عليك من نور البيان وآيات العلم بـالله، فهـم لا تنكشف لهم حقيقتك فيتبعوك ويعزرونك وينصرونك، ولا تقف هممهم إلا عنـد طلب أذيتك، والسعى فى إطفاء نور الله الذى أرسلك به، ولكن الله – مـع مـا فطرهم عليه من خبث النية وسوء السريرة والمسارعة إلى نصرة الباطل – يعصمك منهم بعناية التى حفظ بها السموات أن تقع على الأرض، وبولايته التى حفظ بهـا الذكر الحكيم أن يتغير. و (ألـ) هنا فى (الناس) لا ستغراق كل ما سبقت لهم السوءى من الله.

ولم يفز بهذا المقام العلى أحد من رسل الله غيره ﴿ﷺ وآلـه﴾ ، ومـن يحفظه الله من الناس بهذا القدر لا بد وأن يكون محبوبا لله تعالى ، مصوغا من نور الله تعالى.

وفى هذه الآية دليل على أن الله إذا قدّر فى الأزل كفر قـوم لا يهـديهم هداية الإحسان، وإن هداهم هداية البيان لتقوم الحجة عليهم.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّـى تُقِيمُـواْ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِـن رَّبِّـكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ هذه الآية الشـريفة بينـت أن الإنسان لا ينفعه نسبه ولا علمه ولا عمله ما دام يجعل العلم وسيلة لجمع حطـام الدنيا، وما دام عمله مخالفا لعمله، لغلبة الحظ والهوى عليه وحبه للعاجلة، وقول الله تعالى: ﴿ لستُم على شيٍْ ﴾ يعنى من الحق الذى تعرفونه، مع أنكم أهل التـوراة المؤمنون بها، بعد أن قلتم للمؤمنين: إن التوراة كتاب الله، وهو حق ونحن مؤمنون به ولا نؤمن بغيره. فكذبهم الله تعالى لأنهم ليسوا على شيء من الحـق، فلاهـم مؤمنون بالتوراة بدليل مخالفتهم لصريحها وتغييرهم لأحكامها وتحريفهم لأخبارها– خصوصا عن رسول الله محمدا ﴿ﷺ وآله﴾ – ولا بمن أنزلت عليه التوراة عليـه السلام بدليل ما أخبرنا الله عنهم من عنادهم لموسى عليه السلام، ومن كفرهم بالله تعالى بعبادهم العجل، وبكفرهم بخاتم الرسل ﴿ﷺ وآله﴾ الذى أخبر الله عنـه فى التوراة وبشَّر به عيسى فى الإنجيل.

كل تلك الحقائق أخبرنا الله عنهم أنهم ليسوا على شيء مما يحبه الله ويرضاه، وإن كانوا على شيء من ضد ذلك من الخدع والكيد والكفر والافتراء على الله، وإنكار الحق، والسعى فى الأرض فسادا. والمراد بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ﴿ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ تقدم تفسيرها وهذه الآية كالتوكيد لما قبلها.

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ هذا الخطاب من الله تعالى يخاطب به حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ، تسلية له صلوات الله وسلامه عليه ، وبيانا من الله تعالى له أنَّ اليهود والنصارى الذين بين له ﴿ ﷺ وآله﴾ ما كانوا عليه مع الرسل والأنبياء السابقين ، وأنهم عناديون لموسى وعيسى عليهما السلام وليسوا منهما فى شيء ، وإنما دعاهم إلى ذلك نفوسهم العنادية ، وحسدهم الذى أحرق قلوبهم ، فلا تحزن مما يقابلونك به، لأن الذى أنزلته عليك ما زادهم إلا كفرا ونفورا . وقد تقدم بيان الطغيان، والكفر فى هذه الآية إشارة إلى أن كثيرا من اليهود والنصارى سجل عليهم القضاء أن يكونوا معاندين لرسل الله وأنبيائه ولورثتهم الدعاة إلى الله حتى يذوقوا العذاب الأليم فى الدنيا بالجزية، والذل والخزى فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم إن شاء الله. .

﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: فلا تأسف لما يصيبك منهم من إنكار وعناد وافتراء. وجائز أن تكون (تأس) أى: تتأسف عليهم لما أصابهم الله به من سوء القضاء عليهم بالكفر والجحود، ومحاربة رسله وأوليائه. وهذه الآيات طمأنت قلوب الدعاة إلى الله، فإن كل آية نزلت فى اليهود والنصارى جرّت بذيلها المنكرين وأدعياء الإسلام الذين هم أعداء أنفسهم، ولا يخلو منهم زمن، فترى

بعضهم ينكر كرامات أولياء الله، وبعضهم ينكر أسرار ما علم من الدين بالضرورة، وبعضهم ينشر الفاحشة عن أولياء الله فَيُشَنِّعُ عليهم ما ينفر منهم قلوب المسلمين. وما هم بضارين من شيء، فإن اليهود والنصارى أناس لهم نفوس، وكل مسلم ظهرت فيه تلك العلائم كانت نفسه من أرادأ الجواهر النفسانية، والقوم الكافرون هم الذين سترت عنهم الحقائق، لأن الهوى أعمى عيون البصائر، قال عليّ عليه السلام: (الهوَى أَخُو الْعَمَى) وكما أن العمى فقد البصر فإن النقمة فقد البصيرة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّبِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

الآية الأولى بينت أن نفوسهم عنادية وقد جحدت الحق، وكفرت به من عهد موسى والأنبياء من بعده، وقد استمروا فى هذا الضلال والجحود حتى أخبرنا الله عنهم بهذه الصفات على لسان خاتم الرسل والأنبياء. أما الآية التى معنا فقد فتحت أمامهم أبواب الرجاء والأمل، وأبواب الرحمة والمغفرة، وأنهم إن رجعوا إلى الله وتابوا إليه من هذه القبائح الشنيعة والأفعال المنكرة فإن الله تواب رحيم يقبل توبتهم، ويغفر زلتهم، ولا تكون هذه التوبة إلا بالعمل بما جاء فى التوراة والإنجيل من الحِكم والأحكام، والهدى والإيمان الذى أنزله الله على موسى وعيسى، وكذلك العمل بما أنزله الله على خاتم رسله من الآداب والأحكام التى فصلها القرآن الكريم. .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّبِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ هذه الآية الشريفة دلت على أن الإنسان – من حيث هو إنسان – مجبول على الشر وعلى المسارعة فى الباطل ، وأن كل إنسان – مهما كان متدنسا

بقاذورات الأباطيل والأضاليل – فإنه إذا آمن طهّره الله من كل ذنوبه السابقة، والإيمان طُهْرَةٌ كبرى، والتوبة طُهْرَةٌ صغرى، والفرق بينهما أن الإيمان يطهر من الكفر والتوبة لا تكون إلا من مؤمن فهى تُطَهِّر الذنوب سوى الكفر، والكفر أكبر الكبائر، والذنوب بالنسبة له ليست كبائر، قال تعالى: ﴿ إنَّ اللَّهَ لاَ يَغفر أن يُشرَكَ بِهِ ﴾[1] والمفهوم أن الذين آمنوا هم الذين صدقوا الله ورسوله محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ ، والذين هادوا هم اليهود ، والنصارى هم أصحاب عيسى عليه السلام ، والصابئون هم المجوس وجاءت مرفوعة بعد (إِنَّ) وهى معطوفة على اسمها ، إما لأن (إِنَّ) إذا تلاها اسم غير معرب جاز لك أن تعطف عليه بالرفع ، واسم (إن) هنا اسم موصول ، وإما أن يكون ذلك لتعظيم شر الصابئين فإهم شر من اليهود والنصارى ، وكأن الكلام هنا : بل والصابئون ، فجاز رفعها لذلك ، وقد روى بالنصب.

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ ﴾ أى: بالله وبمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ﴿ وَاليَوم الأخِرِ ﴾ وهنا ذكر الإيمان بالله وباليوم الآخر لأن الفرق بين أهل الكفر والغفلة وأهل الإيمان هو الإيمان باليوم الآخر، لأن المؤمن يؤمن بأن هناك يوما يبعث الله فيه عباده، فيجازى أهل الإحسان بالإحسان وزيادة، فمنهم من يواجههم بوجهه الجميل، ومنهم من يجلسه على منبر من النور قدام العرش، ومنهم من يمنحه الرضوان الأكبر الذى ى سخط بعده، ومنهم من يترله مقعد صدق عند مليك مقتدر، ومنهم من يكون فى الفردوس الأعلى، ومنهم ومنهم بحسب مقاماهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعلُومٌ ﴾[2] وهذا هو الذى اقتضى أن يذكر الله اليوم الآخر، قال

١- سورة النساء آية ٤٨.

٢- سورة الصافات آية ١٦٤.

سبحانه: ﴿ اليومَ نَنسَاكُم كَماَ نَسِيتُم لقاء يَومِكُم هَذَا ﴾[1] فالإيمان باليوم الآخر برهان على كمال الإيمان وصحة المراقبة، ولاَ شكَّ إذا علم الإنسان أنه ميت ولا محالة؛ وأن له بعد الموت يوما يقال له يوم البرزخ، كما كان له يوم يقال له يوم الدنيا، وأنه بعد ذلك اليوم يبعث حيا سميعا بصيرا، وتبصر عيناه الحقائق كلها حتى يبلغ الإيمان مقام اليقين الذى كان عليه الخليل وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَبصرنَا وَ سَمعنَا فَارجعنَا نعمل صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[2] وهذا المقام لم يبلغه فى الدنيا إلا كُمَّل الرسل، أما نحن فإنا آمنا بالغيب، وصدقنا الله ورسوله، ومنَّا من يمنحه الله الشهود فى الدنيا، ولا فرق بين من شهد ومن لم يشهد إذا كمل اليقين بما عليه، قال علىٌّ عليه السلام: ﴿ لو كُشِفَ الحِجَابُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً﴾.

وهذا لأن المؤمن الذى سمع رسول الله يخبر عن الله فصدقه لا يحتاج بعد إلى دليل ولا برهان، حتى لو كشف الحجاب لرأى صورة ما علم، ولا يحتاج فى الدنيا لكشف حجاب، وعند أهل اليقين أن الإيمان بالغيب أقوى من الإيمان بالشهادة، لأن عيون بصرهم التى يشهدون بها تكذب عليهم فى كثير من الشئون المحسوسة، فإنها ترينا الشمس كالرغيف وهى قدر الدنيا وما فيها بأكثر من تسعمائة ألف مرة، وتريك الجبل الشامخ كأنه تحت قدميك وبينك وبينه الفراسخ الطوال، وتريك العصا فى الماء معوجة وهى معتدلة؛ فالعين تكذب علينا فيما هو محل إدراكها، فكيف تصدق فيما ليس بمحل إدراكها ؟ والحس كله يكذب علينا؛ فإن المريض إذا ذاق السكر تذوقه مرا علقما، وإذا طعم الملح تلذذ به، وكذلك فإن الأنف المزكوم لا يشم الطيب، والأذن قد تسمع الحسن فتحكم عليه بالقبح، وكذلك الذهن فإنه

١- سورة الجاثية آية ٣٤.

٢- سورة السجدة آية ١٢.

يحكم على خفايا تخالف الحقائق، فقد يرتب الإنسان الموضوع الذى يريده ثم يتبين له بعد زمن فساد ما رتب، إذن فخبر الله فوق شهود أبصارنا وبصائرنا.

وسمى باليوم الآخر لأن الدار الدنيا هى اليوم الأول، وأيام الله كثيرة، ومن جهل أيام الله نسى الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾[1] وفى هذه الآية التى جمع الله فيها بين المؤمنين وغيرهم من أهل الملل والنحل؛ ثم أخبر أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فهم سواء فى الجزاء؛ برهان على أن الحجة قامت والمحجة ظهرت، ولا فرق عند الله بعد الإيمان بالله واليوم الآخر وبعد العمل الصالح بين من سبق إيمانه ومن لحق من المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿ وعمل صَٰلِحاً ﴾ شرط فى تحقيق الحكم، إذن فالحكم لا يكون إلا لمن آمن بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وبمن قبله، وباليوم الآخر، وعمل صالحا. ﴿ فلهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهِم ﴾[2] أى: فإن الله يتفضل عليهم بفضله الذى قدّره أزلا، كما قدر توفيقه ومعونته وإقامتهم فى محابه ومراضيه، فهو المتفضل بالتوفيق والمعونة، وهو المتفضل بنسبة العمل – الذى أعان عليه – للعبد، وهو المتفضل بإحسانه إليهم على ما أقامهم فيه، و﴿ عِندَ رَبِّهم ﴾ يعنى أن الذين آمنوا بالله وبرسله جميعا وباليوم الآخر وعملوا صالحا كانوا ممّن بشرهم الله بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾[3] فهم عنده فوق المعية، وفوق العندية اللدنية.

﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف يكون من متوقع، والحزن يكون على فائت. وهذه الآية الشريفة تكون عند الموت وبعده، فإن المؤمن عند

١- سورة إبراهيم آية ٥.

٢- سورة البقرة آية ٦٢.

٣- سورة الأعراف آية ٢٠٦.

موته يخاف العقوبة ويحزن على ما فات من ذنوبه، فيرسل الله له ملكا يكلمه، فيقول: ما يخيفك يا عبد الله ؟ فيقول: أخاف من وقوع العقوبة علىّ يومَ القيامة، وأحزن على أمرين عظيمين، الأول: الذنوب التى فرطتُ، والثانى: أهلى وأولادى ، فيقول له الملك : أبشر يا عبد الله ، إن الله أقام نفسه وكيلا عنك بعد موتك على أولادك وقد بدل سيئاتك حسنات فيزول حزنه، أما خوفه بعد الموت ففى ثلاثة مواطن ، الأول : القبر، والثانى البعث، والثالث: الورود على الحساب. أما فى الموطن الأول فإن الله يلهمه الصواب فى قوله، فيقال له، نم آمنا، وأما الثانى فإن العالم إذا بعثوا من قبورهم عراة حفاة عزلا حصل لهم الهلع، فيرسل الله لأحبابه نجبا من النور تحملهم فيكون هناك المسرة والحبور، وإذا أوردوا مواجهه الحساب أمر بهم إلى الجنة من غير حساب، فيزول الحزن والخوف بعدها، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الفردوس الأعلى. وجائز أن يكون معنى الآية أنهم كمل يقينهم بمشاهد التوحيد؛ حتى اطمأنت قلوبهم بخالص التوحيد أن الله لا يقدِّر على عبده المؤمن إلا ما هو خير له، وبذلك فالناس فى الدنيا وفى الآخرة وعند الموت يخافون ويحزنون، وحق لهم أن يخافوا ويحزنوا إلا من اجتباهم الله فإن الله تعالى بشرهم بقوله: ﴿ فلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحزنُونَ ﴾.

قوله تعالى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ تقدم ذكر الميثاق فى أول هذه السورة فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالعُقُودِ ﴾[1] وقد تقدم أن مواثيق الله تعالى أخذت على الناس وهم فى البدء حيث كانوا فى التجريد، وكان العهد

١- سورة المائدة آية ١.

لانبلاج الحقائق للأرواح الممثلة لها فى الأشباح، وأخذه سبحانه والروح فى الأشباح بما أقامه من الدلائل المتصلة بلسان الحال، المبينة لغوامض الأسرار التى هى أوضح من الشمس فى رابعة النهار مما خلقه فى الآفاق وفى أنفسنا، تتلمسه العقول السليمة من الهوى والحظ، وتدركه النفوس المطهرة من الطمع والتروع إلى الشهوات، وبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين أقاموا الحجة ووضحوا المحجة أولا: بالمعجزات الباهرات، وثانيا: بالبيان الجلى الذى يخضع فحول العقلاء، وثالثا: بما كانوا عليه من الأحوال العلية والاستقامة الجلية طول حياقم، حتى أتاهم داعى الحق بعد الصبر والجلد والكرم والشجاعة والرحمة والحنانة والشفقة قياما لله بالشكر، وفعلموا الناس بعلمهم وأخلاقهم ما تتعشقه العقول الصحيحة، والأبدان السليمة، والأرواح الطاهرة. وبعد أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل فى كل أطوارهم لم يزدادوا إلا افتراء وإنكار كما هى عادقم مع الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

ففى قوله سبحانه: ﴿ لقد أخذَنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسرائِيلَ ﴾ بالدلائل المتقدمة، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ﴾ تتمة لكمال المواثيق المأخوذة عليهم. ومعنى الآية أى: أرسلنا رسولا مكررا بعد رسول بدليل قوله: ﴿ كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾ وهذه جملة شرطية، أى: كلما جاءهم رسول موصوف بالبيان الذى لا قواه أنفسهم أبوا القبول منه ومن كل الرسل الذين تعاقبوا عليهم، وفَصَّل الله تعالى امتناعهم قبوله بقوله: ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ أى: ففريقا من الرسل كذبوه وأنكروا عليه وأبوا القبول منه، لأن الله تعالى لم يشأ أن يهديهم هداية الإحسان والقبول، فأقام عليهم الحجة بهداية البيان على لسان الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾، وفريقا يقتلون كز كريا ويحيى وغيرهما.

وهذه الآية بينت ما عليه اليهود من خبث الطبع، وجرأة على الله ورسله صلوات الله عليهم بيانا يذيب قلوب أهل الإيمان خوفا من سوء العاقبة، لأن أهل

الإيمان إذا سمعوا خبر الله تعالى عن أمة من الأمم أنه شنع عليها وتوعدها بالعذاب وهى من أهل الكتاب ذابت قلوبهم فرقا خوفا من سوء القدر، وقد بين الله لنا فى الآيات السابقة عن اليهود بيانا جللهم فيه بالخزى فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿ وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل كما تقدم على أن يسمعوا من رسله ويطيعوهم، فأبوا إلا العناد، حتى بلغت بهم أن كذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر وهم يظنون أن الله لا يبليهم فى تلك الدار الدنيا بعقوبة معاصيهم بمصائب لا قبل لهم بها، وبينما هم فى هذا الظن الدال على عنادهم ابتلاهم الله بالبلايا الفادحة، وسلط عليهم بختنصر فهدم المسجد الأقصى، وفرق جموعهم، فأيقظهم بتلك الحادثة وتابوا، فأقبل الله عليهم. فلما أن شبعت بطونهم، وسترت جسومهم، وصحت أبدانهم، وأمنوا فى أوطانهم، وتيسر لهم القوت؛ رجعوا إلى ما كانوا عليه، فسلط عليهم الرومان ففرقوهم أيدى سبأ، فرجعوا إلى الله تعالى تدعوهم الضرورة الفادحة والمصائب المؤلمة. ولم يكن الداعى لهم الخوف من علاّم الغيوب، بل كانت نفوسهم خبيثة تذل عند الشدة، وتعرض وتنأى عند الرخاء، ولما أقبل الله عليهم بما يحبون منه نزعوا إلى عوائدهم وشيعهم، فسلط الله عليهم المجوس فساموهم الخسف والهوان، حتى أظهر الله الإسلام وأشرقت أنوار رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بعد أن كانوا يستظهرون على الجاهلية ببعثته ﴿ ﷺ وآله﴾ ويقولون : سيظهر رسول آخر الزمان فنعينه على قتالكم ويحصدكم حصدا، فلما بعثه الله تعالى بالحق بشيرا كانوا أول من جحد أخباره فى التوراة، وأغروا

عرب الجاهلية على الإنكار عليه وقتاله، وهى سنة الله فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ذلك أهم ظنوا أن لا تكون فتنة ، أى: لا يكون ابتلاء من الله ، ولا خفى مكر منه جل جلاله بهم حتى دهمتهم المصائب، فكانوا كلما أصابتهم مصيبة لا يعتبرون بها لظنهم أن لا تكون فتنة ، ولا يتذكرون لغفلتهم عن الله تعالى، ونظرهم إلى الأسباب القائمة من غير نظر إلى المسبِّب جل جلاله.

﴿ فَعَمُواْ ﴾ أى: عميت عين البصائر التى تنظر إلى الحقائق نظر العبرة والفكرة ﴿ وَصَمُّواْ ﴾ أى: صمت أذان بصائرهم التى تسمع عن الله لما أصمها الهوى والطمع فيما لا ينفع من حطام الدنيا ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيهِم ﴾ بسبب دواعى الضرورة، و لم تشعر قلوبهم بسر الحكمة فى انتقام الله منهم ﴿ ثُم عمُواْ وَصَمُّواْ ﴾ بعد أن تابوا وأقبلوا، عن النظر بعين العبرة، وعن سماع الحكمة من الرسل عليهم الصلاة والسلام، حتى دعاهم الخوف من سلب الرئاسة إلى تكذيب بعضهم وقتل بعضهم البعض. وفى قوله تعالى: ﴿ كَثِيرٌ منهُم ﴾ دليل على أن أكثرهم كانوا قوما بورا، وكان القليل أهل عبرة وهم الذين أسعدهم الله بالإسلام ﴿ واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعمَلُونَ ﴾ أى: يبصر أعمالهم خفيها وظاهرها، ولكنه حكيم يحكم على من سبق فى عمله أهم يتوبون ويوفقهم للخير، ويصبر على أهل الكفر منهم والمعاصى استدراجا منه لهم، وأعاذنا الله وإخواننا.

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ قد بينت فيما سبق ما فعله إبليس بحواريي عيسى الأربعة عندما نجوا بأنفسهم من وجوه اليهود

والرومان بعد رفعه إلى السماء، وشرحت أن الذين قالوا: إن المسيح هو الله، هم اليعقوبيون، وأن الذين قالوا: هو ابن الله، هم النسطورية. وهذه الآية دلت أن الاجتهاد والرأى والمذاهب – مهما كانت دواعى الاجتهاد أو المذاهب أو الرأى قريبة من المعنى – لا تنفع عند الله بشيء، ما لم تكن العقيدة مطابقة لما فى علم قدر ما تقبله العقول. فإنا لا نكلف كل المسلمين أن يعقدوا قلوبهم على ما عقد عليه قلب أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وقد وسَّع الله ذلك وُسْعَةً شملت الكل بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ ﴾[1] ولم يقل الذين يؤمنون بالشهادة أو البرهان القاطع أو الحجة، ومن لم يسلم تسليما للصادق الأمين الذى أقام الحجة بالمعجزات الباهرات فهو كافر، وبعد أن أثنى الله على أهل الإيمان بالغيب الذين تلقوا العقيدة من القرآن مجملة، أمرنا سبحانه بالبحث والنظر والاعتبار فقال: ﴿لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴾[2] و ﴿ لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾[3] و﴿ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴾[4] و﴿هَل يَستَوى الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعلَمُونَ ﴾[5] وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾[6] فجعل العلم والإيمان نوعين، فمدح أهل الإيمان بالغيب بقوله: ﴿ أوْلَئكَ عَلَى هُدًى من رَّبِّهِم وَأَوْلَئكَ هُمُ المُفلِحُونَ ﴾[7] ثم رفع

١- سورة البقرة آية ٣.

٢- سورة آل عمران آية ١٩٠.

٣- سورة آل عمران آية ١٣.

٤- سورة طه آية ٥٤.

٥- سورة الزمر آية ٩.

٦- سورة الروم آية ٥٦.

٧- سورة البقرة آية ٥.

العلماء درجات عن المؤمنين فقال تعالى: ﴿ يَرفَعِ ءَامَنُوا مِنكُم وَالذِينَ أوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ ﴾[1].

ففى هذه الآية بعد أن شرح الله لنا أحوال اليهود وما كانوا عليه من بيان أمرهم إلى الآن، وبعد الآن، أخذ يبين لنا ما عليه النصارى فقال: ﴿ لَقَد كَفَر الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَريَمَ ﴾ وهم النصارى، لأنهم يقولون: إن الله حل فى بطن مريم فأولدها المسيح، وهذه العقيدة نهاية فى العمى لأن الذى خلق السموات وما فوقهن وما فيهنَّ ومن فيهن؛ لا يتصور أدنى جاهل أنه يحل القاذورات والفضلات لا كماً ولا كيفاً، وتنزه ربنا وتعالى، وهو جل جلاله لم تسعه السموات والأرض ولا العرش ولا الكرسى ولا فوق ذلك مما لا يعلم علمه إلا هو، فكيف يسعه فرج امرأة ؟!!.

﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أى: أن المسيح عليه السلام دعا إلى عبادة الله الذى هو ربه عليه السلام ورب العالمين أجمع، وقد ورد هذا الكلام بمعناه فى الإنجيل فى قوله لبنى إسرائيل: اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء، وقوله للذى قال له: أيها المعلم الصالح، فالتفت له وقال مغضبا: أنا لستُ المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله فإنسان يتبرأ من أن ينسب إليه أنه معلم صالح، ويفرد الله تعالى بكل الكمالات كيف يرضى لنفسه أن يكون إلها ؟ اللهم إن الهوى أخو العمى، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُضلِل فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرشِداً ﴾[2].

﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ ﴾ هذه الآية من مقول المسيح، يقيم بها الحجة على أن الشرك بالله موجب للخلود فى النار بتحريم الجنة

١- سورة المجادلة آية ١١.

٢- سورة الكهف آية ١٧.

عليه، وما ثم إلا نار وجنة، فإذا حرمت عليه الجنة دخل النار، وإذا كان المسيح يرى أن الجنة حرام على من يشرك فكيف تكون على من جحد الله واتخذ له إلها غير الله ؟.

وفى هذه الآية دليل على أن أهل الكبائر لا يخلدون فى النار، لأن الجنة حرمت فقط على من يشرك، وعلى هذا فيظهر أن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدعُونَ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ وَلا يَقتُلونَ النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالحَقِّ ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿ وَيخلُد فِيهِ مُهَاناً ﴾[1] أن الخلود إما أبدى: لمن اتخذ مع الله إلها آخر، وإما خلود زمنى: وهو طول الإقامة فى جهنم ثم الخروج منها.

﴿ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ مأواه الذى يأوى إليه هو النار، والمأوى هو المترل والمسكن ودار الإقامة ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أى: وليس لمن ظلم نفسه بالشرك أولياء ينصرونه، لأن أهل التقريب من الله والمصطفين الأخيار والمجتبين الأبرار؛ إذا انكشفت الحقائق لبصائرهم يوم القيامة كرهوا ما كره الله، وأحبوا ما أحب الله، فلا تراهم يرحمون ظالما ظلم نفسه بالكفر فيشفعون له عند الله أو ينصرونه، وفى هذه الآية دليل على أن الشفاعة لا تكون إلا لمن مات على الإسلام، ومنكر الشفاعة يُحرَمها، أعاذنا الله من إنكار ما ورد صريحا فى الشريعة. .

قوله تعالى: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ اللام هنا للقسم، وقد للتحقيق، والكفر هو جُحُودُ الحق وغَمْطُ النعمة، والذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة

١- سورة الفرقان آية ٦٨ – ٦٩.

هم فرقة من اليعقوبية، روى ابن جرير رضى الله عنه أنهم من بنى إسرائيل الــذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، يعنى أنه ذات ليست مولودة وله ولد مولــود وزوجــة مولودة، شبهوه بالشمس: قرص وشعاع وهواء، وهى واحد. وقيل إنهم فرقة مـــن النصارى من الملكانية أو النسطورية بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[١] فيكون عيسى وأمه والله الثلاثــة إلهــا واحدا عندهم، وكذبوا، لأن الله تعالى ذات مترهة عن الحلول وعــن الصــاحبة والولد، وقد قامت الحجة بالآيات المنبلجة فى الكائنات من الســموات والأرض، وما فيهن من الآثار العجيبة والأنواع الغريبة مما لا يمكن أن يبدعه ويخلقــه إلا الله تعالى المتره العلى العظيم. والنصارى واليعقوبية – أخزاهم الله – كفروا كفــرا لا تقبله البهائم السائمة – فضلا عن الإنسان – فإن تلك العقيدة كان يعتقدها جهلاء القرون القديمة كالفراعنة ومجوس الهند وغيرهم، حتى لقد ظهر فى الآثار رسم مـــن الحجر عليه ثلاثة رؤوس مكتوب عليه باللغة السنسيكريتية: (الثالوث المقــدس) وكذلك وجد فى مصر آثار قديمة جدا تدل على أن الآلهة ثلاثة، وأن واحدا مـــن الآلهة علمهم الزراعة، وقد تقدم الكلام عليها كما هى فى كتب التاريخ. فلعن الله اليهود والنصارى، كم كذبوا على الله تعالى وعلى رسله !! ، ولهـــم فى كفــرهم عبادات ما أنزل الله بها من سلطان ولا دليل من العقل، فيقولون بالأقانيم الثلاثــة وهى أقنوم الذات وأقنوم الابن وأقنوم الروح، أو أقنوم الذات وأقنــوم العلــم – ويعبرون عنه بالحكمة – وأقنوم الحياة، وما لهم بذلك أثارة من علم، إن يتبعون إلا الضلال والخزى.

١- سورة المائدة آية ١١٦.

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ هذه الآية حجة قاصمة لظهور اليهود والنصارى الذين قال بعضهم: عزير ابن الله، وقال البعض الآخر: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال غيرهم: إن الله ثالث ثلاثة، فأكبتهم جميعا بالحجة الدامغة فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وما هنا نافية؛ ومن لاستغراق النفى (إله) نكرة فى سياق النفى، نعم: يعنى انتفى جنس الآلهة وثبت الإله الواحد بالعقل والنقل، وهذه الجملة فيها قصر الصفة على الموصوف، فانحصرت الألوهية فى ذات الله تعالى لا تتعداه إلى غيره. وإن كان الله يتعدى الألوهية إلى غيرها من أسمائه وصفاته التى ذكرها فى القرآن وبيَّنها رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وكل من اتخذ إلَها غير الله تعالى— بعد أن قامت الحجة بالنقل والعقل والشواهد القائمة فيما أحاط بنا من الكائنات— دل على أنه أضل من الأنعام. .

﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يهدد الله اليهود والنصارى بأنهم إن لم ينتهوا عن كفرهم بالله وبرسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، بقولهم : عُزَيْر ابن الله ، وقولهم فى المسيح ما قالوه كفرا ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ بعد هذا البيان ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الدنيا من أهل الحق القائمين لله عملا بكتابه وبسنة نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ ، وعذاب أليم بالجزية وذلهم لذمة المسلمين، وباتخاذهم أرقاء إذا خرجوا على المسلمين . وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم. ولا يرد علينا ما عليه النصارى واليهود الآن من العلو فى الأرض بالباطل، لأن سبب ذلك ترك المسلمين العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله، قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾[1] وقال ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم ﴾[2] والمسلمون الآن شغلهم الحظ والهوى والطمع عن نصرة الله ورسوله فمكن الله منهم عدوهم، ولو أننا

١- سورة الحج آية ٤٠.

٢- سورة محمد آية ٧.

رجعنا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لأعاد الله لنا مجدنا، ومكن لنا في الأرض، وذل لنا عدونا وعدوه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] وصدق الله العظيم فيما أورده من الشرط فى هذه الجملة، فإن قوله تعالى: ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ فيها اللام للقسم، والمعنى: والله ليمسن الذين كفروا، وخبر الله من غير قسم حق وصدق.

قوله تعالى: أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

(أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ) أى: أفلا يتوب اليهود والنصارى عن ما يفترونه من الكذب على الله ورسله عليهم السلام. والتوبة: الرجوع إلى الحق من الباطل الذى هم عليه، والحق هو ما جاءت به الرسل وبينته، إذ ليس للعقل هنا قوة يتلقى بها ما يحبه الله من الله، ولو كان له كذلك لكانت بعثة الرسل عبثا، فإن العقل الإنسانى خلقه الله تعالى ليسخر ما حوله من الحقائق لنفع نفسه (وَيَسْتَغْفِرُونَهُ) أى: يطلبون منه المغفرة وهى ستر الذنوب عن الجوارح والعالم بل وعن الملائكة، فإن الذنوب لا تمحى، وكيف يمحى ما هو ثابت فى علم الله تعالى ؟ ، ولكنها تستر بمغفرة الله تعالى (وَاللّهُ غَفُورٌ) أى: واسع المغفرة، لأن كلمة غفور صيغة مبالغة لغافر (رَّحِيمٌ) أى: يمنح جزيل النعم الأخروية الروحانية المناسبة لغفور.

قوله تعالى: مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

١- سورة الرعد آية ١١.

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ نفى الله تعالى عن المسيح ابن مـــريم معانى الروبية، وقصره على الرسالة فقط بلوازمها من العبودية ومن كونه إنســـانا بقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ هو الإنسان العاقل البالغ المتحقق بكمال العبودية سمعا لله وطاعة وقياما بالتبليغ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أى: أرسل الله قبله رســـلا كثيرين، فبعثة الرسل سنة الله الماضية والمسيح رجل منهم، فادعاؤهم أنه ابن الله؛ أو أنه هو الله؛ أو أنه ثالث ثلاثة كَذِبٌ على الله، وبرهان على انحطاط المـــدعين إلى أسفل من الجمادات ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أى: والدته التى ولدته كما تلـــد النســـاء أبناءهن صدِّيقة أى: مصدقة مؤمنة بالله وبرسله، لم تخرج عن كونها امرأة؛ غاية ما فى الأمر أن الله تعالى قدّر أن تحمل من غير رجل، وليس ذلك بعجب لأن الله خلق آدم من غير أم ولا أب، وخلق حواء من غير أم، فخلق آدم من الطين وخلق حواء من ضلع آدم كما بينت ذلك الكتب السماوية، وأوضحه التاريخ بالتواتر، فمـــن رأى فى حمل امرأة شابة بالغة صحيحة البدن من غير رجل عجبـــا يـــدعوه إلى أن ينسب الولد إلى الله فقد افترى على الله كذبا، ثم أقام الحجة الدامغة على كفـــره وجهله بقدرة الله سبحانه. .

﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ أى: أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام كمـــا يأكل الناس، ويتغوطان، وينامان، ويخافان، ويفرحان، أى: تتغير عليهما الشـــئون، ومَن تغيرت عليهما الشئون فهما عبدان ذليلان لله، فإن الله القوى العظيم القـــادر الحكيم أزلى لا يتغير، أبدى لا يحتاج إلى غيره، وليس كمثله شيء وهـــو العزيـــز الحكيم، ومن قهره اليهود والرومان وجروه على وجهه وضربوه حتى تألم وتـــأوه، وأعدوه للصلب فأنجاه الله منهم ورفعه إليه فهو عبد ذليل، حادث صغير، تعتـــوره الشئون الكونية ويخضع للحوادث الزمنية، وليس بابن الله ولا هو الله ولا هو شطر من الله، وتتره وتعالى.

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ ى أى: فانظر يا محمد أنت وأمتك كيف نبين لهم الآيات بالحجج القائمة والدلائل الواضحة، واعجب من هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى ﴿ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى: إلى أى ناحية من أنحاء الباطل والكفر ينصرفون، فإنَّ أَفِكَ: انْصَرَفَ، ويَأْفك: ينصرف، وهذه الآية تبويخ شديد لليهود والنصارى على إفكهم الباطل، وانصرافهم عن الحق بعد قيام الحجة، أعاذنا الله وإخوتنا من سوء القضاء.

قوله تعالى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يأمر محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ لأن يقول لليهود والنصارى ممن زعم أن عُزَيْراً ابن الله من بنى إسرائيل، ومن أدعى أن المسيح إله أو ابن الله أو أنه ثالث ثلاثة كما تقدم، والهمزة فى ﴿ أتعبدون ﴾ للاستفهام الإنكارى. وينكر الله عليهم كل الإنكار عبادهم لغير الله تعالى ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ أى: من غير الله تعالى ﴿ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ أى: مخلوق لا يملك لنفسه الضر أو النفع فضلا عن أنه لا يملك لكم، فإنكم شاهدتم بأعينكم أو بفكركم الذى بلغه بالتواتر ما عذب اليهود به المسيح عليه السلام إلى أن أعدوه للصلب الذى هو نهاية العذاب. لكن الله تعالى أنجاه منهم فرفعه إليه، وصلبوا شبيهه يهوذا الإسخريوطى الذى دل عليه، بعد ما أظهره المسيح من الحجج لكم التى أثبتت عبوديته لله، وبعد ما أقامه الله تعالى من الحجج على تفريده بالألوهية دون غيره مما تقدم فى صريح الآيات، تعبدون مخلوقا مثلكم، تعتوره الأحوال البشرية من صحة وسقم، ومن شباب وهرم، ومن فقر وغنى، ومن ذل وعز، ومما لا يقوم إلا بالمخلوق المقهور المربوب، وهذا كله عناد منكم، وتقليد لآبائكم الذين أعمى الله بصائرهم وأضلهم.

﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الذى يسمع سرهم وجهرهم، وحتى يسمع كلام نفوسهم، بل ويسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويعلم ما يسرون وما يعلنون، وما هو أخفى من ذلك وسوسة قلوبهم، وهواجس نفوسهم، وسوء نواياهم. وفى هذه الآية الشديدة حجة قصمت ظهورهم وتوبيخ وتهديد لهم، وأن من يهد الله فهو المهتد.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

هذه الآية الشريفة حجة منتسقة فى سلك الحجج السالفة تجلل النصارى بالخزى. (قُل) يأمر الله سبحانه وتعالى محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بأن ينادى أهل الكتاب بقوله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أى: يا أهل الإنجيل ﴿ لاَ تَغْلُواْ ﴾ لا تبالغوا مبالغة تبلغ الإغراق غلوا ﴿ فِي دِينِكُمْ ﴾ أى: فى دين المسيح الذى يزعمون أنه جاءهم ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أى: لا تتجاوزوا الحق الذى أنزله الله على عيسى إلى الباطل، غلوا وإفراطا فى تأييد الباطل الذى ما أنزل الله به من سلطان ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ ﴾ الواو هنا للعطف، والجملة معطوفة على الجملة التى قبلها أى: ولا تقتدوا بأهواء اليهود الذين تعدوا الأدب مع الله ورسوله، فرموا المسيح بأنه ابن زنا، وقذفوا أمه بغضا للحق وحسدا لعيسى عليه السلام، فتكونون سواء فى لعنة الله تعالى وغضبه، لأن النصارى غالوا فى الحكم على المسيح بما لا ينبغى فجعلوه إلها أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، واليهود غالوا فى الحكم على المسيح بما لا يليق به فجعلوه ابن زنا، وكلا الحكمين موجب لغضب الله تعالى ومقته لهم، ومخرج عن الإيمان بالله.

﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ أى: أضلوا بضلالهم وتعصبهم لما عزموا عليه من تنفيذ حسدهم لعيسى عليه السلام الذى أوقعهم فى أعمال تخرجهم عن الإيمان وتخلّدهم فى نار جهنم ﴿ كَثِيرًا ﴾ أى: كثيرا من ذرا ريهم ومن اقتدى بهم من أهل الجاهلية الذين أقاموا بين ظهرانيهم فى قريظة وقينقاع والنضير وخبير، فإن كثيرا من الجاهلية اقتدوا باليهود والنصارى فتنصَّر بعض عرب الجاهلية وتهَوَّدَ بعضهم، وكل ذلك بإضلال اليهود والنصارى ﴿ وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ أى: ومالوا عن سواء السبيل، وجاروا فى قصدهم. وسواء السبيل المحجة البيضاء التى هى الوسط المعبد، والسبيل هو الطريق، وسمى التمسك بالدين طريقا وصراطا ومنهجا ومنهاجا، وكلها ألفاظ مرادفة، والمعنى ما يوصل إلى الله تعالى، لأن ما يوصل الإنسان من نقطة إلى أخرى يسمى طريقا، وسمى السالك إلى الله (ابن الطريق) مجازا، وإلا فالمسافة التى بيننا وبين ربنا لا تحد ولا تعد، لأنها مسافة معنوية دعا إليها النفس الأمارة بالسوء والوهم الضعيف والخيال المستضعف وما يدعو إليها من شهوتى البطن والفرج والأمل والطمع، والسالك إنما يجاهد تلك النفس، ويجتهد أن يعالج تلك القوى حتى تتوسط ولديها يسلك على المنهاج القويم.

قوله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

بعد أن بين الله لنا ما قاله اليهود فى المسيح من القول الذى تجاوز حدوده، وبيّن ما قاله النصارى فيه من الغلو البالغ مبلغ الإغراق؛ بيّن الله لنا ما كان عليه اليهود من بنى إسرائيل الذين خالفوا أمر الله تعالى واعتدوا على رسله وأنبيائه، حتى استحقوا أن يمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، وهو معنى اللعنة فى الدنيا، فقوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يعنى من اليهود ﴿ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ فإنهم خالفوه مخالفة عنادية، حتى كان منهم أنه سألهم يوما عن المقيمين فى

بيت معين فقالوا: هم قردة، فسأل الله بأن يجعلهم قردة وأن يلعنهم، خصوصا اعتداؤهم كما تقدم فى سورة البقرة ﴿ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ عندما طلبوا المائدة فأنزلها الله حتى أكلوا منها، ثم خافوه واعتدوا عليه، فلعنهم وسأل الله أن يجعلهم قردة. وقد لعنهم النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ بما كانوا يفعلونه من قطع طريق الله تعالى، وصد الناس عن الإسلام، وتغييرهم كلام الله تعالى فى التوراة. ومعنى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أى: لعنهم داوود وعيسى ومحمد عليهم السلام، وكان هذا اللعن من داوود وعيسى اقتضاه ما يوجب ما فوقه من العذاب، ولكن الله أجَّل عذابهم الشديد إلى يوم القيامة بعد أن مسخهم قردة وخنازير، واليهود كأنهم خلقوا من طينة الخيانة، وما خلا يهوديان بمسلم إلا وَهَمَّا بقتله، ولا نزال نرى منهم ما يثبت أنهم ليسوا من بنى الإنسان، لأن الله سلب الرحمة من قلوبهم فيسلبون أموال الناس بالباطل وهذا سر لعنة الله لهم.

﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا الله به من مسخهم، يعنى أن الله مسخهم بما اقترفوه من المعاصى والكبائر تعجيلا بعقوبتهم فى الدنيا، وما أجَّله لهم من عذاب يوم القيامة أشد وأنكى. وقوله ﴿ بما عَصَوا ﴾ الباء دخلت على المصدر المنسبك من ما المصدرية والفعل، أى: بعصيانهم، ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ أى: أن عقوبتهم بالمسخ بسبب معصيتهم وهى مخالفة أحكام الله وأوامره ووصايا رسله، واعتدائهم بخروجهم عن الحد الذى حده الله لهم.

قوله تعالى: كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ أى: لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر الذى يقع فيه الآخرون، وكانوا إذا وقع المنكر بينهم نهى أحبارهم مرتكبى المعاصى بأيديهم فعلا، حتى شغلتهم الدنيا وتداخلوا فى بعضهم بالتجارات والمعاملات وتركوا النهى عن المنكر والأمر بالمعروف، حتى عمتهم المصائب وغضب الله عليهم، وفى هذه الآية أشد تخويف للمسلمين. لأن الله مسخ قوما يفعلون المنكر فلم يتناهوا – أى: لم ينه بعضهم بعضا عن المنكر – فجعل لهم العقوبة ومسخهم قردة وخنازير، وكان الرجل إذا فهل المنكر ونهاه غيره نفر منه ووبخه وهمّ بأذيته، والحاضرون لا يحركون ساكنا فعمتهم البلية، وهكذا إذا جُعِلَ المنكر بيننا فلم ينه عنه العلماء أو الحكماء أو الأتقياء وألف الناس المعاصى، و لم يبق بين المجتمعات مَنْ يُحذّر الناس غضب الله تعالى، ولا مَن يخوفهم بطشه، عمت المصائب وسلط الله علينا أعدائنا الذين كفروا وكانوا أذلاء لنا، فساموننا الخسف وأذلونا لنرجع إلى الله، فإن لم نرجع إلى الله حصل لنا ما حصل لنا ما حصل لبنى إسرائيل، لولا أن الله – إكراما لنبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ - حفظنا من المسخ والسخف بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعذبَهم وَأَنتَ فِيهم وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُم وَهُم يَسْتَغفرونَ ﴾[1].

فالواجب على جماعة المسلمين إذا أحَبُّوا أن ينصرهم الله أن يقهروا مرتكبى الكبائر حتى يُرْجِعوهم إلى الحق، أو يقاطعوهم فلا يدانوهم فى المعاملات ولا فى زواج ولا فى نسب ولا فى تجارة، حفظا على النفوس من عاجل غضب الله تعالى، وقد قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ لَتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولَتنهُنَّ عن المنكـرِ أو لَيُسَلّطَنَّ الله أشرارَكم على خِيارِكم ﴾.

١- سورة الأنفال آية ٣٣.

إذا تقرر هذا فما أَلَمَّ هذا البلاء الفادح بالمجتمع الإسلامى، مِنْ تسليط مَنْ كانوا أرقاء تحت أيدينا، ومِنْ ذُلّنَا فى أوطاننا، إلا لترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو قيام من لا يحسن الأمر والنهى بيننا، فَيَحْرِمُونَ الناس من الدين وأهلـــه، وعند ذلك يحل البلاء ويترل سخط الله على الناس.

﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ اللام هنا للقسم، والمعنى: والله لبئس ما كانوا يفعلون، يعنى قَبُحَ الفعل فعلهم، لأنه أنتج مسخهم ولعنهم. وكذا تكون الحالة فى المسلمين، لأن كل عقوبة عجلها الله لمن سبقنا بسبب عمل من الأعمال فإنها تجــر بذيلها من فعلها منا، نسأل الله أن يعصمنا من الفتن المضلة والأهواء المذلة إنه ولى المؤمنين.

قوله تعالى: تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَـــدَّمَتْ لَهُـــمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ خطاب إلى رســـول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والمعنى : ترى يا محمد من اليهود معاصريك يتولون الذين كفروا ككعب ابن الأشراف وغيره من أغنياء اليهود، الذين كانوا يتوجهون إلى قريش ليعينـــوهم على حرب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد أن كانوا – قاتلهم الله – يتمنون ظهوره ﴿ ﷺ وآله﴾ ليقاتلوا معه أهل الجاهلية ، صاروا بعد ظهوره يستعينون عليه بالمجوس عبدة الأصنام ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ اللام هنا للقسم أيضا ، وبئس ما قدمت أنفسهم من أنواع الكفر بالله ، ومن الجرأة على موالاة أعداء الله والمسارعة

فى تكذيب رسل الله صلوات الله عليهم، وصدّ الناس عن طريق الله ﴿ أن سَخِطَ اللّهُ عَلَيهِم ﴾ أى: وقوع سخط الله عليهم فى الدنيا بالمسخ والذل ودفـــع الجزية ﴿ وَفِى العَذَابِ هُم خَلِدُونَ ﴾ يوم القيامة.

قوله تعالى: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء ﴾ معنى هذه الآية الشريفة: ولو كان اليهود يؤمنون بالله تعالى وبالنبى موسى عليه السلام، وما أنزل إلى موسى من كتاب الله الذى هو التوراة ما اتخذوا المشركين أولياء، لأن الإيمان عصمة القلوب من الشيطان، وحصن الأمن من الشك والريب، فكيف يعتور قلب المؤمن قد يعصى شك أو ريب فى وحدانية الله وتفريده بالعبادة دون غيره بعد أن باشر الإيمان سويداءِ القلوب ؟! المؤمن قد يعصى الله بجوارحه ويطمع فى عفو الله ورحمته، ولكنه أكبر من أن يتخذ لله ولدا أو ينكر اسما من أسمائه أو صفة من صفاته.

وكل معصية دون الشرك قد تقع من المؤمن، ومع ذلك فإن المؤمن يطمع أن يغفر الله له إيمانا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾[1] فَإنَّ الإيمان لا يعصم المؤمن من المعصية، وإن عصمه من الكفر أعاذنا الله منه.

وجائز أن يكون تأويل هذه الآية: ولو كان المشركون يؤمنون بالله وبرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبما أنزل إليه من القرآن ما اتخذهم اليهود أولياء، بل ولا اتخذوهم هم أولياء، لأن الإيمان حصن من الوقوع فى ولاية أهل الكفر بالله وبمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ، ومهما دعا المسلم الاحتياج إلى موالاة الكافرين؛ فإن ذلك يكون بظاهر الجسم لا بالقلب ونواياه وقصوده، ولا ترى المؤمن يوالى الكافر بخدمة أو

١- سورة النساء آية ٤٨.

مساعدة إلا وقلبه يلعنه ويتمنى له أن يسلم أو يهلك ، وهذا التأويل لا يمنعه فى الآية مانع.

﴿. وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ هذا حكم من الله تعالى على اليهود الذين زعموا أنهم آمنوا بالله وبموسى وبالتوراة، ثم كفروا بولايتهم لمشركى العرب. أو حكم منه سبحانه بأن مشركى العرب لو أنهم آمنوا برسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وبالقرآن ما اتخذوا اليهود أولياء، لأن الإيمان برهان على سلامة العقل من التردد والهوى، وإنكار الإيمان حجة على فقد العقل عن الله تعالى، وبهذا الحكم يجوز لنا أن نحكم على المؤمنين الذين يوالون غير المسلمين – من غير ضرورة إلى ذلك – أنهم لا عقل لهم يعقل عن الله تعالى، وبذلك يكون إيمانهم ضعيفا جدا. وقول الله تعالى: ﴿ وَلكنَّ كثيرا منهم فَسِقُونَ ﴾ دليل فى التأويل الأول أن أكثر اليهود فارقوا دين موسى، وفى التأويل الثانى أنَّ مشركى العرب الذين حصلت منهم ولاية اليهود حرمهم الله من القابل للإيمان.

فإن سعادة الدنيا – التى تنيل الإنسان السعادة فى الآخرة – أن يتفضل الله على العبد بالقابل و بالفيض، فإن منحه القابل ولا فيض كان أهل الفترة، وإن أظهر الفيض وحرمه القابل كان من أهل الكفر بالله تعالى، والقابل هو العقل الذى يعقل عن الله، والفيض هو الفضل الذى يبعث الله به أنبياءه.

وتم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس

ويليه الجزء السابع وأوله قوله تعالى: ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ ٠٠٠))

الفهرس

الموضـــــــوع **الصفحة**

تفسير قوله تعالى : (لا يحب الله الجهر بالسوء)
بيان أن الله تعالى لا يحب الظلم ولا يحب السكوت عليه
بيان أن إبداء الخير وإخفاءه بحسب حال الفاعل
الكفر بواحد من الأنبياء كفر بالكل ، وكفر بالله تعالى
الإيمان بالرسل السابقين لا يلزم منه العمل بشرائعهم
الأجر فى البرزخ هو أنس الروح بمشاهدة ملكوت الله الأعلى
بيان أن طلب اليهود من النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يـــترل علـــيهم كتابا من السماء كان تحكما وتعنتا و لم يكن استرشادا
طلب أسلاف اليهود من موسى أن يريهم الله جهرة وبيان معنى أن الصاعقة أخذهم
بيان فى أن رؤية الله ممكنة وأن الإدراك مستحيل
تنبيه لنا ألا تستكثر علـــى الله ذنبـــا وأن نســـارع إلى التوبـــة والاستغفار
إشارة إلى اليهود أن اليهود لا يوقعون عهداً ولا معاهدة إلا تحت القوة القاهرة
أخلاق اليهود التى تظهرها أعمالهم
بيان أن قتل الأنبياء بغير حق على معنيين
ما للعقل وسر القدر ؟!!
تكذيب اليهود فى ادعائهم قتل المسيح وصلبه
أقوال فى الذى شبه بالمسيح
رد الإمام المجدد على النصارى فى ادعائهم صلب المسيح

حرمان اليهود والنصارى من القنوات الموصلة إلى الحقائق
بيان ان الذى صلب هو يهوذا الإسخربوطى وليس المسيح عليه السلام
بيان فى حقيقة رفع المسيح عليه السلام إلى الله تعالى
بيان فى معنى إيمان أهل الكتاب بالمسيح عليه السلام قبل موته
اليهود ظلموا أنفسهم فشدد الله عليهم فى الدنيا والآخرة
العلماء أربعة أنواع
تفسير قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك .....)
الرد على شبهة اليهود فى أن القرآن لم يترل دفعة واحدة كما نزلت التوراة
بيان إثبات أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام
بيان فى كلام الله تعالى لموسى عليه السلام
لا حجة للناس على الله تعالى ولو لم يرسل رسولا
الله وملائكته يشهدون لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ أنه رسول الله
لا مغفرة للكفار ولا هداية لهم إلا إلى طريق جهنم
الإيمان خير للمؤمن فى الدنيا والآخرة
بيان فى بطلان أقوال النصارى فى المسيح عليه السلام
بيان فى أن سيدنا عيسى كلمة الله وروح منه سبحانه
بيان فى معنى أن المسيح روح الله
الدليل على عبودية المسيح عليه السلام
التثليث قديم وهو عقيدة وثنية
بطلان زعم النصارى أن المسيح ابن الله
بيان فضل الله للمؤمنين وعذابه للمستكبرين

القرآن الكريم دعوة وحجة
جمع الله برحمته وفضله للجسم والحس والعقل كل ملاذها
بيان فى الذى يورث كلالة
تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود .....)
الدليل على حل بهيمة الأنعام وهى الأزواج الثمانية
بيان أن تحريم الصيد وقت ومكان الإحرام تحريم خاص
بيان ان شعائر الله هى الفرائض التى كلفنا بها وما سنه لنا ورغبنا فيه رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾
بيان أن التعاون على البر والتقوى هو ترك ما يغضب الحق ويضر الخلق
بيان الحكمة فى تحريم الميتة والدم ولحم الختزير
بيان الحكمة فى تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة
بيان فى معنى النصب والاستقسام بالأزلام
بيان معنى أن الله تعالى أكمل لنا دينه وأن ذلك لا يمنع الأخذ بالقياس
بيان أن الله تعالى أتم علينا نعمته فى الدنيا والآخرة
بيان فى ان الرضا أعلى مقامات اليقين
بيان ان الطيبات هى ما تشتهيه النفوس الفاضلة لا النفوس السافلة
طعام أهل الكتاب حل للمسلمين ما تمسك الكتابيون بالتوراة والإنجيل
بيان فى زواج المسلم من المحصنة الكتابية
بيان أن الصلاة جمعت شكر الله بكل قوى الإنسان

بيان فى طهارة الظاهر وطهارة الباطن
بيان فى موجبات الغسل
بيان فى الماء الطهور وما يقوم مقامه عند فقده
الإمام المجدد يكشف حكمة التيمم
بيان فى خلقة الإنسان باليدين ونفخ الروح فيه
بيان فى معنى النعمة وميثاق الله تعالى
المسارعة إلى محاب الله ورسوله جهاد أكبر فى ذات الله تعالى
العدل شريعة الإسلام مع الأولياء والأعداء على السواء
وعد الله لأهل الإيمان بالمغفرة والأجر العظيم
النعمة المضافة إلى الله تعالى تفيد نعم الروح والجسم
تفسير قوله تعالى : (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ....)
قصة نقباء بنى إسرائيل
ما تضمنه الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل
نقض بنى إسرائيل الميثاق أورثهم قسوة القلوب
خداع اليهود قائم فى كل زمان
اليهود والناصرى سواء فى نقض العهود
إضلال إبليس لأتباع المسيح عليه السلام
اليهود يخفون حكم الرجم فى التوراة ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يبينه
بيان ان رسول الله هو الذى جاءنا من عند الله ، والكتاب المبين هو القرآن المجيد
الدليل على كفر النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح وبيان فساد عقيدهم والرد عليها

حجة دامغة على انفراد الله بالألوهية
ادعاء اليهود والنصارى كذبا أنهم أبناء الله وأحباؤه والدليل على كذبهم
معنى محبة الله تعالى للعبد
اليهود والنصارى ينكرون ما فى التوراة والإنجيل من ذكر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾
الحق سبحانه يبين لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أسرار التوراة ما لا يعلمه إلا الله وعلماء اليهود
بيان فى دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة
الخوف الشديد والحب المفرط يخرجها الإنسان عن التوسط
مخالفة اليهود لسيدنا موسى بالقول والعمل وعقوبة ذلك
بيان للإمام المجدد فى معنى تحريم الأرض المقدسة على اليهود
تفسير قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم الحق ....)
قصة قابيل وهابيل
أكثر بنى إسرائيل من ذرية قابيل وأبنائه
السر فى أن الله تعالى عظم خطيئة قابيل تعظيما جعل العقول تحتار فيها
بيان أنواع الجزاء للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا
من هم التائبون الذين تسقط التوبة ما عليهم من الحدود والحقوق للناس
بيان الإمام المجدد فى معنى التقوى ، والوسيلة ، وأنواع الجهاد فى سبيل الله تعالى

مزيد بيان فى الجهاد وأنواعه
بيان انه من العدل أن لا تقبل فدية من الذين كفروا،وأن يخلدوا فى نار جهنم لجحودهم مالا يخفى على العقول
بيان المقصود من قوله تعالى : (والسارق والسارقة) وبيان قيمة ما تقطع فيه اليد
تفسير قوله تعالى : (يا أيها الرسول لا يحزنك ....)
أحبار اليهود يغيرون حكم التوراة برجم الزانى المحصن ورسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ يكشف ذلك
بيان أنواع السحت
رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ معصوم من الحكم بغير القسط
دليل على أن اليهود لا يؤمنون بالتوراة بل ينقـــادون للـــهوى والطمع
بيان معنى الربانيين والأحبار ، والفرق بينهما
الإمام المجدد يبين : متى يكون من لم يحكم بما أنزل الله كافرا ، أو ظالما ، أو فاسقا ؟
الإمام المجدد يبين : هل العفو عن الجانى يسقط عنه العقوبة يوم القيامة أم لآ ؟
أمر من الله لأهل الإنجيل أن يحكموا بما فى الإنجيل من البشـــائر بمحمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ويسارعوا إلى الإسلام
بيان ان القرآن أمين على سائر الكتب السماوية وحفيظ وشهيد
بيان الفرق بين الشرعة والمنهاج
السر فى ان الله خلق الإنسان بيديه وأسجد له ملائكته وسخر له كل شئ وأقامه خليفة عنه سبحانه

نهى الله تعالى عن اتباع أهواء اليهود وتحذيره سبحانه من فتنتهم
دليل على أن اليهود من أولهم إلى آخرهم فاسقون إلا قليلا منهم
تفسير قول تعالى : (يأيها الذين آمنـــوا لا تتخـــذوا اليهـــود والنصارى أولياء ...)
النهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء
بيان أن الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فى موالاة الكفار
تشنيع من الله على المنافقين الذين يوالون اليهود والنصارى
معنى حبوط الأعمال ، وبيان أن أعمال الجوارح مبنيـــة علـــى حسن الإخلاص فيها
بيان فى المحبة ومقامات أهلها
بيان فى الجهاد الأصغر والجهاد الكبر
برهان على ان حالة الإنسان التى هو بها من صلاح أو فســـاد مقدرة أزلا
بيان فى معنى ولاية الله ورسوله والذين آمنوا
بيان فى زكاة المال وزكاة النفس
أهل الكفر بالله فقدوا العقل الإنسانى وتشبهوا بالحيوانات
بيان معنى أن أكثر أهل الكتاب فاسقون
بيان أن المثوبة قد تكون للشر وللخير
من معانى الجعل تنويع الحقيقة وصفا وهيئة
أهل النفاق العلمى العنادى لم يقدر الله لهم سماع القبول
بيان أن واجب العلماء تذكير عباد الله تعالى
الإمام المجد يبين أن (يد الله) ليس معناها القدرة ، ودليل ذلك
قول الإمام المجدد فى معنى اليدين المنسوبتين لله تعالى

فتوى للإمام المجدد فى الحكم على من يسارع فى اليهود أو يبيع لهم دارا أو أرضا فى فلسطين
إشارة إلى غذاء العقول والأرواح والنفوس
تفسير قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ....)
بيان ان الإنسان لا ينفعه نسبه ولا علمه ولا عمله مادام يجعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا
المنكرون كرامات أولياء الله أدعياء تشبهوا باليهود والنصارى فى إنكار الحق
بيان ان الإيمان طهرة كبرى والتوبة طهرة صغرى
بيان فى معنى خوف المؤمن وحزنه وزوال ذلك عنه عند الموت وبعده
بيان ما عليه اليهود من خبث الطبع والجرأة على الله ورسله
بيان أن اليهود كلما أصابتهم مصيبة لا يعتبرون بها
المسيح يرى أن الجنة حرام على من يشرك بالله ، فكيف تكون على من جحد الله واتخذ له إلها غيره؟
عقيدة النصارى كان يعتقدها جهلاء القرون القديمة كالفراعنة ومجوس الهند وغيرهم
ما عليه النصارى واليهود الآن من العلو فى الأرض بالباطل سببه ترك المسلمين العمل بالكتاب والسنة
بيان أنه من رأى فى حمل مريم بابنها عيسى عليه السلام سببا يدعوه أن ينسب الولد إلى الله فقد افترى على الله كذبا وأقام الحجة على كفره وجهله بقدرة الله سبحانه

المسيح مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا فكيف يعبد من دون الله ؟

بيان معنى اللعنة التى أصابت الذين كفروا من بنى إسرائيل

بيان ما ألم بالمجتمع الإسلامى من البلاء الفادح سببه ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أو قيام من لا يحسن الأمر والنهى بيننا (٠٦) أسرار القرآن الجزء السادس

بيان أن الإيمان لا يعصم المؤمن من المعصية وإن عصمه من الكفر

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.

٢- صيام أهل المدينة المنورة.

٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾

٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.

٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.

٣- الشفاء من مرض التفرقة.

٤- الجفر.

٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.

٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.

٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.

٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج

٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أســرار القــرآن

الجزء الرابع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030